

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصوري

ترجمة

د. حسن حبشي

الجزء الأول



٤٥

تاريخ المصريين



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصوري

ترجمة وتقديم

د. حسن حليش



مكتبة المستقبل للطباعة

١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A

*HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA*

BY

WILLIAM OF TYRE
TRANSLATED BY

EMILY ATWATER BABCOK

&

A. C. KREY

Columbia University Press

1943

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، المؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أي على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه الفترة والتي تليها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت تتدفق فيها من غرب أوربا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتسريبة بمسوح الدين والمتمسحة بالصليب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبية .

أما مؤلف الكتاب فهو ولیم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي يعده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة . وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغيره ، فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، والمأمة بالعربية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما جعله مبرزاً في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد شغل من المناصب ما جعله جزءاً من الأحداث التي يؤرخ لها ، فقد كان مشرفاً على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسفيرا للملك عمورى فى بلاط امانويل امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة فى سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور ، ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة بعد الملك .

أما المترجم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن ، واختير للتدريس فى كلية « سباوث ايلنج » بلندن ، وتدرج فى سلك التدريس الجامعى فى جامعة عين شمس ، مدرسا فأستاذا مساعدا ، فأستاذا لكرسى التاريخ بكلية الآداب ، ولعرفته باللغة اللاتينية والفرنسية القديمة ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغة العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبية ، التى سماها بالعربية « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياة الملك لويس التاسع وحمالاته على مصر والشام للمؤرخ الفرنسى جوفانفيل ، كما ترجم عن الفرنسية القديمة كتاب « فتح القسطنطينية » على يد الصليبيين لروبرت كلارى . كما نشر مخطوطة « مضممار الحقائق وسر الخلائق » لتقى الدين الحموى ، ابن أخى صلاح الدين الأيوبي ، وفيه جزء يتعلق بمعركته فى سبيل استرداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرات « جودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبية الرابعة

وتعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبية » لوليم الصورى ، التى سهوف نصيرها فى أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التى يثبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية الرفيعة فى بلدنا وفى العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التى

نرسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطريق السليم والوحيد
للوصول الى الاستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعنى الا أن أعرب عن تشرف هذه السلسلة من
« تاريخ المصريين » بنشر هذا العمل العلمى العظيم ، الذى يهم
المثقف والعالم المتخصص ويضعه فى أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق ؟

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء بحقبة من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى الثقل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك - الى حد ما - على بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتو، تليها - لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان - جموعا كثيفة وجيوشا جرارة هى فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق - على وجه الخصوص - من غرب أوروبا ، متسربة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أيدي المارقين » ، ولو صدقت لقاتل امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى بأكملها بعد تفريغها من أصحابها الحقيقيين أيا كان دينهم ومذهبهم .

والواقع أنه كانت هناك دوافع أعمق من هذه الشعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للشعور الغربى لا سيما بين الصامة ، وكانت هذه الدوافع تكمن وراء الزخوف التى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « وليم » ، فان زادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، وإذا رحنا نسأله من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه - وهم كثيرون - بإجابة ما ، اذ يمسكون عن الرد ولو بشيء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعتة بالصوري الا نسبة الى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامي والتي لها تاريخ - وأى تاريخ - في العصور المختلفة قديمها وحديثها ، فقد صار مؤرخنا « وليم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أى بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات قلائل من فتح الصليبيين للمدينة .



أصله ونشأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « وليم » فانهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اختلافا بينا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام بنشر كتاب « ادوارد جيبون » عن « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعداد من عيون التراث الكلاسيكى فى الأدب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون اليها يترددون فى كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التى تعرف جزءا كبيرا منها لا سنيلا منذ أن قارب سن الشباب يرى أنه عاش فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سنواء فلى

مملكة بيت المقدس اللاتينية أو قى فرنسا وإيطاليا ، ومكيا على الدراسات الدينية ومشرفا على ديوان الرسائل فى بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينية وسفيراً للملك عمورى الى بلاط « امانويل » امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة فى سلك الكهنوت المسيحى اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يتطلع فى حسرة لأن يكون بطرك بيت المقدس ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . فاذا عرفنا ذلك كله عنه تملكنا العجب من جهل التاريخ لأسرته جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس فى القدس ، ويريد هذا الفريق أن يقول أنها ليست من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون فى القمة من المؤرخين اذ كتب ما كتب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة اللاتينية بعد الملك ، وأن يسبق أقرانه فى العلم والذكاء والمعرفة وسعة الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانسانية سبقا لم يجاراه فيه أحد من أنداده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسرته الى التضارب البين فى أين كان منشؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة صليبية ، ودرج على تراها فأحبها حبا تمثل فى أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التى اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبعجلة فى التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتى هى عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يظلل فى دراستها ويجعلها مستهل كتابته التاريخية منذ أن فتحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وإن كان قد أوجز ايجازا شديدا فى عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربى لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فاذا أخذنا بالرأى القائل بمولده في المملكة جاز لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبي ، وهو قول غير بعيد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للتساؤل : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ .. فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد الغرب الأوربي ؟ .

وقد ثارت هذه التساؤلات في أذهان كثيرين ممن ترجموا له وذهبوا في ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرنسي ، ومنهم من قال انه ايطالي ، وزعم آخرون انه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء انه ألماني ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده في تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك .

هذا التضارب الكبير في تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يختلفوا في أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يورد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الإشارة اليهم في كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم في معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو ذاته ، مما فتح باب الاجتهاد والتكهن واسعا أمام من اتبوا عنه فكان اجتهادهم أقرب الى الحدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجتهدون شيعا وأحزابا يذهب كل منها في هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، مردته كل طائفة الى بلد أوربي غير البلد الذى ردت له الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القديس مهبط رأسه .

فاذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى أصل أوربي عجزنا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه الماني الأصل ، غير أن المطالعة الدقيقة لكتاب « وليم » التاريخي هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأي ، لأنه حين يعرض لبعض من اشتركوا في التجريدات الصليبية من التيوتون « الألمان » نراه يتدد بهم تنديدا بالغا بسبب سوء مسلكهم وهمجيتهم التي يميظ عنها اللثام دون تخرج من جانبه أو رعاية لهم وهم على دينه ومذهبه ، كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يتورعون عن الافساد في بلاد « اخوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرض وهاتكين للعرض وهم في طريقهم لانقاذ اخوانهم « المسيحيين الشرقيين » ... فلو كان وليم جرمانى النبعة لما تناولهم هذا التناول المر ولأغضى عن بعض مخازيهم أو قلل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألماني في عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان في الحملة الثانية فإنه يقدم الدليل - عن غير قصد - على جهله بأكثر المقدمين من وجوههم .



إذا كنا قد استبعدنا أن يكون المانيا فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجزيرة ، وهم معذورون في اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفة صور وينعت أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحبنا مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا - بناء على ما سنقدمه حالا - أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الثاني » ، ولقد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليزيا قحبا وكان يشغل وظيفة حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويشنى على أخلاقه ومنهجه في الحياة ثناء عاطرا ، ويقول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزي المولد » ، ثم يتابع بعد قليل كلامه عنه فينتعه « بسلفنا وسلف جميعنا نحن الذين جئنا من بعده » ، أي في رياسة أسقفية صور التي كان وليم الأول رئيس أساقفتها سنة ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخنا ويثعته « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجيد » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما ليتسلم عصا الرعوية من البابا بعد أن مسحه بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الخبر عن وليم الأول الصوري .

ثم ان مؤلفنا وليم الصوري الثاني (صاحب الكتاب الذي بين يدي القارئ ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة التي كتبها أدريان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصوري الأول والتي يقول فيها الجالس على كرسي بطرس برومة موجهها الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفته ومطارنته : « ... اننا نؤمن ايمانا جازما بأن كنيستكم الأم في صور ستجني منه (أي من وليم الانجليزي) أحسن الثمار ... » .

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه بشأن هذا الأسقف « ... ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رحبنا بأخيينا وليم (الأول) الذي اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة في صور » (٢) .

(١) الكتاب ١٢ ، الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صوز » ،
ثم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر
دافعا الكثيرين على أن يزلوا زلة تاريخية كبرى ، اذ خلطوا بين الاثنين
خلطا يدحضه المتتبع لتاريخ كل منهما ، ولقد زعموا أن وليم الأول
« الانجليزى » هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فقالوا أن الثاني
« انجليزى » الأصل وما هو بانجليزيه .

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة تسقط
عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا التصحيح يحملنا على أن نقول مع
القائلين بنفى هذا الأصل الانجليزى ، كما أنه يؤيدنا فى هذا النفى
ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدي القارىء الآن من تنديده بالانجليز
ممثلين فى شخص البابا أدريان الرابع - وهو انجليزى - حيث
يصفه وليم بالمرتشى ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية
مما يثلم كرامته كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهاجه (٣) ،
وكان هذا الهجوم العنيف من صاحبنا وليم حين أثر هذا البابا
« الانجليزى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمنصب
ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لبیت لحم ، ويرى وليم أن
نجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظيمة راجع الى
عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجليزى) » (٤) .

ولا يعنينا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهمنا
تهجمه على رالف « الانجليزى » ، وهذا ما نتبينه أيضا من ثنايا
كلامه عن هنرى الأول ملك انجلترا ، ووصفه اياه « بمغتصب العرش
المستحوذ عليه بالخدعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بهذا

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ .

(٤) ك ، ف ١٧ .

العرش جيش كل قوى المملكة لدفع أخيه صاحب الحق اشرعى (٥) .

نخلص من هذا ومن كثير غيره مما ورد فى الكتاب الذى بين أيدينا الى تهجم مؤلفه على الانجليز أو على الأقل نقده اللاذع لهم مما يباعد بينه وبين أن يكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا فى هجومه عليهم .



وذهب آخرون للقول بأنه « فرنسى » الأصل ، معتمدين فى ذلك على أنه قلما يرد ذكر فرنسا الا ويكون لسان ثناء عليها وتمجيد لها (٦) ، وسيرى المطالع لهذه الترجمة العربية ذلك المديح فى مواضع متعددة منها . وفى رأينا أن هذا المديح هو الذى حمل دائرة المعارف الأمريكية (٧) لأن تذكر فى نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ، على أنه يبدو أن هذا الأصل الفرنسى لم يجد استجابة من دائرة المعارف البريطانية (٨) فلم تقل به وآثرت السكوت عنه تماما ، ولعلها خافت أن تنزلق فى هوة ليس لها قرار ، ان هى ذكرت بالتحديد ما يمكن أن يكون موطنه الأصل ، ومن قال لا أدري فقد أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافة له ، وهو قول حق .



(٥) ك ٩ ، ف ١٣ ، وانظر :

Private Orton . *The Shorter Cambridge Medieval History*, vol. 1, pp. 591 et Seq.

(٦) وسنرى فى مقدمتنا هذه أن هذا كان موقفه أيضا ازاء ايطاليا .

(٧) *American Ency. Art William of Tyre.*

(٨) *Ency. Brit. Art. William of Tyre.*

على أن ذهابه الى فرنسا كان - كما نعرف - لمتابعة دراسته للقانون ، غير أن هذا لا ينهض دليلا على أنه ذو عرق فرنسي والا صبح أن نقول أنه ايطالى ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هي الأخرى أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه اليها هي الأخرى من أجل دراسة القانون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفة من كبار رجال الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كتبه وليم عن ايطاليا يبين معرفته العميقة بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارئ ، ثم أنه كان لا يدع فرصة تمر الا ويشير اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث مباشر عنها ، ونستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين على أحد موانئ صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للإشارة الى ايطاليا وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه كان كثير الثناء على الجاليات الايطالية ومساعدى المدن التجارية الايطالية الحميدة فى خدمة الصالح المسيحى ، فيذكر أن طائفة منهم وهم الأمالفيون كانوا قد قدموا التماسا للخليفة الفاطمى يسألونه السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس - وقت أن كانت القدس تابعة لمصر - ليقبموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالفيون « أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة لما سألوه وكان عطفه عليهم جميلا تمثل فى ضخامة ما منحهم اياه ، فشيدوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا وليم يثنى

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ .

على الاماليتين ثناء مستطابا ، واتسحب هذا الثناء بالتالى عنده على
ايطاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبة عائلته الى ايطاليا .



اذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونفيينا عنه أن يكون
ألمانيا ، وأنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الراى القائل بأنه كان
ايطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول - على الترجيع - أنه كان من مواطنى
مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك
أن أباه كان واحدا من اثنين اما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونشأ
بها فكانت القدس وطننا له ولولده ولیم ، واما أنه كان من آلاف
الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وساهم
فى حروب الفتح ثم شاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قتلوا فى
معاركها فصار مواطننا عاديا ثم تزوج فأنجب - فيمن أنجب - مؤرخنا
ولیم فى سنة ١١٣٠ ، وان قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد ولیم الصورى فى هذه السنة أو تلك - وان
كنا نرجع سنة ١١٣٠ - فقد تفتحت عيناه على القدس التى كانت
أول أرض مس جلده ترابها ، حتى انه لينعتها فى كثير من المواضع
« بوطنى » وقل أن يشير اليها الا فى اجلال وحب .

وحبب أوطان الرجال اليهم . ما رب قضاها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ فى تمهيده لتاريخه فى هذا الجزء الأول لنرى
كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع في مهمة يابى الشرف التنحى عنها » (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه .



إذا لم تكن قد وصلنا الى رأى قاطع في أييه : هل كان وافدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حيسال الابن انه كان من مواليد القدس ، لأن سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا في تاريخ التجريدات الصليبية ، اذ كان قد انسلخ من عمر الزمان منذ مقدم أولها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافدة ، كما أن المسيحي الأوربي الذي عاش في فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض في سيرته في بادئ الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، فاما من أقاموا واتخذوها سكنا لهم بدلا من ديارهم في أوربا فقد عدّهم دخلاء متطفلين ، ليس لهم حق في الإقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم - اذا فرغوا من حجهم - العودة من حيث جاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا انتهوا من أداء شعائهم ومناسكهم وجب عليهم العودة الى ديارهم .

ان ذلك الحب الذي في نفس مؤرخنا وليم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن القدس كانت مهبط رأسه في أحد عامي ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقدس جعلته يعرف كل نواحيها الطوبوغرافية والتاريخية ، فهو يذكر وقوعها في منطقة جدباء شحيحة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما تنضج به من

(١٢) نظر التمهيد الذي قدمه وليم بين يدي كتابه هذا .

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ٤ ، ٧ .

ذكريات قديمة قد ترجع الى زمن النبي نوح (١٤) ، كما أنه قل أن يشير الى القدس - كما قلنا - الا بكلمة « وطنى » ، ثم انه يخصص مواضع كثيرة من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو تعارضه (١٥) .

هذا هو مجمل القول فى ولیم من حيث نسبته الى القدس .

★★★

أظهر ولیم منذ نعومة أظفاره ميلا كبيرا للمدرس والتحصيل ، ولابد أنه التحق ببعض مدارس عصره التى كانت ملحقة بالأديرة والكنائس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان تلاميذها بطبيعة الحال وفى الغالب من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع اللاتينى الغربى فى المشرق ، ثم تسنى له أن يتم تعليمه فى فرنسا .

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحى مما جذب اليه أنظار الكثيرين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة باسبانيا وسنسميه هنا بطرس الاسبانى أو البرشلونى وكان قيما على الآثار المسيحية والقبر بكنيسة القيامة ، ثم انتهى المطاف أخيرا به ليكون رئيس أساقفة صور (١٦) وكان بطرس هذا حفيا بوليم راعيا له ، محيطا بآياه منذ وقت مبكر برعايته ، مسبغا عليه عطفه ، كما أنه قربه اليه ادراكا منه يمكن أن يكون لهذا الشاب من غد مرموق إن وجد من

(١٤) ك ٨ ، ف ١ .

(١٥) ك ٩ ، ف ، ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ، ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ .

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ .

ياخذ بيده ، وتبدلنا هذه العناية من جانب بطرس الاسباني على أنه رأى فيه نبوغا - فى حقل الدراسات الدينية - لم يلحظه بمثل هذه الصور عند غيره ، لذلك اعتزم أن يكون هو راعيه والآخذ بيده فى طريق التقدم ، فكان له ما اعتزم ، وحفظ ولیم له هذه اليد البيضاء عليه وأشاد بتلك المكرمة التى اختصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته اليه بالاجلال فى صفحات عدة من تاريخه ، ثم ان ولم كان يرى نسبته اليه فى ميدان العمل الكنسى شرفا كبيرا له ، وزاد من قدره - بعد حين - أنه كان أحد من تولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كثيرا ما يشير اليه بقوله « سلفنا » ويرى فى ذلك مفخرة له .

وهكذا وجد ولیم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على زيادة حظه من التعلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عوناً له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة فى المملكة .



كذلك وجد ولیم - منذ فجر شبابه - حديبا من رجل آخر من رجال الدين اتفقت نظرتة اليه مع نظرة بطرس الاسباني ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضا الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضلته عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا لينهلوا مزيدا من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عيد فصح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب : ١٦ الفصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراسة القانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود نشاطه في
أسقفية صور « رئيس شمامسة لها » (١٨) .



ولقد اتسع مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن تعد من
مصادر الثقافة ، زادت من اطلاعه الشخصي ، ذلك أنه تسنى له
الذهاب الى بيزنطة ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سقيرا له لدى
الامبراطور « مانويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه في
مشروعه الضخم لمهاجمة مصر ، وعهد اليه بأن يغريه بتوقيع اتفاقية
بين بيزنطة وبين بيت المقدس ، وانطلق وليم الى وجهته (١٩) ليجد
امبراطورها مشغولا في الصرب من نواحي البلقان ، ولكنه أنجز
ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد في خريف ١١٦٨ بمعاهدة
بين المملكة اللاتينية والامبراطورية الأغريقية حسب تسمية أهل ذلك
الوقت لها (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل
موقعا كريما نجلى فيما أبداه له من ود وما أغدقه عليه من
الهدايا .

لم يكن لرجل مثل وليم أن يمضي وقته في بيزنطة دون عمل
لا سيما أن هذه الإقامة طالت حتى بلغت - كما يقال - ستة أشهر
فقضى جزءا منها في الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وإن كانوا
على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال اتقاناً للغة اليونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحدا ممن يمكن أن يقال

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثاني

(١٩) وليام الكتاب الثاني عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحلية والدولية ،
كما يمكن أن يقال ان ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافة من أنه استطاع
أن يبري ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الأساقفة
من تهم ظالمة ، كما استطاع بقوة حجته وذلاقة لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند خليفة بطرس منصورا مبرءا من كل مذمة
ونقيصة .



وأدرك من حول وليم كفاءته التي لم تغب عن عموري فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يتناول فترة حكمه ، فقبل ذلك
عن طيب خاطر ، وحين شرع في تدوين هذا التاريخ الذي سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها شيئا الا التافه
اليسير والنادر الذي تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال غيبته هو ذاته
في بيزنطة ثم انشغال الملك في حملته على مصر التي بادر الى القيام
بها غير منتظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخبار هذه الفترة
متلقفا اياها من مصادرها الأولى وفي مقدمتها عموري كشاهد العيان
لها وهو الذي شارك في رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم ييخل
عليه مولاة بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخي الفترة للمسلمين الدواعي والضغوط التي كان يتعرض
لها عموري حتى تعجل الزحف على مصر ، فتناولها ابن الأثير في كتابيه : الكامل
وأتابكة الموصل ، وأبو شامة في الروضتين .

بينهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن مسألة خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية. ألا وهى ما يضطرب فى صدره من خالجة التشكك فى أمر أجمعث عليه جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الايمان ، ألا وهو البعث والنشور بعد الموت .

وكانت ثقة الملك فى مؤرخنا عظيمة حتى أنه عهد اليه - حين كلفه بوضع كتاب عن حكمه - أن يقوم على تربية ولده وولى عهده بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فأقبل وليم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلقيا وجثمانيا أربع سنوات متتاليات لم يقصر فيها على بذل ما ينبغى عليه بذله ليصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل زاد فكان من بين ما درسه له الآداب الكلاسيكية القديمة ، وعلمه هو وغلمان فى مثل عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغى أن يتعلمه هؤلاء من الفروسية وركوب الخيل وألعاب القوى التى تقوى فيهم الصبر على احتمال الآلام ، وانه ليقول عن هذه الفترة : « لقد كرست نفسى طول مدة اشرافى على تلميذى الملكى على رعايته وبذلت من أجله غاية جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأديبا » ثم يصف حادثا نجم للصبي ذات يوم وهو يلعب مع أترابه تكشف له عن اصابته بمرض خطير استلزم من أبيه علاجه بشتى الأدوية والمراهم فما أجدت نفعا ، ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن المطيبين لكنهم لم يسعفوه فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى بولدوين الصغير ، « فقد عرفنا بعدئذ أنه يشكو من ذلك الداء الخطير الذى لا رجاء منه » (٢٢) على حد قوله ويعنى بذلك الجذام .

هكذا تولى وليم تربية الصبي بولدوين .

على أن الذى يهمنى من فترة قيامه بتثقيف الغلام أنها أتاحت له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالاً بالعديد من رجال البلاط ونبلاء المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما يتطلع اليه من المعلومات التى تساعده فى تأليفه التى سنعرض لها حالا وكان الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسيم التى صدرت إبان تلك الحقبة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها وكان عند هؤلاء الرجال الذين أتيح له زيادة الاتصال بهم ما يساعده على أداء مهمته على أكمل وجه .



وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله « رالف » رئيس أساقفة بيت لحم الذى كانت وفاته فى إبريل ١١٧٤ (٢٣) ، واذ ذاك وقع الاختيار على مؤرخنا ليحل مكانه ، وأنه ليقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة المراسلات الملكية ، فقد استجاب عمورى لمشورة بارونات وعينى فى هذا المكان وخلع على وظيفة المستشار » (٢٤) .



(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٢٤) الكتاب ٢١ ، ف ٥٠ .

مؤلفاته

لقد خلدت وليم مؤلفاته التي فقد منها ما فقد وبقي منها ما بقي ، ولولا كتابه الحالي لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا نذكرهم الا حين نقرأ عنهم في ثنايا الكتب ، أما هو فقد بقي اسمه على السنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما في تاريخ الحروب الصليبية بفضل هذا الكتاب الذي نترجمه الآن الى العربية ، والذي رأى النور لأول مرة في صورته الأصلية في القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة قرون من وفاة مؤلفه .

ولقد توفرت أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصل الى يده من كتب نعدّها اليوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما توفر لديه من الوثائق مما هيا له الفرصة لأن يكون بارزا في الكتابة التاريخية وحجة موثوقا به فيما ألف ، حتى لقد عدّه العالم رنسمان « واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب اتقانه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفي مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية المما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما يذكر هو وكما سنشير اليه في موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكدّه ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

Runciman : A History Of The Crusades, vol., 2, p. 437. (٢٥)

كثير النظر في الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية و على كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشيرون » الذي يسميه أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له قلم سيال ولغة مطواعة وقدرة على التعبير في غير عسر على ما يريد أن يوصله الى قارئه .

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمة معينة ، ينصل اثنان منها عن قرب بالحروب الصليبية ، هذا الى جانب كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسي المنعقد في روما في نهاية سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفة والمطارنة ، الى جانب ممثل لبطرك بيت المقدس الذي حال مرضه اذ ذاك بينه وبين حضوره هذا المجمع الذي يعتبر أكبر المجمع التي شهدتها المسيحية الغربية ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات خطيرة ، وقدم تقريرا عن وضع الكنيسة والدولة في مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وقال البعض من مؤرخي هذا المجمع - وهم صادقون فيما قالوا - ان الجميع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقيها ، وحجة في الملة ، وملما بما ينبغي أن يلم به من يهتم بدراسة أحوال اللاتين في الشرق دينا ووضعها ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن الجدل ويفهم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام .

وعاد وليم من هذا المؤتمر الديني وقد سبقته أخباره ، فسأله رفاقه كما سأله رجال من البلاط البايوي والكنائس اللاتينية أن يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع في ذلك سفرا قيل انه أودع نسخة منه في أرشيفات صور لكن الباحثين في تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف ، كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى .

وعلى الرغم من عدم وجود نسخة من هذا التقرير فى الأيدى،
الا أن الأمر الذى لا يرقى اليه الشك هو أن « بعض » جلسات
المؤتمر تضمنت بعض ما فى تقرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا
وأن وليم كان أحد مقررى المؤتمر (٢٦) :

إذا كان رفاق وليم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى
صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فإن الفضل فيما ألفه من
كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان
حريصا على أن يبقى اسمه حيا على السنة الملائمة من أهل عصره والأجيال
التي تليهم ، لذلك فإنه سأل صاحبنا وليم أن يضع كتابا عنه هو
ذاته : حاكما لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وترك تنظيم هذا الكتاب
لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته والمعيته - سوف يطلع على الناس
بكتاب يرضيه .

واستجاب وليم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من
حفظ لتاريخ مملكة بيت المقدس فى فترة كان هو نفسه شاهدها .
وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب ترفع راية المسيحية إذ كان
الأمل معقودا على أن ينتصر الملك على القوة الاسلامية ممثلة فى مصر
فيخلص له بسقوطها وجه الشرق الاسلامى بأجمعه .

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه
« انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم
بدا للملك أن يمهد لعهد يعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت

(٢٦) أدین بالفضل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمة الترجمة الانجليزية لهذا
الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها وليم ما اضافته المترجمان من حواش
وتعليقات لو ترجمت لكاف وحدهما كتابا كبيرا فى حد ذاته .

المقدس منذ « جودفروي دي بويون » الذى رأى غاية مفاجرة أن يقال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يشباركه فى هذا اللقب غيره ، اذ نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يتم لهم تطبيق النظام الاقطاعى على الصورة المعروف بها فى أوربا الغربية .

صارح عمورى مؤرخه برأيه فيما ستكون عليه صورة الكتاب الذى يريد .

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتقادا جازما - ويشاركه ولیم الى حد ما - بأن مصر لابد واقعة فى يده - بعد العهد أو قريب - وكان يرى أن فتحه اياها واستيلاءه عليها سيكونان نقطة انتقال كبرى فى تاريخ القوى الصليبية وأنه يعادل فتح اللاتين لبيت المقدس ان لم يزد عليه ، وبذلك تكتمل حلقات الحصار حول العالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استيلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكة والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريرة الأمير الصليبي : « رينو دى شاتيون » الذى تعرفه المراجع الاسلامية باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وتأديبه على يد صلاح الدين بعد قليل .



ونعرف أن شروع ولیم فى وضع تاريخ الملك عمورى كان سنة ١١٦٧ ، وتمثلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما تيسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحداث السياسية والحربية بل جاوزها الى وصف الحكومة فى مصر والبلاط الفاطمى وتعرض لأولى الأمر من مخططى السياسة المصرية اذ ذاك ، ويلاحظ أيضا أن نشاط الاسكندرية الحجارى استلقت انتباهه .

على أنه اذا كان هذا الكتاب أصبح الآن فى عداد الكتب
المفقودة فلا بد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقسام
الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدى
قارئى هذه الصفحات .

★★★

ثم اقترح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها
على أيدي اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولا عند المؤرخ ، وصدق
له قلبه إذ ليس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يخلد
اسمه هو ويشرف قدره ويكون تاريخا لأحب بلد الى فؤاده .

وهكذا نلاحظ ما لعمورى من فضل على طلاب التاريخ
والناظرين فيه حتى الآن إذ فكر فى أن يكون هناك كتاب عن
المملكة ، وأن يقوم بوضعه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يحببه
اليه سمته وخلقا ودينا وكفاءة وقبرة تساعد على انجاز هذا العمل
الذى أدرك عمورى أنه يجمع بين ثلاثة أمور كبيرة ، أولها روعة
الموضوع إذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها بيان عظمة عمورى ذاته ،
وثالثها دقة جامعته وليم .

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما شرع فيه
وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن
ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلا نقطة الابتداء هى قيام
بطرس الناسك بالحج الى الأحرام المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه
الى أوربا حاثا أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيي
الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام . . .

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى
التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهد ثم زاد فطلب
اليه أن يكتب له مجلدا عن تاريخ ملوك المشرق ، ولكى ينسج تحفته

المهمة فقد زوده بكتاب في هذا الموضوع لأسخف مبرى ، يعرف العربية هو أوتوشيوس سعيد بن بطريق استعرض فيه العالم الاسلامى منذ ظهور النبى عليه الصلاة والسلام حتى السنة الخامسة من خلافة الراضى العباسى ، وهى سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب وليم لطلب مولاه ووضع كتابه الذى سماه كما قال - او قال من وقفوا عليه اذ ذاك - « بأعمال أمراء المشرق » ، "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن نتوقع أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمة لكتاب ابن بطريق ، وان لم نستطع الجزء بما تضمنه كتاب وليم هذا لعدم وصول نسخة منه الينا . . . لكن . . . أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟ . . . ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره فى عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهرس دور الكتب العامة من أية اشارة اليه أو الى صفحات يرجح أنها منه (٢٧) ، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الامريكية لتاريخ وليم تشير الى أن « ماتيو بارى » ذكر فى « مختصره التاريخى » وجود كتابى وليم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق فى مكتبة سانت البانز التى حاق بها ما حاق بمعظم المكتبات الديرية فى القرن السادس عشر ، وتمضى هذه الاشارة فتبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده - التى نترجمها الآن - هى التى قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطانى ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المشرق فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى يومنا هذا .



(٢٧) ولم يشر وليم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذى هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بنظم الجوهري ، وكان فى مكتبة الملك وهو الكتاب الذى نشره المستشرق الانجليزى « ادوارد بوكوك » فى اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بعشرين ونصف قرن من الزمان فى مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ، الاولى منهما سنة ١٩٠٥ والثانية سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدأ للملك في سنة ١١٧٠ - أي قبل وفاته بأربع سنوات - أن يمهّد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينية منذ بدء الدعوة الصليبية حتى مستهل حكمه سنة ١١٦٢ .

وان استقراء ما جرى - وما بين أيدينا - ليفصح في جلاء عن أن هذا الاقتراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصوري لأنه رأى أنه حين يفرغ من هذا الكتاب فإنه يكون قد أرخ - كرجل دين أولا - لما يعتبره جهادا دينيا مسيحيا من وجهة نظره ، فيرضى بذلك ميوله ودراساته التي بوأته مكانة كبيرة في عالم الكنيسة في القرن الثاني عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاتينية قبل عموري (٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشاط الصليبي بعد استقرار اللاتين في الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسيحية الأخرى من غير مذهبهم كالآرمن والسريان واليعاقبة والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين المسلمين من صلات سلمية أحيانا وعدوانية أحيانا أخرى .

لذلك قبل وليم ما اقترحه عليه عموري مما أسفر عن تأليفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذي لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهي بداية حكم عموري) بل جاوزها

(٢٨) ونعني بهم جودفري دي بويون وان لم يلقب بالملك ، ثم بولدوين الأول والثاني ، ثم فولك دانجو فيولدوين الثالث .

فشمل كل عهده ، ثم طالبت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أى بعد موت الملك بعشر سنوات تناول فيها حكم ولده بولسوين الرابع

والواقع أنه اعتمد في القسم الأول الذى يمتد حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لاتينية عاصر أصحابها أحداث الفترة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول انهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، فى مقدمتهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذى كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذى رافق حملة بوهيمند بن روبرت جيسكارد وكان بوهيمند هذا مؤسس أول امارة صليبية هى انطاكية منتزعا اياها من أيدي المسلمين .

وقد تبعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذى جمعه الباحثون وسموه باسم "Gesta Francorum Hierosolymitanorum" وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) .

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذى ترجمه الدكتور حسنين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) .

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولشر دى شارترز ويعرف كتابه باسم
'Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana
(1095-1127) ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ شاهد عيان لفترة

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراستنا لمذكراته فى مقدمتنا للترجمة العربية المشار اليها وقد نشرتها دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نشرته دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ .

امتدت ما يقرب من ثلاث و ثلاثين سنة تقريبا منذ أن خطب البابا
ايربان الثانى خطبته التاريخية المشهورة فى كلير مونت بجنوب
فرنسا فأشعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا - من سرد هؤلاء المؤلفين - ان المادة التى تضمنتها
مذكراتهم أو أوراقهم وقفت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مادة وفيرة
راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها فى يقينه أبقاه ، وما أنكره
تخلى عنه ولم يأخذ به .



ولعل السمة البارزة فى كتابات وليم عن هذه الفترة بالذات
هى أخذه بوجهة النظر الغربية فى سرده وتعليقه على الأحداث ،
وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره فى الأصول التى خلفها كتاب
مسيحيون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المبكرة على
اختلاف جنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا فى
نقده المر للامبراطورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسيوس
كومنين (٣٥) ، وهو نقد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نعتها
« بالحيانة » حتى فضل عليها المسلمين فى بعض الأحيان وقد ترسبت
هذه التهمة الفظيعة فى نفوس الأوربيين جبلا بعد جيل لمدة قرن
من الزمان حتى انفجرت فى سنة ١٢٠٢ م فيما عرف بالحملة
الصليبية الرابعة التى توجهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

(٣٥) نشير هنا الى اعتزامنا باذن الله نشر ترجمتنا العربية لكتاب « الكسياد »
للمؤرخة انا كومنين Anna Comnena بعد فرائضنا من نشر كتاب وليم الصورى
هذا .

لتعود - رغم أنف الصليبيين الغربيين - للوجود بعد ما ينيف على نصف قرن. (٣٦) .

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة المفهوم الصليبي وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت تبديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة .

كانت هذه فى الواقع هى صفة المرحلة الأولى من تاريخ وليم الكبير أما المرحلة الثانية فتبدأ من تكوين مملكة بيت المقدس واستكمال البنية اللاتينية بتأسيس الرها وأنطاكية وطرابلس كإمارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التى كان يجب أن تركز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أهملت تماما أهل البلاد الأصليين حتى من كان منهم مسيحيا ، اذ عدّهم المحتلون طبقة ثانية فى المجتمع الجديد وربما وضعوهم فى مرتبة أدنى من هذه أيضا فلم ينظروا اليهم الا كعملاء أو فعلة أو صنّاع يبذلون الجهد لتحقيق مأرب السادة الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة الثانية بأن يكون لهم رأى فى توجيه السياسة بل صيروها أوروبية إقطاعية ، وظنوا أنهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ، ناسين أن هناك أجيالا - من بين اللاتين - ستظهر على مر السنين وتخدم فى نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يملى عليها الزمن والتطور أن تبتعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه الرابطة بين هذه الأجيال وبين الأهالى الأصليين .

على أن وليم يشير فى أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

(٣٦) انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ترجمة حسن حبشى ونشر مكتبة الشرق الأوسط ، وانظر أيضا مذكرات فلهااردوان ترجمة حسن حبشى ، وقد نشرته جامعة الملك عبد العزيز بجدة سنة ١٤٠٥ هـ .

تسميتها كما هو شأنه في مراجعته بغير هذه اللغة لا سيما اللاتينية ، وما نحسب هذه الوثائق الا أنها كانت موجودة في أرشيفات القصر الملكي بالقدس وكذلك ربما استعان بما في مكتبة الملك عموري التي لا بد وأنها كانت حافلة - الى حد ما - بكتب عربية وقد أشار أحد المؤرخين (٣٧) الى أن سفينة كانت تحمل فيما تحمل كتباً لأسامة ابن منقذ جنحت قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها الى مكتبة القصر .



أما الفترة الثالثة من كتابه فهي التي تميزت بظهور المنازعات بين الصليبيين أنفسهم وتفكيرهم تفكيراً توسعياً لم يقف عند حدود بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من قوى اسلامية صغيرة ، وبلغت هذه الفكرة ذروتها عند الملك عموري في تخطيطه لتوسيع رقعة مملكة بيت المقدس الى خارج حدودها الجنوبية حيث مصر الفاطمية فالأيوبيية بل ان بعض هؤلاء الأمراء اللاتين كانوا من المخاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا جونيا بعيدا فتطلع الى مكة والمدينة .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاستيلاء عليها سنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية في الشرق الاسلامي وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز غايته بالاستيلاء على بعض الامارات في الشام ، وأن الخطوة الثانية لهذا الدعم الصليبي هي فتح مصر ، وساروا في هذا الطريق خطوة عملية ملحوظة في هجوم عموري أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطال

(٣٧) راجع Hitti : A Syrian Gentleman, p. 81 ، حيث أشارت اليه

مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولیم .

وليم في عرضه وان عاد منه الغزاة مقلبي الأظفار ، منهوكي القوى ،
وقدر لوليم أن يشاهد أوليات هذا الانهاك متمثلا في ظهور
صلاح الدين الأيوبي بعد أن استقر في مصر وحمل راية الجهاد التي
ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنك صاحب حلب والموصل
وتميزت هذه الأحداث بعكس ما كان يرجوه دعاة الغزو إذ أدت الى
تفكك الهيكل الصليبي ، ولقد واكب وليم في أخريات أيامه هذه
الفترة بل وكان في ركب بولدوين الرابع في محاربته لصلاح ببلاد
الشام ولم تفته الإشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من
الكتب الثلاثة التي ختم بها مؤلفه حتى زحزحت ما عداها ، مما يخيّل
الى قارئه أنه يكتب تاريخ مصر - من وجهة نظره - أكثر مما يكتب
تاريخ القدس .



ان متابعة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذي نترجمه الآن الى
العربية هي في الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذي لو كان قد
وقف فيه عند سنة ١١٧٤ التي مات فيها عموري وهو في الثامنة
والثلاثين من عمره لما لامه أحد ، إذ يكون بما كتبه حتى ذلك العام
قد أوفى بعهده للملك الراحل في إدراج عهده على هذا الكتاب .
التاريخي وألحقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك
الصغير أولها أنه هو ابن مولاة الراحل ، وثانيها الوفاء لذكرى أبيه ،
وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلّم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا
كان وليم يعيش في جو يعبق بكل ما يذكره بعموري ، وهل هناك

(٣٨) انظر حسن حبشي : نور الدين والصليبيون او حركة الافالة الاسلامية
في القرن السادس الهجري .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبي قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو
١١٧٤ (٣٩) .

وعاش وليم بعد موت عموري ليكتب عن بولدوين الرابع ثلاثة
أبواب أو « كتب » كما يسميها (٤٠) ، ولا يحسب القارىء أنه أطال
فى الكتابة عن عهد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن إذ أوجز
حين كان الاسهاب متوقعا منه ، وكان ظن الذين لا يدرون شيئا عن
بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين
لقربه منه ، وأنها تتيح له فرصة أكبر مما قد تتاح لغيره فى الوقوف
على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد فى المملكة كان مهينا
الفرصة لقوم حاولوا جهدهم إبعاده عن الملك أو فرض رقابة عليه
حتى لا يعمد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد تطلعات الطامعين
فى الوصاية على الملك .

ورأى وليم سماء المملكة تتلبد بالغيوم والعواصف السياسية ،
كما هاله استفحال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن
يسلموا بلادهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكة توشك أن
تقع بين شقى الرحى من الشمال والجنوب ، ورأى من الخير أن
يشغل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام
بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها
هوايته القديمة ، ونعنى بها مطالعة كتب التراث القديم الغربى .
وقد أحس وليم بالجزن الشديد يسيطر عليه وزاد ألمه أن
يضيق ألمه فى أن يصبح بطركا لبيت المقدس فى أعقاب وفاة بطركها

١. (٣٩) ، الكتاب ٢١ ، الفصل الثانى .

(٤٠) هى الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

أمالريك فقد تمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن يسلبها منه بفضل الملكة الأم « أجنس » وحزبها . ومما يظهر أنه الشديد لضياع أمله هذا أنه سكت سكوتا شبه مطبق عن إبداء رأيه في هذا الانتخاب لما يثيرة في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله في هذا الصدد « . . . مات أمالريك بطرك بيت المقدس بعد عشرين سنة من توليه بطركية القدس ، واذ ذاك أختير مكانه هرقل رئيس أساقفة قيسرية » (٤١) .



منهجه :

سار وليم على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه بـ « الكتب » التي هي في مصطلحنا اليوم « الفصول » أو « الأبواب » ، كما قسم كل كتاب الى ما سماه « بالفصول » ، ويعنى بها « الفقرات » التي تضمنها هذا « الكتاب » .

وقسم وليم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا » تكاد تكون متساوية في الطول الا الأخير منها ، كما يبدو أنه خص كل ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروي » فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطبيعى أن يكون ما خصه به قاصرا على كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسُمى كل واحد منهم بالملك ، الا أنفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القبر المقدس .

كذلك خص بولدين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التي يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا يتجاوز الفصل

الكتاب العاشر والعشرون . الفصل الرابع .

الكتاب العاشر والعشرون . الفصل الرابع .

منها - حسب تسميته - صفحة واحدة فان زاد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشتمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشتمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط .



وقد مهد لذلك كله بثمانية كتب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أشار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نشاط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى غير النظامية ثم ثنى بتجمعات الصليبيين فى القسطنطينية بالاستيلاء على نيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول اجتياح الصليبيين لشمال الشام وبدء حصار أنطاكية التى استغرق حصارها عنده والاستيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانتصارهم الذى مهد للاشفاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرق بأجمعه الفصل السابع ، أما الثامن فهو نهاية رحلة الحج والاستيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كتبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول وتوسع المملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى شمال الشام وهذه استغرقت منه أربعة كتب هى التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهنا ينتهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رتبته وليم ليبدأ الجزء الثانى بالاستيلاء على صور وامتداد النفوذ الملكى على الامارات اللاتينية أما الكتاب التالى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويلىسه الخامس عشر عن محاللات الامبراطور البيزنطى حنبا لىسط نفوذه على الامارات الصليبية ثم يجرى عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « مليزند » وخبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشرة الاستيلاء على عسقلان وفشل الحملة المذكورة

حالا ثم التطلع الى مصر وكل ذلك تتضمنه الكتب : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان التاسع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبي الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عقد تحالف صليبي بيزنطى لفتحها وذلك فى عهد الملك عمورى ، ثم يبدأ الكتاب الحادى والعشرون ببولدوين الرابع الأبرص وتنازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله فى الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى ولیم يتساءل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ ويدل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كتب فى أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين فى محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه ولیم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .



وبعد فهذا تعريف عاجل بوليم الصنورى وكتابه الذى كان الحافز لى على ترجمته هو قيامى بتدريس الحروب الصليبية فى كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتى من انجلترا ، ثم شامت الظروف أن أقوم بالمحاضرة فى نفس المادة فى قسمى البكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب - وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجريدات الحربية على العالم الاسلامى - من متطلبات محاضراتى هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلى وصديقى الدكتور حمد محمد العريشان أن تكون « مذكرات فلهااردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هى باكورة ما تنشره لجنة البحث العلمى بها ، وحظى الكتاب بموافقة المجلس العلمى للجامعة هناك .

وان كتاب وليم الصوري هذا لهو واحد من مجموعة الكتب والوثائق المتعلقة بهلكة الخروب والمكتوبة بأقلام معاصرين لها من غير العرب والمسلمين ، وحمدنا الله أن مكنتني من نشر خمسة مصادر منها حتى الآن ، وفي الطريق - ان شاء الله - اثنان ، أحدهما هو « الاستيلاء على دمياط » لبادر بورن ، والآخر هو « الكسبياد » أو تاريخ الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بقلم ابنته « أنا كومنين » .

ولقد اعتمدت في ترجمتي العربية هذه على النسخة الانجليزية التي اضطلع بترجمتها والتعليق عليها المؤرخان السيدة اميلي اتواتر بابكوك ، و أ . كراي سنة ١٩٤٣ وهي في مجلدين ضخمين ، وقد تفضلت مكتبة جامعة القاهرة فأذنت لي بتصويرها .

ولقد عانيت من جانبي بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر الامكان ، مع مراعاة الجانب العربي من حيث اللغة والأسلوب ، غير أنني أبحث لنفسي أن أسعمل لفظ « الصليبيين » في مواضع خاصة حين رأيت سياق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يختلط الأمر على القارئ ، فلا يعرف أى الجماعات المسيحية يقصدها المؤلف .

أما ما أضيفته إلى الترجمة العربية - وهو قليل - فقد وضعته بين حاصرتين على هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذفت من الترجمة العربية بضعة أسطر أملت بها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث ومركزه الدينى ، وهى سطور قد تكون لجمتها التعقيب وسداها الجهل بالإسلام وعدم إدراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى سياق الموضوع أو اخلال به .

وستصدر هذه الترجمة بإذن الله في أربعة أجزاء بدلاً من
اثنين كما في الانجليزية وأرجو من الله التوفيق والهداية .

القاهرة في :

د. حسن حبشي

التاسع من المحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لزاما على أن أتقدم بالشكر الخالص للصادق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان إذ تفضل فجعل هذه الترجمة من سلسلة مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على إصدارها .

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواتي بدير الآباء الدومنيكان بالعباسية فقد أعانني بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من ارشادات العهدين القديم والجديد وأذن لي في الرجوع الى مكتبة الدير .

والمنة في عنفي لمكتبة جامعة القاهرة إذ أذنت لي بتصوير الترجمة الانجليزية كاملة وبذلك يسرت لي العكوف على نقله الى العربية أنى كنت ، وشكرا للقوامين على مكتبات جامعات القاهرة واسكندرية وعين شمس والملك عبد العزيز بجدة ، ولزملائي وتلاميذى وأصدقائى فى مصر والخارج ، ولتلميذى القديم تركى هزاع البركاتى من السعودية فقد طالع معى مخطوطة هذه الترجمة وتفضل بنسخها ثم كتابتها على الآلة الكاتبة .

ج.ج.

العروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤)

التمهيد

من وليم - الذى لولا رحمة الرب ما استحق ان
يكون خادما للكنيسة المقدسة فى صور - الى الاخوة
المسيحيين الموقرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب
لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد .

لا يشك انسان عاقل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة
بالصعاب والمخاطر ، واذا نحينا جانبا ذكر الجهد الذى لا ينتهى
والمعاناة التى لا تنقضى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من التحلى
باليقظة الدائمة ، فان هوة سحيقة تفتح فاهها أمام كاتب التاريخ
الذى يلقي المشقة العظيمة فى محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ،
ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاربيديس » ،
فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف تدمره
الدمار الشامل وهى محاطة بكلابها ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤجج
غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم
الصمت ازاء مسيرة الأحداث أملا منه فى أن يقلل ما أمكن من

الامتعاض منه ، حنى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن تعمد مجاوزة الصدق وإخفاء الحقائق عن قصد يعتبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب الملحق على عاتق المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فشل الفرد فى أداء الواجب المفروض عليه إنما هو خطأ ، إذا كان مفهوم الواجب فى الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يتفق وعادات بلده ونظمه » .

ومن ناحية أخرى فإن الجرى وراء سلسلة من الأحداث دون إدخال تغيير عليها أو تحريفها عن محجة الصدق إنما هو مسلك يثير الغضب على الدوام ، إذ يقول المثل القديم « إن التغاضى عن الحق يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فيورث الكراهية » ويترتب على ذلك أمران :

أما أن يتراخى المؤرخون فى أداء الواجب الذى تقتضيه مهمتهم فيبالغون فى اظهار التوقير الذى يجاوز كل حد ، وأما أنهم فى بحثهم الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التى تنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فإن السائد هو أن من سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبح مصدر تعب لما يفرضانه من مستلزمات لا مناص منها .

لقد قال كاتبنا شيشيرون « لئن كان الحق مضنيا لما ينبجم عنه فى الواقع من كراهية مطبقة للصدق فإن الاستسلام أشد رزية » ، وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع فى التهور المؤدى للخراب ، وهذا احساس ينعكس على المرء الذى يجور على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحيا .

إن الكتاب الذين تدفعهم الرغبة فى المداهنة الى أن يضمّنوا عن قصد فى ثنايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق إنما يسلكون مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يدرجوا فى عداد المؤرخين ، وإذا كان

إخفاء الحقائق الثابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شنيعا يناقض مهمة الكاتب تمام المناقضة ، فالأشد شناعة منه هو أن يخلط الحق بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة التي تعتقد فينا قول الحق ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة .

وزيادة على هذه المخاطر فإن كاتب التاريخ كثيرا ما يقابل مثل هذه الصعوبة - بل وما هو أشد منها - مما يحتم عليه أن يبذل قصارى جهده لتجنبها بقدر الامكان ، وأعنى بذلك أن كرامة الأحداث التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ، لذلك ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب في عرضه للأحداث على نفس المستوى العالى للأخبار التى يرويها ، ولا ينبغي أن تكون لغة الكاتب وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن يتوفر للموضوع ، ومن ثم فإن أكبر ما يخشاه المرء هو أن يؤدى العرض السقيم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها تافهة عديمة القيمة بسبب الضعف الذى يعتور سردها ، وقد يسا لاحتظ الخطيب المصقم (شيشرون) فى القسم الأول من كتابه « الحوار التوسكانى » أن تدوين المرء لأفكاره - بدون أن تكون عنده القدرة على حسن ترتيبها أو إبرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شيقة تجذب القارئ اليها إنما هو عمل رجل يسىء الى الأدب بجهالة ويبدد وقته هباء .



ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة وشبهات جمة .، ذلك لأن سرد الأحداث تطلب منا أن ندرج فى هذه الدراسة التى نقوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالاعمال اذا كانت هذه الحقائق حميدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن تجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك - حين متابعتهم هذا الكتاب - صعوبة في قبول ما احتواه بين دفتيه ، أو قد تغضب هذه الأجيال من المؤلف غضبا لا يستحقه . وحينذاك سوف يعتبرونه أحد رجلين : إما أنه كذاب أشر ، أو حاشد كفور .

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كي نتجنب التهمتين تجنب المرء للطاعون .

أما ما سوى ذلك فمما لا شك فيه أنه كان اندفاعا منا أن نحاول القيام بعمل هو فرق طاقتنا . كانت فيه لغتنا لا ترقى بحال من الأحوال الى روعة الموضوع وجلالة قدره ، ومع ذلك فقد تسنى لنا أن ننجز شيئا ما ، شأننا في ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم ولم يقفوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم في العادة برسم الخطوط الأولى لصورة ما فيضعون الألوان غير المناسبة ، ثم تجيء بعد ذلك يد الفنان الصنّاع العارف بالألوان فيضيف لمسات جمالية أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن - مع شدة تمسكنا بالصدق الذي لم نحد عنه قط - قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس التي يمكن للبانى الذي يبرزنا بمقدرته الرائعة - أن يقيم عليها صرحا متكاملا .

وربما كان الأجدى أن ألوذ بالصمت بسبب القصور الخطير والعثرات الجمة التي تنتظر هذا المجهود ، وكان الأحرى بى أن أصمت وأرغم قلمي على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم لوطني قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت إحتياجات الوقت تتطلب رجلا مطبوعا على الاخلاص ، مستعدا لبذل حياته فى هذا السبيل .

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التي أنجزها هذا الوطن مطبورة فى زوايا الجهل وطيات الإهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للنسيان أن يسحب عليها ذيوله من غير حق بل ان هذا الوطن يأمرنى بعكس ذلك اذ يأمرنى بالحفاظ عليها عن طريق قلمي من أجل نفع الأجيال القادمة .

لذلك فقد استجبت لارادته ، وشرعت فى مهمة يأبى الشرف التنحى عنها ، ونهضت غير عابىء بنقد الأجيال التالية ، ولا مكتثر بأى حكم تحكم به على أسلوبى الضعيف فى معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل .

وليس من شك فى أننى لبيت نداء الوطن بنفس الحماسة التى بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذى يتفق مع الإخلاص .

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضالة امكانياتنا ، ولا الجهد الذى يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا قمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص .

يضاف الى هذه الحوافز ما أمر به الملك عمورى الأول قدس الله روحه وصاحب السجل الباهر فى الجهاد من أجل السيد .

ولقد حفزنى هذا الأمر - وأسباب هامة أخرى - على أن آخذ على غاتقى القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أننى قمت بوضع تاريخ آخر غير هذا التاريخ استجابة لأمر الملك الذى أمدنى بالوثائق العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسى الذى اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذى يبدأ من زمن [النبى] محمد [صلعم] متضمنا أحداث خمسمائة وسبعين سنة ، أى حتى عامنا الحالى هذا الذى هو عام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فليس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالى مصادر مكتوبة سواء فى اليونانية أو العربية للاسترشاد بها .

وانما كان اعتمادنا على الرواية التسفيهية وحدها ، الا فى ايراد قليل من الأحداث التى شاهدناها بنفسنا ، وتتبعنا سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والزعماء المغاوير الذين أحبههم الله فخرجوا استجابة لنداء السيد من ممالك الغرب ، واستولوا - بيد قوية - على أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام ، ولقد تابعنا بإخلاص عظيم التاريخ ابتداء من هذه النقطة لفترة تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع - وهو السابع فى ثبت الملوك ، اذا أدرجنا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبة منا فى أن يزداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل بأحوال البلاد الشرقية فقد وصفنا أولا - فى ايجاز واختصار - متى كان احتلال هذه البلاد وكم كانت المآسى التى تحملتها كثيرة ، كما ألمنا أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحقبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض .

ثم ذكرنا كيف تهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج بهدف تحرير اخوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه .



فاذا قدر الفارئ المهام المتعددة المتباينة التى تقع على كاهلنا فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء تنوع هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمور تتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختيارنا لتوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده .

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث نيظت بى - فى قصره الشريف - وظيفة المستشار ، هذا بالإضافة الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارئ هذه الأمور بعين الاعتبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد في الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يقبله ، ذلك لأنه حين يكون المرء مشغولا بمشاغل متباينة فانه من المستحيل على الذاكرة أن تنشط على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو قمين به من العناية ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلية الى شتى المواضيع، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهني مثل الذى يفترض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همهته الى أمر واحد فقط .

ومن ثم فان المرء ازاء هذه الظروف يكون أهلا لتسامح أكبر .
ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، وينقسم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارئ أن يجد ما يبحث عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعظم - ان مدت لى الحياة - أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداث وقتنا التى قد تتمخض عنها تطورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بقدر ما يسمح به الموضوع .



واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد - أن هذا الكتاب يقدم بيئة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا - قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أن لا نجد ما يزدهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) .

(١) أشار وليم فى النص هنا الى قصة لا يدرك معناها الا من يقرأ الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل متى (١ - ١٤) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القادر وحده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته
فلا يحيق بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ في العادة
الفاظا كثيرة » وأن يخفى البغض فشفتاه كاذبتان ومشيع المذمة
جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » .

ومن ثم فأننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب
في الله ، اذا وجد ما يستحق النقد ألا يتردد في تبياناه في رحمة
صادقة وأن يقوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياة الأبدية .

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا في صلواته فنكسب
عطف الرب علينا ، فإن وقعنا في ثنايا هذا الكتاب في خطأ فنرجوه
ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن يتفضل مخلص العالم - بفضل طيبته
الوفيرة ورحمته التي لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لأننا
نحن البتساء والخدم الذين لا جدوى منهم في بيته مخطئون كل
الخطأ أمام ضميرنا ، ونخشى يوم الدينونة خشية عظمية .

هنا ينتهي التمهيد

= عبيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل غيرهم الى آخرين
يدعوهم للوليمة « لكنهم تهاونوا » فقد مضى منهم الى حقله من مضى ، والى تجارته
من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم » ، فلما
سمع الملك غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم
قال لعبيده : « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم
أرسلهم أمرا اياهم ليدعوا كل من وجدوه الى العرس ، فجمعوا له « كل من
وجدوهم : أشرارا وصالحين ، فامتلا العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك لينظر
رأى هناك انسانا لم يكن لابسا لباس العرس فقال له : « يا صاحبي كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى
ما جاء في الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) في « أن من يخفى البغضة فشفتاه
كاذبتان ، ومشيع المذمة جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » . كما جاء في
النص . وقد ساق وليم هذا كله في استشهد قصير ليبرر موقفه ، وكان قصر
الاستشهد حاملا ايانا على هذه الحاشية في هذه الترجمة العربية .

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس
الناسك يبدأ فى الزحف مع جماعات أخرى ..

فصول الكتاب الأول :

- ١ - ذكر قيام عمر بن الخطاب ثانى خلفاء محمد
(صلعم) بالاستيلاء على بيت المقدس زمن
الامبراطور هرقل .
- ٢ - الظروف التى مكنت عمر بن الخطاب من
الاستيلاء على الشرق ولم تكن فى الحسبان ،
وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر بإعادة بناء
هيكل السيد .
- ٣ - كيف تحملت سورية طويلا أسر الرق تحت
حكم الولاة المختلفين ، وكيف أجدت صداقة
الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في
كنف المسلمين .

٤ - كيف انتقلت المدينة المقدسة الى نفوذ خليفة
مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير
محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله] ، كذلك
ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ - عرض للظروف التي كانت تسانده حينذاك بين
الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين .

٦ - الخليفة الظاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة
مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على التماس
رومانوس امبراطور القسطنطينية ويجهود
« جون كاريانين » و « قنسطنطين مونوماخوس »
ويمدهما بالمواد اللازمة .

٧ - القول في أصل الجنس التركي وتاريخه القديم .

٨ - ذكر أنواع الأحوال الكثيرة التي خضع لها العالم
يومذاك .

٩ - كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ - ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة
المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس
وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية في
أيدي الترك .

(*) هكذا يسمته مؤرخنا ، والقصود خليفة المسلمين وبغداد .

١١ - ذكر مجيء رجل الرب بطرس الناسك واللقاء
بينه وبين سيمون الموقر بطرك بيت المقدس .

١٢ - الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كنيسة
القيامة المباركة .

١٣ - الشقاق بين الامبراطور هنري والبابا جريجورى
السابع ، وكيف كان استقبال اربان الثانى
- خليفة جريجورى - لبطرس العائد من القدس
استقبالا كريما .

١٤ - مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقده
المؤتمر فى كليرمونت .

١٥ - عظة البابا [ايربان الثانى] للناس بشأن الحج
الى بيت المقدس .

١٦ - الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري
الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التى وضعها من
أزمعوا السفر - على ملابسهم - رمزا لايمانهم
وحجهم المقبل .

١٧ - أسماء أمراء مملكتى الفرنجة والتيوتون الذين
قاموا بالحج .

١٨ - وولتر المفلس يصل الى القسطنطينية .

١٩ - مجيء بطرس الناسك بعسكده ، ومعرفته -
أثناء اجتيازه المجر - بخيانة أهلها .

٢٠ - نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار فى
« نيش » احدى مدن بلغاريا .

٢١ - بطرس الناسك يستدعى قواته الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى تفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شغب جديد - أنكى من سالفه - وتتفرق كتائب بطرس .

٢٢ - بطرس يجمع شراذم جيشه المهزوم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى بيثينيا .

٢٣ - جيش بطرس يستولى فى غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقية ويحتل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ - قلعج أرسلان - أحد أمراء الترك - يسترد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ - الجيش الصليبي يتحرك بكافة عساكره ضد قلعج أرسلان لقتله اخوانهم التيوتون ، ولكنه يلقي الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ - قلعج أرسلان المنتصر على شعبنا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قتيل وأسير ، ثم يمضى لمخاصرة مدينة سيفيتوت ، غير أنه يرتد على أعقابهِ حين يسمع برسالة الامبراطور .

٢٧ - القسيس التيوتوني جوتشوك يصل الى المجر وهو يقود جيشا ثانيا ولا يتردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجرين يعف اللسان عن روايتها .

٢٨ - رسالة ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما .

٢٩ - كيف أن جمعا كبيرا من القوم المفتونين الذين
خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يقتلون
اليهود ويسرون في غير نظام .

٣٠ - قلعة فيزيينبرج ومصرع سبعمائه مجرى ، ثم
بيان كيف هلكوا أخيرا بإرادة الهية وقتلوا جميعا
تقريبا على يد العدو .

هنا يبدأ

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت

المقدس وبطرس الناسك يبدأ

الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديمة والرواية الشرقية للقول بأنه في زمن
الامبراطور الرومانى هرقل بدأت تعاليم محمد [صلعم] تثبت
أقدامها تثبيتاً قويا في الشرق .

ولما عاد هرقل من فارس متوجاً بأكاليل النصر عاد أيضاً
بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن في بلاد الشام رسم خلالها
« موديستوس » المبجل أسقفاً لمدينة القدس التي كان خسرو - كسرى
فارس الطاغية - قد خرب كنائسها ، فعهد الامبراطور الى
« موديستوس » هذا بإعادة ترميمها ، آخذاً العهد على نفسه أن ينفق
من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم .

في هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثاني خلفاء محمد
[صلعم] في مملكته وملته - قد استولى على غزة - إحدى مدن فلسطين
الشهيرة - بجيش لجب من العرب لا يحصيه العدد ، ثم ما لبث أن

تمكن بما تحت يده ، من الكتاب والحشود التي جمعها أثناء زحفه أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور هرقل في قيليقية « لا يعمل شيئاً سوى مراقبة الأحداث في تطورها ، فلما جاءه الخبر بأن العرب قد دفعهم اعتدادهم الكبير بجموعهم الضخمة الى غزو الأراضي الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها اليهم أدرك أن قوته ليست كافية لصد مثل هذا الجيش وقمع غلوائه ، فأثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل قوات لا تكافئها قوائه ، وألا يغامر ضدها ، في حرب لا يعرف ما تتمخض عنه ، وكان الأهالي المغلوبون لا يطمعون الا في حمايته اياهم ، لكنه غادرهم فازداد بأس العرب سبداً مما ساعدتهم في زمن وجيز على الاستيلاء على جميع البلاد الممتدة من اللاذقية بالشام حتى مصر .

ولقد شرحنا في كتاب آخر ، وفي دقة بالغة ، ما كان من شأن محمد [صلعم] ومتى كان ظهوره ، كما ألمنا بالأحداث التي انتهت الى أن يعلن أنه النبي المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب حياته ودعوته والأراضي التي يسط عليها سلطانه ، وكيف عاش من السنين وذكرنا خلفاء وكيف اتبعوا طريقته في نشر هذه المبادئ في أرجاء الدنيا .

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف خاصة سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه قبل سنوات قلائل من هذا الفتح قام خسرو - الذي أشرنا اليه حالا - بغزو بلاد الشام بالسيف ، قهر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع ، وهدم الكنائس ، وزج بالناس في السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسة ، وقتل بعد السيف ستة وبلاتين الفا من اهلبا ، ثم رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه ايضا « ركريا » اسعف بيت المقدس أسيرا وكذلك من بقى على قيد الحياة من سكانها ومن أهالى النواحي المجاورة .

كان هذا الحاكم الفارسى الجبار قد تزوج من مارية احدى بنات الامبراطور [البيزنطى] موريس الذى كانت تربطه روابط الصداقة القوية بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمده أحد أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عمده هو الآخر ارضاء لحاطر زوجته وظل محافظا على ما بينه وبين الروم من العلاقات الودية طيلة حياة موريس الذى مات فخلفه على العرش القيصر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاغتاله ، واذ ذاك أغار الملك خسرو على الامبراطورية وزحف عليها بجيش خرب الاراضى التابعة لها ، وذلك بسبب تقززه من خيانة أولئك الذين ارتضوا أن يولوا أمورهم رجلا دنيئا قد لطخت يده بدم مولا ، فعدهم خسرو شركاء لفوكاس فى اتفاق سرى واعتبرهم حلفاء فى الجرم ذاته ، كما أن زوجته مارية راحت هى الأخرى تزيد ما بصدرة من غضب من أجل الثأر لأبيها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الاراضى التى كانت تحت الحكم الرومانى كانت بلاد الشام هى آخر ما استولى عليه كما قلنا ، فقتل من أهلها من قتل ، وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [الشام] وجدوها خالية قد غادرها أهلها ، فبادروا لاغتنام الفرصة التى لم يكونوا يتوقعونها لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبة الى الرب وإن منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين بها عسا هم ينفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم سمحوا للمغلوبين أن يعيدوا ترميم ما دمر من الكنائس وأداء

شعائرهم الدينية ، كما أبقوا لهم أسقفهم ، وأذنوا لهم بممارسة
الديانة المسيحية بلا قيد .



وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصي
في دقة عن موضع هيكل (١) السيد ويسأل عنه الأهالي لا سيما
الأسقف الموقر « سفرونيوس » خليفة « موديسستوس » الطيب
الذكر ، ويقال ان الأمير الروماني « تيتس » هو الذي دمر هذا
الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه
وأشاروا الى ما تبقى من أطلال ضئيلة تشير الى هذا الأثر القديم ،
واذ ذاك أمر [عمر] بإعادة بنائه ، ورصد قدرا كبيرا من المال
للفتة على ذلك الغرض ، كما جلب لبنائه العمال ، وحمل اليه
— عن طيب خاطر — شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ،
فما لبث الهيكل أن كمل في زمن قصير ، واستوى على الصورة التي
رسمها عمر له في ذهنه ، والتي يراها اليوم زائر القدس .

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة
الغنية التي كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على
تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصاييح لا تنطفئ أنوارها أبدا
بفضل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه .

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء
ونفاسة صنعه فان تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالي .

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ،
ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التي يعتقد أنها راجعة الى هذا
العهد ، وهي توضيح اسم بانيه ، وما أنفقه عليه وتواريخ ذلك كله
منذ البداية حتى كمل البناء .

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة .

لقد دانت المدينة المقدسة - حبيبة الرب - لحكم الأعداء بسبب خطايانا وتحملت على مدى أربعمائة وتسعين سنة قيда لا تستحقه وعانت المشقة على الدوام رغم اختلاف ظروف هذا الأسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في تبدل ولايتها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها فترات وضاعة وأخرى كالحة تبعا لطبيعة كل حاكم تؤول اليه مقاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض تتحسن صحته تارة ، وتسوء أخرى بتغير الأيام ، ولكن الشفاء كان أمرا مستحيلا ما دامت في قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفر ف بجناحيه على شعب الله ابان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ثناء ، وأعنى به هرون الملقب بالرشيد الذي دان له الشرق ، والذي لا زال تسامحه وعطفه النادرى المثال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى الشرق حتى اليوم .

ولقد قامت العلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرسى دعائمه الامبراطور الوريع الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكانهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارل وليس تحت حكم هرون ، ونطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باستثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لا ينبغى أن يكون التعظيم والاجلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القبر

(١) يقصد بذلك المسلمين .

المقدس وكنيسة الفياضة ودخلوا عليه بالهدايا والتحف ، واعلموه بما جاءوا من أجله ، وافصحوا له عن رغبة مولاهم ثم يلتفت هرون بإجابتهم الى كل ما سألوهم اياه بل زاد فمكتهم من ملكيه هذا المدان واعتباره من املاك شارلمان ، فلما حان موعد اوبه الرسل الى مولاهم اوفد الرشيد سفراء من قبله الى شارلمان ، حاملين اليه هدايا الثمينه من الثياب الحريرية والتوابل وغير ذلك من منتجات الاقطار الشرقية ، كما كان قد ارسل قبل بضع سنوات من ذلك التاريخ الى شارلمان - بناء على رجائه - فيلا كان الوحيد عنده اذ ذاك .

وكان شارلمان يمد يد العون السخي على الدوام لمن يعيش في القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم المارقين ، كما شمل بره من كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها الشرقيون المغتصبون ، ونقرأ في ترجمة حياته « انه لما كان شديد التقوى فقد جرت عادته على بسط يده بالمال للفقراء في سخاء بالغ ، سماه الاغريق بالزكاة ، آخذا نفسه بهذا العمل عطفاً منه عليهم لسد حاجتهم ، ولم يقتصر فعله هذا على من هم في مملكته ، بل تعداهم الى كافة المسيحيين الذين يعيشون في متربة حتى ولو كانوا وراء البحار في بلاد الشام ومصر وبيت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حمله على عقد أواصر الصداقة مع الملوك فهو طمعه في أن يتمكن من مد يد الغوث والمساعدة لمن يعيشون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

واذا أراد القارئ الوقوف على ما كانت تكايدته القدس : مدينة الله وما حولها من شدة بسبب كثرة التغيرات للظروف والأحوال خلال هذه الفترة الانتقالية ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء المشرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلاً شاملاً لأحداث حوليات خمسمائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى الوقت الحاضر ، وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك في ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والفرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الأمر الذي لا ينكره أحد هو أن كل واحدة من هاتين الأمتين كانت تعتنق مذهباً يخالف المذهب الذي تعتنقه الأخرى تمام المخالفة ، مما أدى الى حد كبير الى إثارة شعور البغضاء بينهما ، ولا يزال اختلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدل الناشب بين هاتين الأمتين نشوباً أفضى للقضاء على كل تراجم بينهما ، حتى ان كل واحدة منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهباً بعيداً أدى برغبة كل منهما في مخالفة الأخرى حتى في الاسم ، فيطلق أتباع المذهب الشرقي على أنفسهم اسم « أهل السنة » على حين أن الذين يؤثرون اتباع المذهب الشرقي المصري - وهو أقرب ما يكون إلينا - يطلقون على أنفسهم اسم « الشيعة » غير أن شرح الاختلاف في الخطأ بينهما لا يدخل في نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر تزداد قوة يوماً بعد يوم اذ استولت على الولايات والأقطار الممتدة حتى أنطاكية ، كما وقعت في يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التي خضعت لنفس القوانين ، وترتب على ذلك أن خفت بعض الشيء متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم في ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بقليل من الاستجمام ، وأخيراً أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة جزاءً وفاقاً للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التي تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهوراً بشتى ضروب الاثم والاجترار على ارتكاب المعاصي مما جعل حياته - وهي كريمة عند الله والخلق معا - تستحق رسالة خاصة قائمة

بذاتها ، فكان من الأفعال الذميمة التي اجتريها قيامه بهدم كنيسة القيامة التي شيدها في الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قنسطنطين ثم أعيد ترميمها - زمن هرقل - على يد « موديستوس » الموقر .

وكان والى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله - قد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم في البناء حتى سواء بالأرض ، وكان رئيس الكنيسة يومذاك هو « أوريسستوس » المعظم خال من هذا الخليفة السفيفه ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل ملته على مدى اخلاصه للملة ، اذ كانوا ينعتونه بالنصراني قدحا فيه ونيلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة في محو هذه التهمة منه على أن يقترب تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن تواتيهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكي الذي تصدر عنه الديانة المسيحية .

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيي بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولا يرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن دقيم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المترابدة التي يقاسونها من جراء مختلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة يتوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف - وتشجبها الامتيازات التي منهم ايها حكامهم السابقون ، هذا بالاضافة الى منعهم من أداء شعائرهم الدينية التي

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاة المختلفين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ آمنا لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجارة ، ويرمونهم بالقاذورات ويشنون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشد ، لاسيما فى أعيادهم الخاصة ، وكانت التهمة العابرة يرميهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم وتعذيبهم من غير محاكمة ، كما تصدر بضائعهم وتجاراتهم ، وتنهب أملاكهم ، ويتخطف الناس أبناءهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسولة والوعود الكاذبة تارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم جام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب إوانا ونصبوا لهم المشائق .

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادىء الأمر هذه البلايا وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل ملته - سرا وجهرا - على التمسك بالصبر ، ويعدهم بأكاليل الشهادة - فى العالم الآخر - نعتقد على رؤوسهم جزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاملا لهم وبلسما لجراحهم فاقبلوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية يلقونها فى سبيل المسيح .

وان الأمر ليطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفردية ، أو تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثلا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتهما لماذا كانت أتفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرائى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهية سوداء لأهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فذهب

هذا الرجل مكيدة فيها هلاكهم ، اذ انسل خلسة ذات ليلة حاملا جيفة كلب ثم القياها في ساحة الجامع الذي كان القوامون تلبيه - كذلك اهل المدينة كلهم - حريصين أشد الحرص على نظافته، التامة ، فلما اهل فجر اليوم التالى اقبل المصلون على المسجد لاقامة الصلاة ، فوجدوا جيفة الحيوان النجس يتصاعد منها النتن ، فثارت ثائرتهم ، وتعالى صرخاتهم حتى صحت المدينة كلها على صياحهم ، وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الراى كلهم - دون أن يشذ عنه أحد - على أن مسئولية الحادث تقع على كاهل المسيحيين وحدهم . فماذا كان بعدئذ .

لقد تقرر اعدام جميع النصارى باعتبار أن الموت ولا شيء سواه - هو وحده الذى يمكن أن يكفروا به عن هذا الدنس ، فتأهب المؤمنون - وكلهم ثقة ببراءة ذيلهم - لتحمل الموت من أجل المسيح، وبينما كان الجلادون يتقدمون مشهرين سيوفهم ويوشكون أن ينفذوا الأوامر الصادرة اليهم اذا بشاب يافع يفيض قلبه بالنخوة يتقدم الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيها الاخوة .. ستكون أكبر نكبة أن تهلك الكنيسة كلها بهذه الطريقة ، وانه لأجدى أن يقدم واحد حياته فداء للناس جميعا فلا يهلك الشعب المسيحى جميعه ، فعقدونى أن تكرموا ذكرائى سنويا ، وأن توقروا أسرتى الى الأبد ، وتخصوها بالتشريف ، ان خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتمونى أن تفروا بهذه الشروط خلصتكم جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » .

وأنصت المسيحيون الى كلماته فى فرح شديد ، وأبدوا استعدادهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد أن يخرج فى يوم عيد الشعانين موكب مهيب ممن هم من ذريته، يحملون الى المدينة أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسيح .

حينذاك أسلم الشاب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلنا لهم أنه هو الذى اقترف ذلك الجرم ، فبرأت بذلك ساحة المسيحيين الآخرين ، اذ ما كاد القضاة يسمعون قصته حتى صفحوا عن بقيه قومه ، أما هو فقد قتلوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، ونام أطيّب نومة مباركة وهو واثق كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب .

- ٦ -

ولقد تأتى أخيرا أن حلت الشفقة الالهية والعطف الربانى على هذا الشعب المنكوب حين وافاه العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس ، اذ فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وتقلد من بعده ابنه « الظاهر » مقاليد السلطة ، فاجتث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الاتفاقية التى نقضها أبوه ، وأحكم روابط الصداقة مع رومانوس امبراطور القسطنطينية الملقب بـ « يوليوس » الذى استجاب للظاهر لرجائه فأذن للنصارى باعادة وتشبيد الكنيسة ، لكن على الرغم من حصول مؤمنى القدس الاتقياء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المالية وحدها عاجزة عن اعادة بناء اثر عظيم كهذا الاثر ، ومن ثم أرسلوا سفارة الى « قنسطنتين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس » وصار اليه الصولجان والتاج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ، ووصفوا له ما يكابده الناس من حزن ممض وشقاء بالغ بسبب تدمير كنيستهم وتضرعوا اليه أن يعمهم سخاؤ الامبراطورى ليتمكنوا من اعادة تشبيد الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بهذه السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه « جون كاريانيس » جمع بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباحج

الدنيا من أجل خدمة المسيح وصرف همته لرعاية المله . وكان جون هذا يعيش يومئذ في بيت المقدس ، عازفا عن الدنيا . ناهجا نهج الفقراء من أجل المسيح ، فناط القوم به هذه المهمة فأداها صابرا غير مقصر، وأخلص في عرضها بين يدي الامبراطور المبجل حبيب الله . ونجح في مسعاه ، اذ وعده قنسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير في اجراءات اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النقطة المالية من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمته على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة تغمره لحصوله على الوعد الذي كان المؤمنون يتلهفون عليه .

وعلم القاصي والداني بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة في ذلك الوقت هو البطررك « تقفور » .

لم يكده الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجيدة التي لا تزال حتى اليوم في القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة بسبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التي تعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤمن لم يتخلص تماما من المتاعب والبلايا التي لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع، وطالما زج به في السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر في الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون في بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الالهانات
تنصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء
بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ،
حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد
مضطهداه اغتصاب أى شئ منه أو من البطرك وتلكا هؤلاء فى
الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .

وكانوا يعانون كل سنة على وجه التقريب هذه المعاملة ، فيدعى
النواب الجدد أن أوامرهم ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض
فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب
المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فان المسيحيين نعموا - على طول مدى
حكم المصريين والفرس - بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى
ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات
المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ
أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب
الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) شاقا أعظم
هولا من المشاق التى عاناها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت
فى نظره أقل فداحة .

وسوف نتحدث كثيرا عن الترك فى هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التى طالما قمنا بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الاندفاع الطائش فى مهاجمتنا فإنه يبدو من الأوفق فى الكتاب الحالى أن نقدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن تبوئه مقعد العظمة التى تشهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعة واحدة) فى الأصل من المناطق الشمالية ، وهم قوم مفرطون فى الفظاظة ولا يقيمون فى مكان واحد ، بل كانوا يتجولون على الدوام هنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطعانهم ، ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأت إحدى القبائل أن تغير مكانها شدت بأجمعها رجالها وخرجت تسعى وقد نصبت عليها شيخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذى ترفع اليه القبيلة شتى مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المتخاصمون بطاعته فيما قدر وقرر ، لأنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يتبع هوى ذاته ويخالف ما يقضى به الشيخ ، وكانوا يأخذون معهم أثباء تجوالهم جميع ما يحتاجونه من علف الجياد ، ويستصحبون معهم الماشية والغنم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا الشراء ، وليس لهم من وسيلة فى الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الناحية يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انتهوا الى

اتفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحية ، ثم يقيمون
بعد ذلك فى الغابات والمراعى وفق الشروط المبرمة .

وحدث ذات مرة أن انفصلت طائفة من هؤلاء الناس عن سواها
ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الاقليم ملائما كل الملائمة لاحتياجاتها ،
فدفعت للحاكم ما اتفقوا معه عليه فى البداية ، وأقاموا هناك ردحا
من السنين أطول مما جرت به عادتهم ، وتزايد خلال هذه الفترة
عددهم زيادة هائلة ، والواقع أنه لم يكن هناك حد تقف عنده
كثرتهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يتخوفوا
من تزايد عددهم الكبير وتوجسوا خيفة منه ، فراحوا يقلبون الأمر
فيما بينهم حتى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة فى طرد هؤلاء
الدخلاء من مملكتهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا تغيير هذه الخطة ،
فأضافوا مطالب جديدة زادت من المصاعب المتراكمة دون أن يخف
الضغط المعتاد ، وكانوا يطمعون أن يؤدى هذا الأمر الى ارهاقهم
ارهاقا يحملهم على النزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ،
ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طويلا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من
المتاعب ، كما أرهقتهم الاتاوات المفروضة عليهم ، وأخيرا تشاوروا
فيما بينهم فقر رأيهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه .

فلما علم الملك بذلك أمر المنادى أن ينادى بوجوب رحيلهم
جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا
نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الناحية ، واغتنموا الفرصة
اذ ذاك لإقامة جموعهم الكثيفة ، فلما تهيأت لهم الحياة فى فسحة
من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه
من الكثرة ، فراعهم أن يستكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم
هذا لصلف أى أمير ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شئان الخدمة

ودفع الجزية وكان من العجلى أنهم يماثلون الفرس وغيرهم من التسعوب فى العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التى تقوم أمام احتلال الأراضى المجاورة بالقوة إنما ترجع لعدم وجود ملك يتولى أمرهم ، كما هو الحال فى بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمرُوا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذا ذاك استدعوا صبيا صغيرا وأمروه أن يسحب سنهما واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التى منها السهم الذى يسحبه الصبى ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاجقة فكان الملك الذى يلي أمرهم فى المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمرُوا باختيار مائة فرد من السلاجقة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر فى مثل براءته) وأمروه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذى سحب الصبى يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته فى عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه كان قوى البنية . قد طال تمرسه بفن الحرب ، وكان كل شئ فيه يشير الى أنه أمير عظيم .

نُصَّبَ الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووضعوا في يده السلطة الملوكية ، وقرروه التوقيع الواجب نحو الملك وأقسموا على طاعته وقطعوا له يمين الولاء الصادق بتنفيذ كل ما يقضى به فيهم ، فبادر هذا الملك في الحال الى استخدام السلطة الموكلة اليه بالعمل على ما فيه خير المملكة وبعث المنادى في الناس المجتمعين أن يعبروا النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التي غادروها منذ قليل ، كما أمرهم بالاستيلاء على المملكة المجاورة حتى لا يضطروا في مستقبل أيامهم أن يهيمنوا على وجوههم في أرض الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاستبداد غير محتمل من الشعوب الغربية عنهم .

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكتساح بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتيح لهذا الشعب البسيط التافه أن يتسنى فجأة معارج الذروة ويتبوا القمة حتى ملك الشرق كله .

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا الغربيين بحملة الحج التي هي موضوع هذا الكتاب .

ولكى نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التي نُصِّبَتْ عليها ملكا فنالتها الشهرة العظيمة وذيوع الصيت وبين أولئك الذين لا زالوا محتفظين بأسلوب حياتهم الخشن الفطري فانا نقول ان الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلي وهو « التركمان » .

ولما ترك للترك غزو جميع ممالك الشرق تطلعوا لفتح مصر القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا عدة مدن قريبة منها فزادوا من متاعب المؤمنين الساكنين هناك زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ، كما أشرنا الى ذلك حالا .

لم يكن المؤمنون في الشرق وحدهم هم الذين أناخ عليهم
الطغاة بكلكتهم بل لقد ضعف الايمان ووهى في الغرب وفي كافة
انحاء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين ، فتلاشت
خشية الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الارض . وانعدمت
الطمأنينة اذ فشى العنف بين الأمم ، وساد الغش وعمت الخيانة
والخدعة والاحتيال كل صقع وناد ، وطويت كل فصيلة . فلم يعد
وجود لها وصارت عدما وارتفعت راية الشر مكانها ، والذي لا وراء
فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها منحدره في هوة الظلام ، وأنه
قرب الموعد الثاني لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكثيرون عن
عمل الخير ، وأصبح الايمان في العالم غريبا ، وعمت الفوضى ، ولم
يعد أحد يراعى مكانة صاحب مكانة ، وخيل للناظر أن العالم يريد
أن يعود القهقري الى الوراء الى وضعه الأول من الفوضى التي كان
عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملتزمين بالسير برعيتهم
نحو السلام مكثرين باتفاقيات السلام التي تعقد بين بعضهم والبعض
الآخر ، وراح كل منهم يقاتل حتى لاتفه الأسباب ، وعاثوا في الأرض
فسادا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويستولون على الغنائم التي
وجدوها ، ومكنوا أتباعهم السفلة الأوغاد من اغتصاب ما يملكه
الفقراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمة طمأنينة على أية ملكية ، وكان
مجرد الشك في حياة الشخص لشيء ذي قيمة سببا كافيا لتقييده
والزج به في السجن حيث يلقي من العذاب الجشمانى ما لا يحتمل ،
ولم تعد أمتعة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد
أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها
الأمراء الأتقياء لها ، وانعدم التقدير الذي كانت تضيفه عليها مكانتها
الرفيعة التي كانت لها من قبل ، فاقترحت المعابد وانتهكت حرمتها ،
ونهب الأوعية المعدة للخدمة الدينية ، ولم تفرق يد الانتهاك بين

الطاهر والدنس ، وانعدم التمييز بينهما وشملت الأسلاب
فيما شملت أكسية المذابح والأردية الكهنوتية والأواني المخصصة
لخدمة السيد ، وتعقبوا اللائذين بأقصى الأماكن الدينية والمعتصمين
بالأحرم المقدسة . واللاجئين الى ساحات الكنائس فطالنتهم أيديهم
وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هذا الى
جانب اللصوص الظلمة الذين تسلحوا بالسيوف في الطرق العامة
وراحوا ينصبون الكمائن لتصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم
حاج ولم يسلم من شرهم رجل دين ، ولم تكن القرى هي الأخرى
بنمجة من الأخطار لأن السفاحين المتخلفين أحالوا جميع الشوارع
والدروب الى أماكن تبث الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أشد
الناس عرضة للوقوع في المهالك هم أبعدهم عن التشبهات .

ومورست شتى أنواع الفجور جهرا ومن غير حياء كما لو كانت
أمرا مشروعاً ، ولم تعد تراعى روابط القرى من الدم والزواج ،
وتغلى الناس عن العفة - وهي غالية عند الله وملائكته - فنبذوها
نبذ النواة ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على الشراب والتهالك
على ألعاب الميسر والقمار التي تحتاج الى سهرات ليلية طويلة ،
فمارسوا ذلك كله في ساحات المعابد ، وانعدم التدبير والتعفف
وساوى رجال الدين بقية الناس في ممارسة الحياة غير الشريفة
وصاروا كمن نقرأ عنهم في الأنبياء حيث يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١)
فقصر الكهنة في أداء واجباتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقدر أن
تنبح » (٢) ، فكانوا لا يتورعون عن مقابلة أى أحد « ولا تأبى رؤوسهم

(١) هوشع ٢ : ٩ ، واشعيا ٢٤ : ٢٤ .

(٢) اشعيا ٥٦ : ١٠ .

بزيت « (١) الخطاة ، وصاروا كالرعاة الذين أهملوا قطعان الماشية
الموكول اليهم حراستها وتركوها عرضة لهجمات الذئاب ، وتناسوا
كلمات المسيح حيث يقول (٢) « مجاناً أخذتم » مجاناً أعطوا » ،
ولم يتورعوا عن خطيئة السيوف ، فتلطخوا بعار جيعزى (٣) .

فهل ثم حاجة لمزيد من القول ؟

والخلاصة أن أصبحت الصدارة للذائل ، إذ كان كل بشر قد
أفسد طريقه على الأرض ، ولم تستطع تهديدات الرب التي تجلت
كنذير شؤم من السماء ولا الظواهر الأرضية أن تزجر من سلكوا
طريق الشر ، فانتشرت المجاعات وعمت الأوبئة وأرعدت السماء
بالنذر (٤) ، وضربت الزلازل كثيرا من البلاد المختلفة وظهر غير
ذلك من الدلائل التي عددها المسيح في الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غيهم بل ظلوا يرتكبون شتى
الموبقات (٦) ، شأنهم في ذلك شأن الأغنام تتيخ في روثها (٧) .
وأهانوا الرب الرؤوف الذى تعذب طويلا فكان مثلهم في ذلك
مثل الذين قال فيهم السيد (٨) .

-
- (١) المزامير ١٤١ : ٥ .
(٢) متى ١٠ : ٨ .
(٣) انظر القصة والحبر كاملين في الملوك (ثان) ٥ : ٢٠ - ٢٧ .
(٤) التكوين ٦ : ١٢ .
(٥) اشارة الى ما ورد في متى ٢٤ : ٧ من قوله « لأنه تقوم أمة على أمة ،
ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن » .
(٦) راجع قول السيد المسيح في لوقا ٢١ : ١١ .
(٧) راجع رسالة بطرس الثانية ٢ : ٢٢ حيث قال : « كأنهم كلب قد عاد الى
قيته ، وخنزيرة مغتسلة في مراغة الحماة » .
(٨) راجع أرميا ٥ : ٣ ، ٥١ : ٩ « ضربتهم فلم يتوبعوا . أفنيتهم وأبوا
قبول التأديب » .

- « يا رب أليست عيناك على الحق • ضربتهم فلم يتوجعوا •
أفنيتهم وأبوا قبول التأديب • صلبوا وجوههم أكثر من الصخر •
أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله : « داوينا بابل فلم تشف » •

- ٩ -

حين فاض مرجل الغضب بالرب من هذه الأمور قضى على المؤمنين الصادقين الموجودين فى أرض الميعاد أن يرسفوا فى قيد العبودية المشار إليها من قبل ، وأن يقاسوا من الشدائد ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبالإضافة الى ذلك فانه أثار عليهم خصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الذين ظلوا حتى هذه اللحظة سادريين فى غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجينوس » يحكم الاغريق ويدير دفة أمور المملكة فى القسطنطينية على أتم صورة من النجاح اذا بواحد من حكام فارس وسورية الأقوياء واسمه ألب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كثيفة جمعهم من شتى الأمم الجاحدة ، وكانوا من الكثرة بالصورة التى غطت - كما قيل - وجه البسيطة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والفرسان ، ومشيت خلفه قطعان الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البيزنطية] وأخضعها كلها لسلطانه وسيطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلاع المنيعة دون أن يخرج أحد لصدده ولم يعترض زحفه أى معترض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكثر حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور فى هذه الأثناء بأن جيشا قويا معادبا له كأنه السيف المسلول يهدد بقطع الرقاب قد شرع فى تخريب الامبراطورية المسيحية ، فدفعته

شدة انشغال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المشاة الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، استجابة لما يفرضه الموقف الحرج .

فماذا نقول أكثر من ذلك ؟

لقد زحف الامبراطور بكل ما تجمع لديه من الكتائب ، وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من الله فلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامبراطورية وأخذ يتوغل في داخل البلاد .

ثم كانت المعركة التى شبت بعد ذلك فى ملازكرت معركة ضارية ضراوة تتناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا وتحرك كلا منهما كراهية يزيدها عنفا ايمان شديد الصلابة ، وكراهية لمعتقدات يعتبر الواحد منهما أن خصمه يصدر فيها عن دنس .

فماذا نقول أكثر من هذا ؟

لقد باد الجيش النصراني ، ودارت الدائرة على صفوف المؤمنين ، وسفك العدو دماء قداها المسيح بدمه ، وكان أسوأ النكبات التى حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأسر .

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة ليقصوا نبأ النكسة التى ألمت بهم ، فاستمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم الحزن الذى استولى على نفوسهم الى اليأس من حياتهم وسلامتهم ، فأسلموا أنفسهم للبكاء الممض .

فى هذه الأثناء انتشى العدو العظيم - وان يكن كافرا - بنصره الساحق ، وأخذ يتباهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكى ، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احتقاره لكل ما هو مسيحي فاتخذ من جسد الامبراطور موطنًا لقدميه ، وراح يدوسه صعودا ونزولا ، حتى اذا رضيت نفسه بما ألحقه به من تحقير وازدراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعا بالرحيل .



حين صك نيا هذه الالهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اختيار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس - الذى لقي هذه الالهانات الجسدية - لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا جديرا بهالات الشرف التى تليق بأغسطس ، بعد أن فضح أقبح فضيحة ، ثم سملوا عينيه ، وان تكرموا عليه بالحياة ليعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى .



لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فيما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مضيق البسفور الذى ينساب الى جوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم » .

(١) المزامير ١٠٦ : ٤١ .

ثم كانت مدينة أنطاكية الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات فى النيل والروعة ، اد كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبحت تدفع الجزية لخصوم ملتها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارقين - وفى زمن قصير نسبيا - بلاد « كوليسيريا » بما اشتملت عليه من ولايات قيليقية وايسوريا و « بامفيليا » و « ليكيا » و « كبادوشيا » و « غلاطية » وأيضا ولايتا « بونتوس » و « بيثينيا » وقسم من آسيا الصغرى ، وتشتهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من النصارى لكن جرى عليهم الأسر ، وغلبت الكنائس على أمرها وامتدت اليها يد التدمير ، وانطلق الأعداء يطاردون الملة المسيحية لا تأخذهم فى هذه المطاردة هواده اذ أجمعوا العزم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكشاه قوة بحرية لتم له ما أراد من غير جدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بث فى نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يستبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعتبرون تغلغل البحر فى أرضهم كافيا لضمان سلامتهم تمام السلامة .

أدت هذه الأحداث - وأخرى مشابهة لها فى طبيعتها - الى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما جاورها ، فغمر اليأس الناس من قمة رأسهم الى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاءهم - كما قيل - كان يأتيهم فى وقت الشدة من القصر الامبراطورى يوم كانت الامبراطورية تنعم بالرخاء ، فكانت سلامتها وسلامة احوالها وانتعاش حال المدن المجاورة - وفى مقدمتها جميعا أنطاكية - تبعث فى نفوسهم أملا كبيرا فى أن ينعموا بالعيش أجارا فى مهتقبل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جزعين على أنفسهم وعلى غيرهم فعمتهم الاشاعات المشئومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرجون

الحياة ، وانهارت عزائمهم اعتقادا منهم أن قد قضى عليهم بالأسر
الأبدى .

- ١٠ -

حدث فى أثناء هذه الأوقات العصيبة الخطرة أن وصل الى
مدينة القدس جماعة ضخمة من اليونان واللاتين نجوا من شتى
صنوف الهلاك فى أرض العدو ، وكان مجيئهم لأداء مناسك العبادة
فى الأماكن الطاهرة ، ولكن حراس أبوابها لم يأذنوا لهم بدخولها
حتى يدفعوا قطعة النقود الذهبية التى جرت العادة أن يدفعها كل
داخل ، غير أنهم كانوا قد صرفوا فى أثناء رحلتهم كل دنانير كان
معهم ، ولم يبق فى أيديهم شئ من نقد يؤدونه لسداد هذا الرسم
المالى . وان كانوا قد وصلوا - بشق النفس - الى هدفهم الذى طال
شوقهم اليه ، فبلغوه سالمين .

وتجمع الحجاج زرافات أمام المدينة ينتظرون الاذن لهم
بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج بسبب
الجوع والعري ، وكان هؤلاء الناس (الحجاج) - الأحياء منهم
والأموات - عبئا ثقيلا ينوء به كاهل الأهالى التعساء الذين حاولوا
المحافظة على حياة من لا يزال فيه نفس يتردد ، فراحوا يمدونهم
بما قدروا عليه من الطعام يسكنون به ومقهم ، كما بذلوا من جانبهم
جهدا فى دفن الموتى ، رغم أن مشاغلهم الخصوصية كانت فوق
طاقاتهم .

أما الحجاج الذين دفعوا الرسم النقدي المقرر ، وأذن لهم
بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبئا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضخم ، لما كان يتهدد هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء تجوالهم الذى كان يتسم بالبعد عن الحذر تلهفا منهم على زيارة الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار تتمثل فى البصق عليهم ، أو لكمهم على آذانهم ، أو ما هو أسوأ من ذلك ألا وهو خنقهم مبرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج يسرعون فى المضى الى الأماكن المقدسة مضى المواطنون يتبعونهم فى حنان أخوى مؤملين أن يتمكنوا بهذه الطريقة من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حياتهم وسلامتهم وجزعا من أن يقع لهم حادث مؤلم .



وكان فى المدينة دير يملكه « الأمالفيون » لا يزال يعرف حتى اليوم باسم دير القديسة ماري «حامية اللاتين» وهو ملاصق للمارستان به كنيسة صغيرة أقيمت تمجيذا لبطرك الاسكندرية المبارك « جون المنير » وكان يقوم بالعناية بالمارستان رئيس أساقفة « الدير المذكور حالا » ، كما كانت المعونة تبذل به فى أى وقت للحجاج البؤساء الذين يحضرون فى مثل هذه الظروف فينفق عليهم مما يأتى من الدير أو من الهبات التى يجود بها المؤمنون وكان قل أن وجد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يستطيع أن يكفل ذاته ويقيم أود نفسه اذ يكون أكثرهم قد فقدوا نفقة سفرهم ، وأرهقتهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غايتهم سالمين الا بعد عسر ومشقة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم ينقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو جزعهم مما هو مائل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى ليست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك أن العدو كان يدخل قسرا الكنائس التي أعيدت لأصحابها والتي بذلوا جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها فيقتحمها عليهم وهم فى ذروة انغمارهم فى أداء طقوسهم الدينية غير عابىء قط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فيتخذ من مذابحها مقاعد له ، ويبيت الفزع فى قلوب المصلين بصغيره وصياحه الجنونى ، ثم يقلب كتوس القرايين ويطأ بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وابلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المتولى الأمر من كرسيه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحيته ويطرحه أرضا كأنه مجرم حقير ، وكم من مرة ألقى به الأعداء فى الحبس من غير جريرة ، وعاملوه معاملة لا تجوز إلا مع أحقر العبيد كل ذلك تعذيبا لاتباعه الذين شاركوه الألم باعتبارهم إياه أباهم الروحي .

لقد ظل هذا الشعب المؤمن بالرب - كما قلنا - يقاسى ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى إلا أن يظل مستمسكا بدينه رغم بلواه على مدى أربعمئة وتسعين سنة . وطالما جأر هؤلاء بالشكوى الى الرب فى صلواتهم التى لا تنقطع واستغاثوا به فى أنات باكية ، وزفرات حرى ، راجين أن يخلصهم من العذاب الذى لاقوه جزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تتغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر غضبه عليهم لأنهم وقعوا فى هوة الشر كما يقول القائل « غمر ينادى غمرا (١) ٠٠٠ كل تياراته ولججه طمت عليه » .

وأخيرا تعطف الرب عليهم وتحنن بنظرة منه وهو على كرسيه المجيد ورغب فى وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى إلا أن يمنحهم الراحة التى يلتمسونها .

(١) المزامير ، ٤٢ : ٧ .

ان اهتمامنا فى هذا الكتاب منصب على بيان طريقة وتنظيم هذه الخطة الالهية التى ارادها الله لاتقاذ شعبه من بلواه تمجيذا للمخلصين فى المسيح .

- ١١ -

فى هذا الوقت بالذات الذى كانت فيه المدينة المحبوبة من الرب تمر بتلك المتاعب السابق وصفها ، كان هناك بين الجموع الكثيرة التى سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العبادة والصلاة قسيس اسمه « بطرس » من أسقفية « أميين » فى مملكة الفرنجة ويعرف « بالناسك » ، وهو لقب طابق لفظه واقعه وكان هذا الرجل قد شدته الى بيت المقدس نفس الحماسة الروحية .

أما عن هيئته فكان رجلا قميئا ليس فيه ما يجذب النظر اليه، لكن كانت تسكن هذا الجسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه كان امرا خفيف الروح ذكيا ، جميل العينين ، ولا تنقصه البلاغة اذ كانت طبيعة ركبت فيه وخلقة فطر عليها .

وبعد أن دفع المقرر جبايته من كل مسيحي راغب فى دخول المدينة استضافه أحد الأتقياء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس رجلا طليعة فقد راح يلقي على مضيفه السؤال تلو السؤال مستفسرا منه عن أحوال النصارى فتجمع لديه منه تفاصيل جمة لا تقف عند حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التى قاساها أجدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غابرة ، أما الأخبار التى فاتت سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التى أسعفته

بها عيناه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة جليلة على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما تجتمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة ، ثم ترامي الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كثرة الورع وعظيم الخوف من الله فتمنى لو تكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورة كاملة أكثر وضوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حضرته كان حوار طيب استمتع به كل من الرجلين وكان هناك مترجم أمين يترجم ما يقوله كل منهما .

أدرك البطرك « سيمون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطن، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقناع بالكلمة والفعل فأخذ يشرح له في اسهاب وصدق الأحوال الجمة المنصبة في وحشية على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فتأثرت مشاعر بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية تأثرا لم يملك معه دموعه عن

الانهمار ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان ايجاد طريقة ما للخلاص من هذه المصاعب المهددة بهم ، فأجابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السيد الحنون الرحيم يأبى أن يكثر بآثامنا وآهاتنا الباكية بسبب الخطايا التي كبلنا بها أنفسنا ، ولسبب الآثام التي ارتكبتها ولم نتطهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرننا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسننا ضر ، وبقوة اخوانك المخلصين في عبادتهم للسيد هذا الى أن مملكتهم - التي تفرع أعداءنا - تمتد امتدادا فسيحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا في حب أخوي وشاركونا في موقفنا الحالي وقدموا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنثال علينا أو ان هم على الأقل تشفعوا لنا عند المسيح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أي عون من امبراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكثر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروات ضخمة أعظم الضخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرّون على الدفاع عن أنفسهم اذ تلاشت قوتهم بددا ، كما أنهم فقدوا - حسبما سمع حنانكم الأخوى - أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات قلائل . »

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا توفر لكنيسة رومة وأمراء الغرب مبلغ المعى ثقة يخبرهم بالمصائب التي تكابدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولا وعملا لتخليصكم من هذه المشاق ، وعليك أن تشاير في الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة في رومة ، وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أراجع من جهتي عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روحي ، كما أنني مستعد - مهتديا بالله - لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد عندهم على محبتهم التي تجاوز كل حد وأدعو الجميع أفرادا وجماعات ألا يتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم . »

نزلت هذه الكلمات نزول السلوى على نفس البطريرك وملأتها بالغبطة ، كما قبلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وقرت عيون المسيحيين فرحا لبطرس وشكروا رجل الرب شكرا جزيلا على عاطفته ، وناولوه المكتوب الذي سالهم اياه .

« حقا يارب يا مولانا . . كم أنت عظيم ورحمتك بلا حدود

« حقا يا عيسى الشفيق لن يخيب قط من ناط أمله ببابك .

« اذ من أين جاءت مثل هذه الثقة لحاج بلا معين ومن غير سند كهذا الحاج بطرس وهو ناء عن مسقط رأسه حتى يأخذ نفسه ويحمل على عاتقه مهمة فوق طاقته ؟ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك فى تحقيق ما يتطلع اليه » .

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره تحرك يا رب وأنت حاميه ، وفاض قلبه بالحب المتقد فتعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة كيانه الا أن المحبة كانت تشد أزره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه على عاتقه عن مهمة شاقة ان لم تكن مستحيلة الا أنها تيسرت عليه وذللت له بفضل ما طبع فى قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب قوى كالموت » وأنه لا ينفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » .

« ان خادمك لن يتردد اذ أظهرت نفسك له وشجعته بمرآك ولن يتذبذب ، ولكنه ينهض قويا ليكمل عمل الحب » .

(١) انظر غلاطية ، ٥ : ٦ .

وحدث فى أحد الأيام أن خادِم الرب هذا الذى أتكلَم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير فى العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التى حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واتجه بقلب خاشع كل الخشوع الى منبع الرحمة ، وأمضى الليل فى الصلاة والتهجد . حتى اذا فارت عاطفته سقط على الدرج واستغرق فى النوم العميق استغراقا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدنا عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانجز ما عهد به اليك من المهام غير خواف ولا وجل لأننى ساكون معك . . . لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ولمساعدة خدمى » .

واستيقظ بطرس مستريحا الى الرؤية التى رآها وصار أكثر ميلا للطاعة ورأى - استجابة للانذار الربانى - أن لا يثريث أكثر من هذا ، فدب الشباط فى أوصاله وتاهب للرجوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب البطرِك (سيمون) يستأذنه فى العودة فنفحه ببركاته فانطلق شطر البحر حيث وجد سفينة تجارية على وشك الإبحار عن طريق أبوليا فاستقلها فبلغ « بارى » بعد رحلة موفقة ، وبينما كان على وشك المضى الى رومة اذا به يعلم بوجود البابا ايربان [الثانى] فى تلك النواحي فرفع اليه رسالة البطرِك ومسيحيي القدس ، ووصف له ما يعانونه من الأهوال والمتاعب على أيدي الطغاة الموجودين فى الأماكن الطاهرة ونقل اليه فى دقة وبراعة ما عهد اليه به .

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن شب صراع عنيف بين هنرى ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا جريجورى السابع سلف اربان الثانى ، وقد دار هذا الصراع حول الخاتم وعباءة الأساقفة الراحلين ، وكان العرف قد جرى - لا سيما فى الامبراطورية - على ارسال خاتم أسقف الكنيسة الراحل ومسوحه الكهنوتية الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بقليل بارسال واحد من بطائنه أو أحد قساوسته ويكل اليه مهام الرعوية فى ذلك المكان دون انتظار لقيام رجال الدين بانتخابه ، لكن البابا جريجورى السابع [شعر بأن هذا العمل يخالف كل نوااميس العدل لما فيه من هدر لحقوق الكنيسة ووطئها بالأقدام ، فقام من جانبه بنهى الامبراطور عن عجرفته الكريهة هذه ، تكرر منه مرارا هذا النهى بالكف عما يفعل فلما رأى أن لا جدوى من هذه التحذيرات الهادئة أصدر ضده قرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاجراء أشد الغضب ، وشرع فى اضطهاد الكنيسة فى روما فعمد الى تنصيب جيبييرت - رئيس أساقفة رافنا - مكان البابا المعظم جريجورى ، وكان جيبييرت هذا كبير الثراء واسع المعرفة مكنته ثروته الطائلة واعتماده على بطش الامبراطور من خلع جريجورى الموقر وتولى هو قسرا الأبرشية الرسولية ، وكم كان غبيا غاية الغباء تنقصه صحة التفكير حين اعتقد اعتقادا جازما بأنه هو البابا حقا لنعته زورا وبهتانا بهذا اللقب .



كان العالم الشقى الغارق فى الرذيلة يسير - كما قلنا قبل هذا - فى طريق خطر خاسر فلما شب هذا النزاع ازداد تردى العالم

فى هوة أشد عمقا لتخليه عن كل احترام واجب لله وللإنسان ،
وراح يجرى وراء كل ما دنسته الخطيئة ، ويباعد ما بينه وبين كل
ما ينطوى على الخير ، ففتحت السجون أبوابها للأساقفة ، وكان
إذا تجرأ أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تشبته
هذا زج به الامبراطور فى الحبس وصادر كل ما يملك ، كأنه مجرم
قتل نفسا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيوية
على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم
وتعيين سواهم فى أماكنهم هذه .

ففر جريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حيث لقي
اعظم الترحيب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبرت
جيسكارد الذى مد يده المساعدة الى البابا ونجاءه من الوقوع فى يد
الامبراطور حتى تمكن أخيرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه
أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا
فيكتور الذى لم تجاوز بابويته شهرين فقط ، فتلاه البابا ايربان
الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لجأ الى قلاع أتباعه النبلاء
المخلصين ليدرا عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل ،
لكنه لم يكن أبدا بمنجاة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصرا
فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء
الموقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بتنفيذ المهمة
التي ألقيت على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه
انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى جاء اليه من أجله متى لاحت له
الفرصة .

حينذاك اشتعلت جذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى
راح يذرع كافة أرجاء ايطاليا وعبر جبال الألب ولم يترك أميرا من

الأمراء الا زاره ، غير مدخر وسعا فى حثهم جميعا وتحذيرهم ولومهم ،
فنجحت تحذيراته - بفضل الرب - فى حمل بعضهم على المبادرة
الى الخروج لمساعدة اخوانهم الذين مستهم البلوى ونزل بهم الضر ،
رغبة منهم فى الا يدعوا الأماكن المقدسة - وهى البقاع التى تعطف
السيد فشرافها بحضوره وصنائها عن أن تدنس بالخبائث .

ولم يكتف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
تطلع الى أن تؤدى تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل
الطبقة الدنيا ، واشعال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبينما كان يشق طريقه فى بطاء بين الممالك والشعوب راح
- فى وفاء صادق لرسالته وفى نشوة روحية مقدسة - يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعوا الناس حتى تؤتى دعوته آكلها طيبة ،
وأصبح تبشيره هذا ضروريا أشد الضرورة للبابا الذى أجمع أمره
على أن يتبعه دون ابطاء الى ما وراء الجبال ، ذلك لان كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم
الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يجعله قادرا على
التأثير فيهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة
والأربعون من تتويج هنرى الرابع ملكا على الألمان ، وهنرى هذا
هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فيليب

الأول بن هنري الأول ملك الفرنجة العظيم ، ورأى البابا إيربان .
- وفنذاك - أن خبت بنى آدم قد جاوز كل مدى ، وأن كل
شيء يتدنى الى أسفل كما لو كان يتجه الى الشر ، ومن ثم عقد
مجمعا لكل إيطاليا في « بياشيزا » فكان هذا المجمع خطوة احتيج
اليها كل الاحتياج لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع غادر
البابا إيطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب
ودخل مملكة فرنسا حيث تسلم تاكيدا بينا عما سمعه حالا من
الأخبار تبين منه أنه لم يعد أحد ما في أية ناحية يكثر بالندر
العلوية ، الى جانب استخفاف الناس بتعاليم الأناجيل وتلاشي
الايمان ، وباتت كل نعمة وفضيلة مهددة بالخطر وفُغرت مملكة الشر
ودولة الظلام فاهما لتبتلع الجميع .

ونظرا لمكانة البابا إيربان الثاني فقد كان شديد المهفة لمعرفة
السبيل الذي يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحشة التي
كانت للأسف تزداد بشاعة حتى لتكاد أن تبتلع الدنيا بأجمعها .
لذلك عزم على الدعوة لمجمع عام عقد أولا في « فيزيلييه » ثم في
« بوى » ، حتى اذا حل شهر نوفمبر اجتمع باسم الرب في كايرونت
- احدي مدن « أوفيرن » - مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الأديرة
من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء جبال الألب ، تكاؤهم
الرعاية الالهية .

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات ذانها ،
كما تقررت فيه التنظيمات التي يمكن أن تؤدي الى التخلص من
الظروف غير الملائمة التي تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار بناء
على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسيم التي
كان يرجى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء
الجسيمة .

ولما كان بطرس الناسك يشعر بالمسئولية الكبيرة تجاه الرسالة التي حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عودة السلام الذي يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا .

وأخيرا ألقى ايربان عظته وهنى كما يلي :

- ١٥ -

« اعلموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن فاذى الجنس البشرى قد نزل فى تجاليد هيكل بشرى لخلاصنا جميعا ، وعاش بيننا كائنسان ، وكان مجيئه تمجيذا لأرض الميعاد التي وعد بهنسا من قبل ، والتي ذاعت شهرتها بأعمال الناموس وبالمعجزات المتكررة التي قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهدان : القديم والجديد فى كل ما نضمناه تقريبا ، وأن الواضح حقا أنه أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن تعطف على ذلك الجزء من الأرض - أو بلفظ أدق - على هذه البقعة الصغيرة فسمها بميراثه ، رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها » ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « ميراثى اسرائيل » والقائل أيضا (٣) « ان كرم رب الجنود هو بيت اسرائيل » .

(١) مزامير : ٢٤ : ١ ، ٤٩ : ١٢ .

(٢) اشعيا : ١٦ : ٢٥ .

(٣) اشعيا : ٥ : ٧ .

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه
إلا أنه انتقى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ،
وذلك بشهادة النبي القائل « الرب (١) أحب أبواب صهيون أكثر من
جميع مساكن يعقوب » ، وقد قيل في هذه المدينة أقوال كثيرة رائعة
فهناك أكد مخلصنا بتعاليمه وعذابه وقيامه من بين الموتى أن الخلاص
إنما يكون في أرضها ، لذا فقد اختيرت تلك المدينة منذ البدء لتكون
شاهدا على هذه الأمور ، ولتكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون
خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفى يا بنت اورشليم » هو ذا ملكك
يأتى إليك من أجل اورشليم المدينة التي اخترتها لنفسى لأضع
اسمى (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن
يوقعها مرة بعد أخرى في أيدي الشريرين ، ويجعلها نكابد فظاظتهم
فترة من الوقت ، إلا أنه لا ينبغي أن يذهب الظن بأحد إلى أنه تخلى
عنها ونبذها نبد النواة لأنه مكتوب (٣) « ان الذى يحبه الرب
يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له : (٤) « لذلك : : : أحل غضبى
بك فتصرف غيرتى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فإنه يحب
هذه المدينة حبا لا تنطفئ جذوته وأنه القائل (٥) « ستكوئنين اكليل

-
- (١) مزامير ، ٨٧ : ٢ .
 - (٢) ملوك أول : ١١ : ٣٦ .
 - (٣) عبرانيين ، ١٢ : ٦ .
 - (٤) حزقيال ، ١٦ : ٤٢ .
 - (٥) اشعيا ، ٦٢ : ٣ ، ٤ .

جمال يسد الرب ، وناجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك
مهجورة ولا يقل بعد لارضك موحشته بل تدعين حفصية وارضك
ترعى بعولة لان الرب يسر بك (١) .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومنبع الخلاص قد
تملكها الآن عنوة شعب غير مثاله ، هو ابن الجارية المصرية [هاجر]
الذى يفرض على أبناء المرأة الحرة [سارة] ظروفًا بالغة السوء حتى
قالت : « اطرده هذه الجارية وابنها » .

لقد ظل جنس الشرقيين (٢) البغيض عبر سنوات طوال مضت
يبسط سلطانه على الأراضى الطاهرة التى مشى عليها السيد بقدميه ،
ثم خضع المؤمنون للقهر ، وراحوا يتخبطون فى قيد الأسر ، قدخلت
الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب ،
واليوم ها هو ذا الشعب المختار يحتمل الأحوال التى لا يستحقها ،
وها هم رجال الدين مسترقون ، والكرامة ساقطة فى الوحل والطين ،
وأصبحت مدينة الرب - التى هى فوق كل مدينة - محكومة
لا حاكمة ، فمن ذا الذى لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه
حسرة حيث تخطر بباله هذه الإهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذى يستطيع سماع هذا كله
ولا تبكى مقلته ؟ »

« لقد غضب يسوع فطرد من هيكل الرب جميع من اتخذوه

(١) سفر التكوين ، ٢١ : ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح فى كتب
الغربيين فى العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفاً لكلمة «المسلمين» .

مكانا للبيع والشراء ، حتى لا يصير بيت أبيه - وهو بيت الصلاة -
مغارة للصوفس ومأوى للشياطين (١) .

« لقد كان هذا هو الذى اثار الحماسة الكريمة فى نفس
القديس ماتيوس - السلف العظيم للمكابين الطاهرين كما يشهد
بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شبه انسان
بلا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » .

« ان مدينة ملك الملوك التى نقلت الى الآخرين نواميس الايمان
السليم قد دانت رغم أنفها الى ترهات الخوارج ، كما ان كنيسة
القيامة المجيدة التى هى آخر مكان رقد فيه السيد تقاسى حكمهم
وتتلطخ بأوساخ اقوام لن يكون لهم حظ القيامة بل كتب عليهم ان
يظلوا فى الجحيم الى الأبد ، كأنهم هشيم النار لا ينطفئ لهيبها
أبدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواضع
التي عرفت السيد زائرا لها بشخصه ، وشاهدت آياته ، ونالتها
حسناته ، وتجسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق
قد غدت مداود للماشية وحظائر للبهم ، كما أن أحسن الناس الذين
باركهم رب الأرباب قد تعالى أنينهم من جراء عبء الخدمات المفروضة
عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا يُنقذون عليها الا الأحرار
النافه .

وان أبناء هذه المواضع - وهم أغلى مهر للكنيسة الأم - قد
ألقي القبض عليهم ، وسيقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج
الدينسين ، حتى ينكروا اسم الله الحي القيوم ، وتنطق شفاههم
الطاهرة بالتجديف فيه ، فاذا امتنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمة

(١) متى ، ٢١ : ١٢ - ١٣ .

ذبحوهم بالسيف ذبح الأضاحى فيدخلون فى عداد الشهداء الأبرار .

« ان الذين انتهكوا حرمة المقدسات الدينية لا يفيمون حرمة
للمكان ولا للناس ، ولا يتورعون عن قتل القسس واللاويين ،
ويرغمون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من
نصيبهن ولم يشفع عندهم للعجائز شيخوختهن .

« الا فالويل لنا نحن الذين نعيش فى تعاسة الزمن الخطير الذى
تنبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اذ قال (١)
« يارب ، ان الأمم قد دخلوا ميراثك ونجسوا هيكل قدسك » ،
وقوله (٢) : « الخطاة يسحقون شعبك يا رب ويدلونه ، حتى متى
الطغاة يا ربى يشمتون ؟ متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد
كالنار غيرتك ؟ » . . . « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود
للرضا » . . . « حتى متى يا رب تختبئ كل الاختباء » « أذكر يا رب
ماذا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » . . . الويل لى حين ولدت
لأرى هذا البؤس المحيق بشعبى وبالبلد المقدس وأن يسلم الى أيدي
الأغراب . (٣)

« أنت هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس القائمين علينا » (٤) ،
تحييب « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سيفا » (٥) .
تسلحوا أنفسكم أيها الأحباب بحماسة السيد فبه ننطح مضايقيننا ،

(١) مزامير ، ٧٩ : ١ .

(٢) مزامير ، ٩٤ : ٥ .

(٣) راجع المكابيين ، ٢ : ٧ .

(٤) مزامير ، ٤٤ : ٤ .

(٥) متى . ١٠ : ٣٤ .

واذا أحس أحدكم بالحماية لشريعة الرب فليتنضم اليها ، وهيا بنا نمضى لنحطم القيود التى تكبلنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح نفسه يشهد أيضا لأرواجنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فاننا ورثة أيضا ووارثون مع المسيح » (١) وأذهبوا وليكن الرب معكم ، ووجهوا السلاح الذى شحذتموه لقتل بعضكم البعض الى صدور أعداء الملة وخصوم المسيح .

« ان مملكة الرب لن تكون لمن أجرموا فسرَقوا ، ومن اتهموا باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا الناس وسفكوا الدماء ولا لأصحاب الجرائم الأخرى المشابهة لهذه فى طبيعتها .

فأطيعوا الرب الطاعة التى يرضاها ، عسى أن تنزل عليكم رحمته سريعا وتكون لكم شفاعاة القديسين فيغفر لكم ما اقترفتكم من خطايا أثرت بها حنق الرب عليكم فاستشاط غضبا .

« وعلى ذلك فنحن محذروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس وما حولهم فى مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم فى ارث ملكوت السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل غضبة دينية وقاحة الكفار الذين يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن تحاربوا ما وسعكم الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على ازالة الاسم المسيحى ، فان لم تفعلوا ذلك فان كنيسة الرب التى لم ترتكب اثما سوف تفقد الايمان سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعينى رأسه هذه الأمور التى نتكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأحوال التى يحياها أولئك الأشقاء ، وان رسالتهم التى أحضرها بيده ذلك الرجل الموقر « بطرس » الموجود معنا الآن لتحمل نفس الأمر .

(١) رومية ، ٨ : ١٧ .

« ومن ثم فثقة منا برحمة الرب ، وبقدرة الحوارين الطوبانيين :
بطرس وبولس لنغفر خطايا المسيحيين الصادقين الذين يحملون
السلاح لقتال الكفار ، ويتحملون مشقة رحلة الحج هذه ، ونضع
عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، وليثق الزاهبون الى
هناك بنية صادقة وبثقة تامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على
النعمة الأبدية .

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حماية الكنيسة ورعاية
المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق
لتحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرجهم في عداد أبنائنا المطيعين
المخلصين » ونرسم بأن يطمئنوا ، والا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم
وذويهم ، فان اجتراً أحداً ما - أثناء هذا الحج - على أن يسبب لهم
ضيقاً أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل قراراً مضابطاً
عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحتى يقدم التعويض الملائم
عن الأشياء المفقودة ، كما أن الأساقفة والقساوسة الذين لا يقفون
موقفاً صلباً ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة
مهام ووظائفهم حتى يتوبوا ، لينالوا رحمة الكنيسة الرسولية ، هكذا
ختم [البابا ايربان الثاني] موعظته ، وأمر جميع الحاضرين اذ ذاك
من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم ليكرسوا أنفسهم لما
سبعوه ، وليسعوا سعياً جثيثاً لحث أتباعهم على النهوض الى الحج .

ولما فرغ [ايربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وأبفض
إلى المجمع الذي راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنه ،
وأنصرفوا منصاعين في صدق وإخلاص لتنفيذ قرارات المؤتمر . (١)
وحث الناس جميعاً على التواصي بحفظ السلام الذي اتلف الناس
على تسميته « بسلام الرب » ، وصدر الأمر بعدم اعاقاة من عزموا

(١) أي مؤتمر كليرمونت .

على الرحلة ، وآلا تقم في وجههم العراقيل أثناء اتخذهم الاجراءات
اللازمة للسفر .

- ١٦ -

وزيادة على ذلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التي اداها بطرس
للدن ، فان الله أنعم عليه - وهو الخادم المطيع المبشر ، ذو الهمة
العالية الرائعة - بالبلاغة والفصاحة ، ووهبه القبول الحسن في عيون
الجميع حتى ان كلماته كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اذ تلقاها
القوم - صغيرهم وكبيرهم - بالرضا والامتنان ، غير عابئين بما ينطوي
عليه تنفيذها من مشقة .

ولم تكن الحماسة الدينية لهذا الحج قاصرة على من استمعوا
اليه شخصيا ، بل تجاوزتهم خطبته - حين ذاعت طولا وعرضا -
الى من لم يكونوا حاضريها ، فبثت فيهم رغبة عارمة للقيام بنفس
الرحلة ، كما صدع الاساقفة بما أمروا به ، مظهرين التعاون الكريم
فدفعوا أتباعهم للسفر للحج ، ودأبوا على التنقل في ربوع أسقفياتهم
يبدرون بذور الحياة بين الناس ، وما كان لحبة منها أن تموت اذ كانت
لا تقع الا وتؤتى أكلها طيبة مباركة ، ومن الحق أن تقول أنه تحققت
كلمة السيد (١) اذ يقول « ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » ، فقد
انفصل الزوج عن زوجته والمرأة عن بعلاها ، أوفارق الآباء أبنائهم
والأبناء آباءهم ، ولم يستطع أى رباط محبة أن يحول دون هذه
الحماسة ، كما غادر كثير من الرهبان أديرتهم ، وفعل التناك

(١) متى ، ١٠ : ٣٤ .

فعلهم فتركوا صوامعهم التي اتخذوها طواعية ملجأ يقيم فيه كل واحد منهم على انفراد « حبا في الله » .

لكن الرب لم يكن مع الجميع في عملهم هذا ، اذ لم تكن الحصافة - وهي ام الفضائل كلها - محركهم الحقيقي ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفترقوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يتهموا بالتراخي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع تافهة ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنيهم الذين أثقلوهم بالديون الفادحة ، وهكذا كانت هناك أسباب مختلفة أسرع بالجميع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك في بلاد الغرب أى اعتراف بالسن أو الجنس أو الوضع أو الظروف . كما لم يستطع أحد منع أحد من القيام بالرحلة مهما زوق له الكلام ، بل اتحد البعض بالبعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم اليمين بقلوبهم وأرواحهم ، وبدأ الانجاز الحرفي لما جاء في الكتاب (١) من انه « سنستأتي أمم كثيرة من بعيد تمتدح اورشليم وتسجد لها ، ويحملون الهدايا في أيديهم » .

لقد تلقى الكثيرون ممن حضروا مؤتمر « كليرمونت » هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر الذيل العاطر الذكر ، والذي صار بعدئذ النائب للبابا ، فسار بشعب الرب في حملته هذه سيرة ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بينهم أيضا « وليم أسقف أورنج » الصادق الايمان والذي يخاف الله .

(١) طوييا ، ١٣ : ١١ - ١٥ .

ودبت (١) نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يشجع صاحبه ويستعدون للسفر الذي حددوا يوما معيناً له يكون بعد اتمام جميع ما يلزم من الاستعدادات وبعد أن يتجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الإلهية هي التي رتبت الحملة التي نتكلم عنها ، وكأن الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميراً ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى يتوافد الناس عليه زمراً اثر زمر ، يتوسلون اليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعته ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويقطعون العهد على أنفسهم بالطاعة والاخلاص له ، ولما كان المثل (٢) يقول عار على أن أتخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آخر واحد فيهم ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكريساً الهيا لان نار التطهير هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وجب آثامه التي كانت - وا أسفاه - كثيرة جداً ، كما كان الانصراف لتدبير السفر مفيداً في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السير مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعاً على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على اكتافهم

(١) جاء في الترجمة الانجليزية التي اعتمدناها ، وبناء على ما ذكره : Man i Sacrorum conciliarum nova et impressissima collectio, vol. xx, col. 923.

أن كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المترجمان الأمريكيان هذا المثل الى هوراس Horace : Ars Poet. 417.

ذكرى الذى عزموا على زيارة الناحية التى شهدت آلامه ، وكانوا
فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصنا ،
لأنه : « يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه » (١) .
ويبدو كأن الآية التالية من سفر اشعيا تشير الى هذه الحركة
حيث يقول ان السيد (٢) سوف يرفع راية للأمم ويجمع منفيى
اسرائيل .

وظهر أيضا تمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣) :
« ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى » .

- ١٧ -

عمد الأمراء التالية أسماؤهم من كلتا المملكتين الى تقوية
عزائمهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شقيق فيليب الأول ملك
الفرنجة ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نرماندى ابن
وليم الأول ملك الانجليز ، وستيفن كونت شارترز وبلواوالد كونت
تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوزي ، ووليم أسقف أورنج ،
وريموند كونت نولوز وسنتل جيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال
العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق
اللورين ، ورجل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٩ : ٦ .

(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .

(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب ببورج وهو قريب الاخوة الثلاثة وابن لورد هييج كونت ريتيل ، وجانييه دى جراى ، وبلدوين كونت هينولت ، وايزور كونت دى ، ورينولد كونت اورنج ، ووليم كونت فوريز ، وكونت ستيفن دوما ، وروترو كونت بيرش ، وهييج كونت سنت بول .

وممن صحبهم من عليّة القوم وان لم يكونوا من فئة الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء أنفسهم وهم :

هنرى ديش ، ورالف بوجنسى ، وايفرارد دى بويسيه ، وجاستون دى ييارف ، ووليم امانجو ، وجاستون دى بيزيه ، ووليم دى مونبلييه ، وجيرارد دى روسيلون ، وجيرارد دى شيريزى ، وروجر دى يارتفيل ، وجى دى بوسسا ، وجى دى جارلاند سنكال ملك الفرنجة ، وتوماس دى لافير ، وجالن دى كالفومونت .

كما سار بطرس الناسك بطائفة كثيفة من الناس جمعهم بمشقة كبيرة من مملكة [فرنسا] وامبراطورية [ألمانيا] . وجاء من الجانب الآخر من جبال الالب بوهيموند أمير تارنتو ابن روبرت جيسكارد دوق ابوليا ، وابن اخته تانكريد ، وكثيرون غيرهم لا تعي ذاكرتنا اسماءهم ولا نحصيهم عدا .

وظل جميع هؤلاء - مع قوات ضخمة من اهل القتال فى انتظار الساعة الملائمة للانضمام للكثائب الحربية المسيحية ، وهم على اتم اهبة لبقل ارواحهم لتحمل أهوال حيج عظيم كهذا النجج مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشتاء ينصرم وتبدأ تباشير الربيع فى الظهور وتنكسر شدة البرد ويعود الجو اللطيف يغمر الدنيا حتى هبتوا

جياذهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا متاعهم ، كما ظل من أزمعوا الخروج معا على اتصال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دقيقا فيما بينهم والساعة التي رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، واتفقوا أين يكون ملتقاهم ، واستعرضوا المسالك فاختراروا أيسرها عليهم وأسرعها في إبلاغهم غايتهم . واذ لم يكن في قدرة أي اقليم أن يتفرد وحده بتوفير المئونة لهذه الآلاف المؤلفة من الناس فقد رتبوا ترتيبا دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمن يتبعه من القوات ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواء ، واتفقوا على ألا تلتقى هذه الجيوش الا في مدينة « نيقية » .

لهذا - كما سنشرح فيما بعد - سار الدوق [جودفردى] بكتائبه من طريق المجر ، واتخذ كونت تولوز وأسقف بوى طريقهما عبر « دلماشيا » أما الزعماء الآخرون فاخترقوا « أبوليا » وبذلك وصلوا في النهاية الى القسطنطينية ، وان لم يكن بلوغهم جميعا في وقت واحد بل في أوقات مختلفة . وأعدوا في الوقت ذاته العتاد الذي رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم يقدر المال الذى تتطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله وليس بيد البشر لأن الإنسان فى ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد .

لم تكن ثم دار واحدة من دور جميع ولايات الغرب ساكنة هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته فى ترتيب ما يهمه من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدير شئون أسرته ، وهناك الابن وثم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر .

وجاءت رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحيل فى وقت واحد ، يشجع كل منهم الآخر ويحذره التأخر فى الخروج ، وينصحه بالتفكير فيه ، ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المختلفة في دعوة البقية فقد انتزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم وسط العويل والزفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر وتبادلوا القبلات فيما بينهم ، ثم دخلوا ، وكان خروجهم في جو من الانتحاب والولولة ، فترى الأمهات يصحبن الأبناء وترى البنات يودعن الأبناء والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات أطفالهن الرضع على أذرعهن .

فلما فرغن من الوداع الأخير رحن يتابعن بنظرات حادة من لا يستطعن مصاحبتهم أبعد من ذلك :

- ١٨ -

كان وولتر. المفلس الشريف النبعة والمجارب الكمي أول من نهض للحج حيث بدأ رحلته في اليوم الثامن من شهر مارس عام ١٠٩٦ من مولد المسيح ، واستصحب معه طائفة كبيرة من الجنود المشاة ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيدوا عن شذمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة التيوتون دخلوا بلاد مملكة المجر التي كان الوصول إليها أمرا عسيرا لكثرة المستنقعات التي تغطي معظم نواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم يكن في استطاعة المسافر الوصول إلى المملكة أو الخروج منها إلا من أماكن معينة شديدة الضيق .

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك تمسكا بالمسيحية ، إلا وهو الملك « كولمان » الذي ما كاد يعمم باقتراب « وولتر » وكان يعرف خبر رحلته ويستصوب هدفه الكريم حتى رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوق عامه ، فسار « وولتر » فى بلاده آمنا ، وبلغ نهر « ماروبس » سالما ، وهو الحد الفاصل المعترف به بين المجر والشرق ، ثم عبر النهر ووصل بقواته الى أرض البلغار فى مكان يعرف « ببلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولتر] أن طائفة من جماعته قد تخلقت وراءه على الجانب الآخر من النهر فى موضع يعرف باسم « سملين » لشراء الطعام وما لا غنى عنه فى الرحلة ، فأمسك المجريون بهؤلاء الرجال وجردوهم مما عليهم من الثياب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم جاوى الوفاض ، فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا للمحنة الطامة التى حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أيقنوا تمام اليقين أنه من الصعب عليهم — بل من المستحيل — أن يعودوا فيعبرون النهر أخذا بالثأر لما فى ذلك من تأجيل مسيرتهم ، فأولوا — فى ظروفيهم الراهنة هذه — أن التغاضى عن المصرة التى أصابتهم أجدى عليهم من المبادرة الى القيام بعمل طائش لا يستطيعون انجازه فيصيحوا على ما فعلوا نادمين . واذ كان أهلهم فى الله الذى نهضوا من أجله عظيما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمانا منهم بأنه ما من مصيبة يلقاها جند المسيح الا والرّب غير مهملا بل معاقب عليها بمثلها لأنه وعد أتباعه بذلك اذ قال (١) : « تكونون مغفوضين من الجميع من أجل اسمى ، ولكن شعرة من رؤوسكم لا تهلك ، وبصبركم افتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطيتهم ، ومضوا فى طريقهم حتى جاءوا — كما قلنا — الى « بلجراد » فوجدوا « وولتر » قد سأل الدوق حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق يتبايعون فيه ، ولكنه رفض رجاءه ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح جماح جيشه الجائم فقد فقد الكثير

(١) لوقا ٢١ : ١٨ - ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكريه لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شىء من البلغار انطلقوا للبحث عن الطعام ولم يتخرجوا عن أية وسيلة للتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بنابه ، فقدّر لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وساقوها الى المعسكر ، فلم يكده أصحاب القطعان يعلمون بما جرى لها من نهب حتى هبوا الى أسلحتهم وكرّوا على [اللاتين] كرة ضارية مجمعين العزم على استرجاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعة قوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها فى فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعتصموا بها الا قلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا غنيذا لا يعرف النظام ولا يكثرث بما يفعل فقد انفصل عن اتباعوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح جماحهم ، وسلك ببقية عسكريه مسلكا فيه الحكمة والحرص ، فاجتاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « ستراليكيا » (١) وهى مدينة جميلة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه النكبة التى حاقت ظلما بشعب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعرضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عليه ، لانه كان رجلا مستقيما يخاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجيش أن يشتري منه ما يحتاجه بثمن معقول ، وكيل لا تطفيف فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما تفرضه نوااميس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقية الطريق حتى يبلغوا المدينة

(١) رجعت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ان تكون هذه المدينة هى

« صوفيا » فى الوقت الحالى .

الامبراطورية ، ولما وصل « وولتر » الى القسطنطينية جيء به الى
حضرة الامبراطور ، ونجح في الحصول من جلالته على اذن يسمح
له بانزال جيشه قرب البلد وب عقد سوق للتجارة ، على أن يكون
ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الناسك] الذي كان قد اذن
للولتر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت تنقضي فترة وجيزة بعد الأحداث التي ذكرناها حتى
زحف بطرس عبر « لوثاريجيا » و « فرانكونيا » و « بافاريا »
والاقليم المسمى بالنمسا ، وكان تحت امرته حشد ضخم يكاد يقرب
من أربعين ألفا جعل منهم جيشا على اختلاف أممهم وقبائلهم والسنتهم
وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى
ملكها ، فجاءه الاذن في يسر بالدخول ، على أن يسير في المملكة في
هدوء ، غير يحدث ازعاجا ولا مسبب شغبا فاستجاب بطرس لما
اشترطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة
بعسكره ، وأمدته أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمر
معقول ووفق شروط طيبة ، فتقدم العسكر في هدوء الى المدينة
« سملين » التي أشرنا اليها ، حيث جاءهم نيا ما حاق برفاقهم الذين
سبقوهم بقيادة « وولتر » وما عوملوا به من معاملة دنيئة على أيدي
أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان فعلقا على أسوار المدينة من
أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك
كل الغضب وحينذاك أنتصوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى
غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا في النهر القريب
منها ، ويقال انه هلك في هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك عقابا يكافى جرمهم ، وتقول الأخبار أن « بطرس » فقد فى هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سويا بسبب ما وجدوه بها من وافر الطعام .



كان دوق البلغار المدعو « نيكيتاس » هو المسئول عن رفض السماح لولتر وجيشه بعقد السوق ، فلما تراسى الى سمعه خبر انتقام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة التى كان قد صادفها جيش ولتر تسرب الخوف الى نفسه من أن ينزل به هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن بريئا من هذا الموضوع ، ولما كان « نيكيتاس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينته بلغراد التى يحكمها فقد غادرها ، وغادروها فى اثره سكانها جميعا مستصحبين معهم مواشيهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فزارا الى ما بها من المخابى والأماكن السرية .

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينة المغلوبة على أمرها جاءته الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نيا المذبحة التى جرت على شعبه - استندعى اليه قواته الحربية من شتى أرجاء تلك الناحية واستعد استعدادا جبارا للثأر لهذه الدماء المهرقة ، فبادر بطرس فى لمحظته الى الاستيلاء على جميع السفن الراسية على طول النهر ، وأمر جيشه بركوبها والعبور بها على وجه السرعة ، فاستجابوا له وأخذوا معهم ما وجدوه بالمدينة المنهوبة من ماشية ودواب ، وحازوا ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بين أيديهم من ذلك كثرة فوق الوصف ، ولما تم نقل كل شىء الى الشاطئ الآخر ضربوا معسكرهم أمام بلجراد التى وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك بمن معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثيفة بالغة الاتساع ، خرج

منها الى « نيش » ، وسار من خلفه كل الجيش بها معه من عربات
ومركبات وقطعان الماشية والدواب .

ومدينة « نيش » هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها
التي تحميها قوة كبيرة من الشجعان والأبطال ، فعبر جيش [بطرس]
النهر الذي يجرى الى جوار المدينة من جسر صخري ، وضرب معسكره
على مقربة منه .

كانت المثونة التي معهم فى الزحف قد أخذت فى النفاذ ،
وأصبح العسكر يواجه نقصا بينا فى الطعام ، ومن ثم بعثوا برسالة
الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رقيقة أن يأذن لهم باقامة
سوق بشروط كريمة وأسعار معتدلة ، وتكون السوق حافلة
بمتطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين
خرجوا امثالاً للأوامر الالهية ، فأجابهم الوالى بأنه غير مستطيع
الاذن لهم بذلك الا اذا بعثوا اليه أولا برهائن من رجالهم تأكيداً
لعدم قيامهم باحداث أى اذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من
أعمال العنف يصيبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارتضى الطرفان
هذا الشرط ، وأرسل [اللاتين] اليه الرهائن ، واذ ذاك مضى
المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم .

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيش ، وجرى التعامل
بين الجانبين بيعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، وانصرم الليل
فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى
مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيش يتأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل - أو بلفظ أدق - بينما كان الجانب الأكبر - ان لم يكن الجيش كله قد أخذ في الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طعام الناس ودعاة الفوضى ممن يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثتهم نفوسهم بأحداث شغب تافه في الليلة السابقة أثناء شائهم بعض ما يلزمهم من رجل بلغاري ، فانسحبوا قليلا من الصفوف التي كانت قد رحلت وأضرموا النار في سبع طواحين كانت موجودة قرب الجسر وفوق النهر المذكور ، فأتت النار عليها كلها حتى صارت رمادا .

كان أبناء الملعون هؤلاء - وعددهم قرابة مائة شيخص - من شعب التيوتون الذين لم يكف العمل الشرير الذي ارتكبه في اطفاء غضبهم المجنون ، بل زادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معينة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هي الأخرى ، ونفوسهم ملأت بنفس الضغينة ، فلما فرغوا من جريمتهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقية الجيش البريء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير شاعرين بما ارتكبه من الأثم .

كان حاكم المدينة قد تلقاهم في الليلة السالفة لقاء بالظلم اللطف ، فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لتدبير خطة يعاقبهم بها بدلا من متابعة الاحسان اليهم ، وترمى هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عددهم جميعا لصوصا مخربين ، وأخذ الجيش كله بجريمة شرذمة قليلين ، ومن ثم استدعى اليه الأهالي وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يتأخر هو ذاته عن قيادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يشجعهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبيين كما لو كانوا ماضين للثأر من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رجلا واحدا ، قد توحدت مشاعرهم ، وتقدموا مهاجمين القوات التي كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها ، ثم جاءوا الى أولئك التعساء الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجيش الأصلي فهاجموهم بشدة ، وجرعوهم كئوس الموت دهاقا ، كما أوقعوا نفس العقاب ، ان قصدا أو عفوا - بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجريرة المذنب ، واستولوا على العربات والمركبات المحملة بشتى أنواع المثونة ، وقيدوا الشيوخ والعجزة والنساء والصبيان والبنات الذين لم يستطيعوا اللحاق ببقية القوم ، وساروا بهم ، فشفى غليلهم ما سفك في المذبحة من دماء القتلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالغنائم .

- ٢١ -

راح بطرس فى هذه الأثناء يتقدم بطليعة عسكره وكبار رجال الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصابت رفاقهم حتى طالعههم فجأة رسول يخب به جواده على عجل ، حاملا اليهم نبأ الفاجعة ، وأسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يضافح أذننى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافوه ، واستجاب لنصيحة أهل التجربة منهم ، فكروا راجعين عبر الطريق الذى تقدموا منه طوال اليوم كله ، فلما طالعتهم جثث اخوانهم الصرعى - وكانت برهانا على المذبحة - لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعيول ، ثم وقفوا أخيرا للمرة الثانية أمام المدينة فى البقعة التى كانوا معسكرين فيها الليلة البارحة .

لم يكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن من غيرهم فى سيطرتهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وغرض واحد بالنسبة لهذه المسألة ... لقد عادوا ليكتشفوا

سبب الفاجعة ، وليحاولوا ازالة دواعي النزاع حتى يتمكنوا من متابعة رحلة حجهم فى امان أكثر ، وذلك حين يستتب السلام استتباً تاماً ويعود على أكمل وجه بين الشعبين ، ونصفو النفوس من كل شائبة ، فأرسلوا الى حاكم المدينة والى شيوخها من أجل هذه الرغبة رجالاً أهل فطنة وإدراك للمسئولية ، وعهدوا اليهم أن يتقصوا الحقائق والظروف التى أفضت الى ذلك الشغب الفجائى ، واهراق كثير من الدماء البريئة .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا الشقاق] تبين لهم أن الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافاً بلا مبرر يدعوهم للغضب، ولما لم يكن الوقت ملائماً للمطالبة بالثأر جزاء ما ارتكبوا من الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاولة إعادة السلام الى مجراه ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والمتاع .

وبينما كانوا يسعون سعياً حثيثاً للوصول الى هذه الخاتمة والى اتفاق يرضى الطرفين ، اذا بهم يسمعون ضجة هوجاء فى المعسكر سببتها العواطف المتأججة الثائرة ، وأذكأها تهور بعض الأشخاص الذين لا يكثرثون بشئ ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس فى تهدئة ثائرتهم وإزالة ما قد يؤدى الى مذبة أخرى ، فاختار رهطاً من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم - وهم فى سورة غضبهم الجنونى - من مهاجمة الأهالى ، فما أجدت هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن يستمعوا الى تحذيره المجدى ، واذا ذاك أصدر أوامر صريحة الى الجيش عن طريق المتأدين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التى فى عنقه له ، فلا يحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعصده الذين

يريدون التجرف بسلوهم الطائش على شجب السلام الذي عاد
يرفرف الآن من جديد عليهم .

واستجاب الجيش لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الخضوع
له ، واذ ذاك ركن الجميع الى الهدوء انتظارا لانتهاء الثورة الأولى
ومعرفة نتائج الأمر كله .

أما الرسل الذين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاتفاق فقد
رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالي لم يمكن تهدئة ثائرتهم ، بل ان
غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا ألا أمل
في نجاح مهمتهم التي جاءوا من أجلها نبذوا هذه المحاولة وراء
ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعدة رجل الرب بطرس في اخماد
ثائرة الفتنة ، لكن هذا كان ضربا من المستحيل ، فقد اندفع قراية
ألف من الناس في هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا في عددهم هذا
يمثلون عدد من هب من أهل البلد ، وتمخض الأمر عن معركة
شرسة جرت أمام المدينة .

ورأى من بداخل المدينة أن الشقاق قد بين من هم خارجها ،
واذ كانت الفتنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره
الصريح ، فقد راودهم الأمل في وقوف بقية الجيش بمعزل عنه
لا تمد له يد المساعدة ، واذ ذاك فتحوا مزاليج الأبواب ، واندفعت
جموعهم هادرة ففتكت بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذين
على الجسر ، والذين كانت بقيتهم كلها لا تعرف مواضع المخاضات ،
ولا تدري شيئا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى
العسكر هذا المنظر هبوا سراعا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين
على تحمل الأهوال التي انصبت على رفاقهم ، والتقى الجمعيان
المتعاديان وجها لوجه في معركة وحشية أسفرت عن مذبحه مروعة ،

فكان الخطب في هذه المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العامة ولا الرعايا غير النظاميين أن يصمدوا . أمام ضغط البلغار عليهم . فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فتأثر بهذا الهرب الجنود الآخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقتفوا أثرهم وفعلوا فعلهم .

على هذه الصورة هرب الجيش كله .

فلما تصدعت الصفوف وانقرط عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما يحاول المقاومة ، وفي وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان الأمراء المخلصون قد أهدهوا إياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان عنده من مال كان قد اعتزم بذله في سد حاجات الفقراء وأهل الفاقة في أثناء الطريق ، وذلك بسبب استيلاء العدو على العربة التي كانت تحمل هذه الثروة ، قضاع كل شيء بضياعها .

أما البلغار فقد جدوا في أثرهم يقصونهم والغضب يملأ جوانحهم ، فقارب من قتلوهم منهم عشرة آلاف مسيحي ، واستولوا على العربات ، ونهبوا ما عندهم من المتاع ، وسبوا كثيرا من النساء ، واسترقوا العديد من الأطفال .

فأما الذين سلموا من الوقوع في أيديهم فقد التمسوا النجاة في الفرار إلى أعماق الأدغال التي لا يمكن الوصول إليها ، وكان من أصعب الأمور استدعائهم للرجوع في اليوم الثالث ، إذ أخذوا يدقون لهم الطبول ، وينفخون الأبواق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن نجا منهم ، وارتدوا جميعا إلى تل صغير يرتفع بعض الشيء عن السهل .

ولما كان اليوم الرابع وقد تجمعت القوات المشردة ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التي ظلوا متوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيش الذي عاد بعضه الى بعض يقرب من ثلاثين ألفا تهيئوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائش الذي أدى الى ضياع ما يقرب من ألفى عربة نقل ومركبة حمولة من أيديهم ، الا أنهم استشنعوا العار ان لم ينجزوا حجبهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بينما كانوا يهتمون بالسير رغم حاجتهم الملحة الى المثونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخطبهم الرسول علانية بقوله :

« ايها السادة النبلاء العظام : لقد وصيت الى سمع الامبراطور شائعة تتضمن رميكم بتهمة شنيعة ذات طبيعة نكراء ، وتقول انكم سرتُم سيرة خرقاء في امبراطوريته ، وانكم ارتكبتم امرا اذا في حق سكان البلاد وحق رعاياه ، واثرتم القلاقل والاضطرابات ، فاذا طمعتم في أى وقت في نوال عطفه ، وأن تقعوا عند جلالته موقع الرضا فاننا ننهاكم - بأمره - ألا تفكروا في البقاء بأى مدينة من مدنه أمداً يجاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تشدوا رحالكم سريعا الى القسطنطينية في انضباط ونظام تامين ، وسندل الجيش على الطريق ، ونعينكم بما تحتاجونه من الطعام بثمن مقبول » .

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعتهم حاجتهم للطعام الى التشرد ، كما أن رافة الامبراطور أنعشت الآمال في نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطوري بعض الظروف التي أدت الى الاضطراب الأخير مدافعين عن أنفسهم ، ومبرئين عنده ساحتهم ،

وتحدثوا عن تذرعهم بالصبر فى احتمال البلى التى أنزلها البلغار
بهم ظلما وعدوانا ، فلما فرغوا من كل ذلك ساروا - كما وجههم -
راشدين حتى بلغوا القسطنطينية بعد رحلة شاقة ، فلما بلغوها
وجدوا بها « وولتر المفلس » وقواته التى كانت معه فى انتظار
قدومهم ، فانضم الميسكران بعضهما الى بعض ، وتخيما فى الموضع
الذى خصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى ،
فدخل المدينة ووقف فى الحضرة الملوكية التى سألته عن مقاصده
من وراء هذه الحركة الكبيرة ودوافعه اليها ، فاستهبط بطرس فى
شرح الأمر اسهابا دل على ما هو عليه من فصاحة اللسان وقوة
الجنان ، وأخبره أن أكبر أمراء الغرب قادمون فى أثره ، وهم رجال
مخلصون فى خدمة الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، وامتلاكا لخاصية البلاغة ،
مما حمل كبار رجال القصر على الإعجاب بفطنته وشجاعته ، بل أن
الامبراطور ذاته مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد
هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى
جنده الذين معه .



كان الجيش قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أتيح لرجاله
خلالها أن ينعموا بالراحة وبما طاب لهم من المأكول ، ثم صدر الأمر
الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى « بيشينيا »
وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، ويحدها نفس البحر الذى بلغوا
مكانا يقع عليه اسمه « سيفيتوت » فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

كانت البقعة التي عسكر فيها الجيش تقع على تخوم بلاد العدو ، فظلوا مقيمين بها أمدا قارب الشهرين إقامة طيبة ناعمة ، توفرت لهم بها شتى صنوف المثونة ، كما أنه في خلال هذه الفترة كانت هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما أتيحت لهم فرصة من الاستحمام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه ، غير أن هذه النعمة العظيمة من الطعام والفراغ الكبير حولت هؤلاء التعساء والجفاة إلى قوم استبد بهم الطيش ودفعتهم إلى الهينة التي يتقلبون في مطارفها إلى الصلف ، فكونوا من بينهم جماعات لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون في البلاد - على غير رضى من رؤسائهم - لمسافة بلغت عشرة أميال أو أكثر ، فسياقوا منها قطعان الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الإمبراطور يحذروهم بغية ما يقتزفون ، وينهاهم عن التجرد على الابتعاد أو استقراؤ العدو ، ويأمرهم بالبقاء في الموضع الذي خصص لهم ، وأن ينهجوا النهج القويم إلى حين وصول قوادهم الذين قيل إنهم قادمون وراءهم .

وخاف بطرس على من وكلت إليه رعايتهم فذهب إلى المدينة الإمبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يشترونه ، وعلى ظروف أحسن في المتاجرة ، فاعتنم العسكر المشاكس الذي لم يالف النظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة وعناء حين قامت طائفة منهم ، قوامها سبعة آلاف جندي من المشاة الذين يماثلون من ذكرنا في غيهم ، وانفصلوا عن الجيش الأصلي ، وضموا إليهم ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نيقية من غير اكتراث ياعرراض رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للخرب ،

واندفعوا فساقوا من ضواحي المدينة عددا كبيرا من القطعان
والأغنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر .



ورأى جماعة من التيوتون وغيرهم ممن يتكلمون لغتهم ما صادفه
اللاتين من النجاح فى غزوتهم هذه ، فتملكتهم هم أيضا الرغبة فى
مجازاتهم فى السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بمثل
هذه المحاولة ، مؤمنين أن يحوزوا من الفخر لأنفسهم مثل الذى حازه
هؤلاء ، وأن يرفهوا عن ذواتهم فجمعوا من هذه الأمة [التيوتونية]
ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتى فارس ، وزحفوا بهم على
نيقية .

وكان فى ذلك الاقليم - وعلى بعد أربعة أميال من نيقية -
نفسها - مدينة حصينة تقع على سطح أحد التلال ، قدنا منها هؤلاء
التيوتون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحرقوا بها من شتى النواحي ،
واستولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله فى مقاومتهم ،
لكنهم فتكوا بهم وملكوا كل شئ فى البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية
وغناها فحصنوها تحصينا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك
حتى يصل القواد .

- ٢٤ -

كان [قليج أرسلان بن] سليمان [بن قطامش] صاحب هذه
الأرض وحاكمها قد علم قبيل ذلك بأمد طويل بقدوم الزعماء
الصلبيين ، ومن ثم جشد جيشا كثيفا من الشجعان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي الشرق ، بأذلا في سبيل ذلك كل وسائل
الاغراء والمال . وعاد بهم الى هذه الجهات ليمد يد المساعدة المنشودة
الى أهالي الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن
التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على إحدى قلاعهم ، باذروا
الزحف عليهم ، وحاصروا القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف في
رقاب كل من وجده فيها .

ووصلت أنباء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبي] ، وسرعان
ما تردد الصدى بأن طائفة التيوتون الذين غادروا المعسكر منذ
قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد قلج أرسلان ، فاستبد الذعر
بنفوس القوم من هذا النبأ ، ولم يستطيعوا أن يكتموا ما اعتملت به
صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والأتين ، حتى إذا
أصبحت الحقيقة في النهاية معروفة لا خفاء فيها عم الاضطراب جميع
الناس في المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلج الحاحا شديدا
ألا يسكتوا عن هذه النكبة التي نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن يهب
الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثارا لدم رفاقهم المقتولين ،
وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة في مثل هذه الأمور راغبين
في اطاعة أوامر الأمبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع
وكبح جماح العامة الطائشة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ،
ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « جودفروي » ويلقب « ببوريل »
وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصابة ، وراحوا يصبون اللعنات
على رموس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم إتاحة الفرصة
لانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم إنما يرجع الى الجبن ، أكثر
من أن يكون صادرا عن تفكير سليم .

كانت الغلبة أخيرا لمشيئة العناصر الشريرة ، فخلفوا وراءهم النساء والأطفال والشيوخ الغزل من السلاح ، على حين تسليح الباقيون ، فتيجمع منهم رهط كانوا خمسة وعشرين ألفا من المشاة المدججين بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن تجهيز بما عليهم من الزرديات ، وصفوا صفوفهم للقتال ، وزحفوا في الغابات المشار إليها ، وكانت وجهتهم ناحية التل في اقليم نيقية ، وما كادوا يتقدموه ثلاثة أميال في الغابة حتى كان قد بلغها أيضا قلع أرسلان على رأس جيش من قومه كالدي كثرة ، وراح يغذ السير شطر معسكرنا الذي ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباغتته بالهجوم ، وترامت الى الأسماع ضججات وصيحات غير مألوفة صادرة من الغابات أنبأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم في الطريق لمهاجمته ، فبادر في لحظته الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل الفسيح ، ففعل رجالنا مثلما فعل [قلع أرسلان] ، غير شاعرين باقتراب العدو منهم ، فلما اكتشفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هبوا للانقضاض عليه ، وراح كل واحد منهم يشجع الآخر ويشد من عزمته ، وأجاطوا به مشرعين سيوفهم لينتقموا بأيديهم لدم اخوانهم المراق ، لكن بيئما كان رجالنا متدفعين الى الأمام بقلوب ملؤها الحمية والغيرة اذا بسيوف العدو تتلقاهم ، وذلك لأن الترك - وقد أيقنوا أنه صراع حتى الموت - قاوموا مقاومة عنيفة ، يذكيها غضبهم العارم واعتزازهم بكثرة جندهم ، واستبسل الجانبان استبسالاً قويا رائعا ، لكن دارت الدائرة أخيرا على الصليبيين بسبب كثرة خصومهم ، ولما لم يستطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركة أكثر مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض عليهم الترك بسيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فيهم مذبة شنيعة .

ولقد قتل فى هذه المعركة بضعة رجال من ذوى المكانة فى
معسكر بطرس ، منهم « وولتر » المفلس ، و « رينيه دى بروس »
و « فولشر دى أرليانز » وغيرهم .

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المشاة ، والخمسمائة
فارس الذين كانوا قد خرجوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين
قتيل وأسير .

- ٢٦ -

دبت النشوة الكبرى فى أعطاف قلج أرسلان ، وهزته الفرحة
الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد باقيا أحد قادرا على
مقاومته فقد حكم السيف فى رقاب الأحياء ، غير مستبق على قيد
الحياة أحدا : مريضا كان أو عجوزا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك
الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يستثن من هؤلاء كلهم سوى من
لم يبلغوا سن الرشد من الصبيان والبنت الصغيرات الذين كان
شفيعهم عنده بهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم يكن استثناءؤه أباهم
الا ليضرب عليهم الرق .

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف خرب ،
ليس له أبواب ولا مزاليج ، وليس من أحد يقيم به ، فالتجأت
الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاج الى الهروب الى
هذا الحصن والاعتصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاذ
الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصيب هذا لسد

مداخله بدروعهم وبأحجار الضخمة يدرجونها الى هناك ، كى يحولوا بين أى أحد من الاقتراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار فلم تمنع هذه الشدة المحصورين من الاستبسال دفاعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت ذاته رسولا على جناح السرعة الى بطرس يخبره بهلاك جماعته ، وأن القلة الباقية منهم على قيد الحياة يكابدون حصارا شديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى ميسس الحاجة للطعام والسلاح ، فبادر بطرس بالمضى من ساعته الى الامبراطور ، واستطاع بتوسلاته اليه وتضرعاته أن يحمله على أن يرسل فى لحظته هذه بعض القوات الى هناك ، وألقى لهذا العسكر أمره بانقاذ الأحياء منهم من الخطر الذى يكتنفهم ، فأنجزوا ما كلفهم به على أتم وجه ، اذ ما كاد الترك يسمعون بأمر الامبراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك المكان ، وانسحبوا ومن خلفهم أسراهم ، وعادوا الى نيقية ، كما حملوا بالاضافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخيم والفساطيط والجياد والبغال وجميع التجهيزات التى نهبوها من الصليبيين .

وهكذا فان الطيش الجنونى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجعاعة غير النظاميين ، انتصرفون عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم قد أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام المحمود فقد سلكوا سبيلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا بها لسيوف العدو .

بعد فترة وجيزة من وصول بطرس الى « بيشينيا » قام قسيس تيوتونى اسمه « جوتشوك » سار فى أثر خطى بطرس يحثه الشوق لاداء رحلة الحج هذه . ولما كان جوتشوك قادرا بالطبيعة على استمالة الناس اليه بكلامه فقد استطاع اغراء كثير من التيوتون فى جميع رحاب تلك المملكة على الاشتراك فى هذه المهمة ، حتى تجمع لديه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المجر ، لم ياق كيدا ، كما استجاب المجريون من جانبهم الى أوامر ملكهم فقدموا البضائع باثمان معقولة الى رجال جيش « جوتشوك » الذين أبطرتهم وفرة الطعام بين أيديهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطالة والكسل ، وانغمسوا فى الشراب يعبون منه عبا ، وأساءوا السيرة مع الأهالى وألحقوا بهم شرورا كثيرة اذ راحوا ينهبونهم ، وامتدت أيديهم بالسرقة الى البضائع المعروضة للبيع فى الأسواق العامة ، واجترحوا السيئات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضيافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك استبد به الغضب ، فأمر أن ينادى فى كافة أرجاء مملكته أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكبت فى كثير من النواحي تجاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يفوق الوصف . ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المستحيل على الملك أن يفض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وجلب على نفسه كراهية شعبه له ، ومن ثم تجمعت قوات المملكة ، وكروا كرة رجل واحد غاضب على الصليبيين ، باعتبارهم أعداء يستحقون الاستئصال التام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انتقاما مما اجترحوا من الآثام .

وأخيرا تسنى لقوات الملك أن تغير على طائفة من هؤلاء المجانين
الفوضويين فى مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة .
وكان هؤلاء (التيوتون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأيقنوا تمام
اليقين من حنقه الشديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا
من الجرم ، ورآهم المجريون - وقد حملوا سلاحهم - عازمين على رد
القرة بالقوة فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا استحالة
الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثيرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء
المسيحيين [التيونون] كانوا فى الواقع رجالا ذوى بأس وشجاعة ،
ومهرة فى استعمال السلاح ، يأبون أن يسلموا أرواحهم من غير
قتال ، ولذلك فإن المجريين - جريا على مألوف عاداتهم - حاولوا أن
ينالوا بالحيلة ما يعجزون عن نيله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى
« حوتشوك » وزعماء جيشه ، يطمنون خواطرهم - خدبة -
بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم :

« أنه ترامى الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جيشكم ،
وقيل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة
والأهوال التى يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم ساربتكم حسن
المعاملة التى عومل بها عسكريكم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك
فإن الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا تحملون وزر
هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكما ممن تمتلئ قلوبهم
بخشية الله لم ترضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

التي أثارت عن حق الحقن الملكي قد تمت على غير رضى هؤلاء وأنها حدثت رغم استنكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا تؤدي خطايا البعض الى تأثيم الكل ، وألا يؤخذ البريء بجريرة المذنب فقد قرر أن يكبح جماح غضبه حتى لا يصيب أخوانه في الملة المسيحية بضرر ، ومن ثم فأننا نشير عليكم أن تستسلموا وتسلموا كل ما معكم الآن ، بما في ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله في يد الملك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم تفعلوا ذلك لم يستطع أحد منكم النجاة من الموت - لأنكم - بوجودكم في وسط مملكته - استم أكفاء لنا في القوة الحربية ، كما أنه لا قدرة لكم على النجاة من بطشه » .



ظهر منذ البداية عدم رضاء « جوتشوك » ورؤساء جيشه عن المسلك الجنوني الذي سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للثقة في اعتبار رحمة الملك أمرا لا يخالج الشك فيه أبدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكرة تسليم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكفرون عما ارتكبوه من آثام جرحته ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن بكرة أبيهم بما تقرر ، هذا على الرغم من احتجاجهم العنيف ، ومباهم الشديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بيد أنهم ما كادوا يفرغون من تسليم أسلحتهم وجميع متاعهم لقواد الملك ورسله حتى وجدوا الموت في انتظارهم ، بدلا من العطف الذي كانوا يتوقعونه ، اذ قام المجرئون بمباغثة التيوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم في الوقت الذي كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ايمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المجرئون فيهم مذبحة من أبشع المذابح في البعد عن الانسانية ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن غرق المكان كله فى بحر الدم المطلول ، وامتلائه بعجث القتلى وانتهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكثيف الذى لم يبق منه سوى نفر قليل نجوا من الهلاك الشامل ، ممن شملتهم رحمة الرب فلم تأخذهم سيوف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يقصون خبر المذبحة . ويروون نبأ المصير المشئوم الذى لقيه اخوانهم على من ارتبطوا بالعهد ممن كانوا على وشك القيام بذلك الحج ذاته وأسندوا النصيح لهؤلاء الحجاج الجدد بوجوب اصطناع الحكمة فى سيرهم ، واتخاذ أكبر قدر من الحذر من هذا الشعب الدنىء ، لما ارتكبه من خيانة لن تمحى من الأذهان .

- ٢٩ -

فى هذه الأثناء - أو بعدها بقليل - تجمعت من بلاد الغرب زمر كثيفة لا يحصيها العد من المشاة ، كانت تحركهم نفس الرغبة [فى الحج] ، وانطلقوا لم يزعموا عليهم أحدا أو يتخذوا لهم مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا تبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه كان بينهم فى الواقع رجال من أصل شريف ، أمثال « توماس دى لافير » و « كلاريبولدوى فنديل » ، و « وليم النجار » وكونت هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا هؤلاء السادة بأى صورة من الصور ، وضربوا عرض الخائط بما أشار به عليهم أهل الحجى والبصيرة ، فانطلقوا على وجوههم هنا وهناك ، مقترفين الفعال التى يرفضها القانون ، ويرتكبون ما تمليه عليهم شهواتهم ، ومن ثم فقد ركبوا متن الجنون والشلط ، مع أن واجبهم كان يحتم عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير فى هذه الرحلة الناهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلتزموا تمام الالتزام بالنظام في حجهم الذي يقومون به من أجل المسيح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا وثبوا على من فيها من يهودها فذبحوهم من غير أن تأخذهم رحمة ، ولم يكن اليهود قد أخذوا حذرهم منهم اذ لم يكن هناك ما يحملهم على أن يتوجسوا منهم شرا فيخافونهم .

وقد وقعت هذه الاعتداءات على وجه الخصوص في مدينتي « كولونيا » و « مينز » حيث كان الكونت « ايميكو » أحد نبلاء ومشهوري تلك الناحية الأقوياء قد انضم بالكثيرين ممن تبعوه الى عصابات الحجاج ، وكان [ايميكو] بالنسبة الى مكانه ملتزما بما تفرضه عليه هذه المكانة من التمسك بالأخلاقيات ، الا أنه لم يكن بالشخص الذي يشجب التجاوز في السلوك ، فسار على العكس من ذلك ، اذ ساهم فيما ارتكبه أتباعه من أعمال الفساد والشر ، وزاد على هذا فراح يشجعهم على اقتراف الجرائم .

اخترقت هذه الجموع كلها « فرانكونيا » و « بافاريا » حتى بلغت ناحية تدعى « ميسيبورج » (فيزيلبورج) على تخوم المجر ، وكانوا يتوقعون السماح لهم بالدخول من غير صعوبة ، لكنهم ما كادوا يرون المدخل مغلقا في وجوههم حتى وقفوا على هذا الجانب من الجسر .

وكان في الناحية قلعة شديدة الحصانة بفضل حماية نهري « الدانوب » و « ليثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحيطة بها .

وتقول الأخبار ان عدد الجيش الذي زحف الى هناك قارب مائتي ألف جندي من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان .

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح لهؤلاء العسكر الراغبين في عبور بلده بدخوله ، فقد تذكر الأهوال

التي كان قد أوقعها بقوات « جوتشوك » ، فخاف ان هو أذن لهذا
العسكر بالدخول أن يندفعوا الى القتال لأخذ النار ، لا سيما وأن
خبر المجزرة الدامية التي جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، وتردد
فى جميع الآفاق ، فحملت شناعة هذه الفعال الملك على الخوف .

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالموكول اليهم
حراسة المدينة وبقواد الفرق القائمة بحماية هذه الناحية ، وكان
اتصالهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بإرسال رسل من قبلهم الى الملك
يلتمسون منه الحصول على اتفاقية تخولهم عبور تلك الأراضى .

وفى خلال هذه الفترة كان الجند قد ضربوا معسكرهم فى
مرعى معشوشب بهذه الناحية ، وأقاموا فى انتظار ما تتمخض عنه
سفارتهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد ذهبوا
الى الملك ، وأعلنوا فشل سفارتهم فشلا تاما ، وحينذاك أيقن زعماء
الحملة أن لا رجاء فى خير يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجمعوا
أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام
النيران فى ضواحيها ، سالكن بذلك مسلك الأعداء فى أملاكه ،
وبينما كانوا ذات يوم منهمكين غاية الانهماك فى هذا العمل اذا
بكوكبة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبرت النهر
لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير
انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بينهم وبين العودة الى الناحية التي جاءوا منها ، فلقى فرسان الكوكبة
أو جلهم مصرعهم ، ولم ينج منهم الا نفر قليل فقدوا جيادهم ورأوا
الاحتماء بحلفاء المستنقعات حفاظا على حياتهم وحماية لأرواحهم .

تمكنت الشجاعة الحجاج بما أحرزوه من نصر على عدوهم ،
فصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعة حتى اذا تم لهم فتح
الطريق بحد السيف عزموا على دخول المملكة ، لذلك استدعوا جميع
عسكرهم لتحقيق هذه الغاية ، وعبروا الجسور التي فرغوا حالا
من اقامتها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعتهم
الجرأة للاستعداد لنسف الأسوار وشق طريقهم الى الداخل ،
متخذين من دروعهم وقاء لهم ، ونجحت محاولاتهم الجادة في فتح
ثغرات في أماكن كثيرة من الأسوار ، حتى اذا بلغ عملهم نقطة صار
دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقorra ، واستبد اليأس بنفوس
المقيمين بها الذين لم يعد لهم أمل في البقاء على حياتهم ، اذا
بالصليبيين المهاجمين يصيبهم رعب مفاجيء أرسلته السماء هلعت
له قلوبهم فتخلوا عن الهجوم وفروا تاركين وراءهم معظم متاعهم ،
وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يشير الى أن النصر حليفهم وأنه
ليس هناك ما يبرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ،
مدبرين غير مقبلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وجيه الا أن تكون
آثامهم الجمة وخطاياهم الكثيرة قد جلبت عليهم سخط الله لأنهم
كانوا قد غرقوا الى الأذقان في لجة الكفر الذي يزلزل بالخوف قلوب
أصحابه مصداقا لكلمات الحكيم « يهرب الجبان دون أن يكون أحد
يطارده » .

تبدل وضع المجريين الى ما هو أحسن حين رأوا القوات
الصليبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه
القوات التي أنزلت الفرع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هي التي لم يكونوا يستطيعون دفعها حتى وهم وراء الاسوار
فى حماية المستنقعات ، أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من تلقاء
أنفسهم ، ولم يكتفوا ببث الفرع فيهم ، بل زادوا فراحوا يقتلونهم .



فر من هؤلاء كونت « ايميكو » ومعها الجانب الاكبر من قواته
المدحورة ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أشرت اليهم من قبل فقد فروا عبر
« كارينثيا » حتى بلغوا ايطاليا التي عبروها ووصلوا الى حدود
« أبوليا » ومن هنا اتجهوا نحو بلاد اليونان فى أثر أولئك القواد
الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد اقترحوا
عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر الغرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على
شاكرتها ، وراحت كل أمة على وجه التقريب ترسل قواتها على حدة .
وقد انفصلت الواحدة منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات تحت
امرة قادة معينين ، وخرج آخرون من غير أن يرئسوا عليهم أحدا ،
لكن كان من الواضح أن الطريق الذى سلكه القوم عبر المجر كان
أقصر الطرق ، بيد أنه أصبح مسدودا فى وجوههم . بسبب
ما أنزلوه بسكان هذه البلاد من المصرة والشرور التى جاوزت كل
مدى وبسبب ما ارتكبه الحجاج الذين سبقوهم من جرم . فأصابوا
به الناس من غير اثم اقترقوه .

من أجل هذا السبب واجه الذين جاءوا من بعدهم صعوبة
بالغة فى الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثاني :

- ١ - موعد رحيل جودفروي والنبلاء المصاحبين له ،
وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر .
- ٢ - رسالة الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان
« جودفروي ديش » ، ورد الملك على الدوق .
- ٣ - الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم
ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته
بعد اجتيازهم المجر ، والملك يتحلف الدوق بكثير
من الهدايا .

٤ - عسكرنا يتقدم فى اراضى الامبراطورية ، ووصف الدخول وملاحظة عن احوال بلاد الاغريق التعسة .

٥ - الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبون منه اطلاق هيج العظيم وغيره من النبلاء الموجودين فى السجون . قواتنا تنهب الاقليم ثم تصل فى النهاية الى القسطنطينية .

٦ - الامبراطور يدعو الدوق للحضور اليه ، لكن الدوق يرفض الدعوة فتشبب العداوة العنيفة بينهما فيعمد الامبراطور الى حيلة ماهرة ينقل بها الجيش الى مكان عينه له .

٧ - وصف موقع القسطنطينية . الدوق يرسل رسلا الى الامبراطور ، وجيشنا يكابد المتاعب من الكمائن التى لم يكن يتوقعها والتى نصبها الاغريق له .

٨ - الجيش يعود الى المدينة وتنشب معركة كبيرة تتمخض عن مذبحه فظيعة فى الاغريق .

٩ - الناس يهرعون لحمل السلاح ويعملون يد التخريب فى الناحية كلها ، ويسفر الأمر عن توفر كميات ضخمة من المثونة فى المعسكر .

١٠ - وصول رسل من ناحية بوهيموند الى الدوق جودقروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى الامبراطور ورد الدوق على بوهيموند .

١١ - الامبراطور يرسل ابنه جون بروفير وجنتس الى الدوق رهينة عنده ، ويدعو جودفروى اليه فيذهب جودفروى فيتبناه الامبراطور ويستقر السلام بين الاثنين .

١٢ - الدوق يستأذن فى المغادرة فترة من الوقت فيرحل محملا بالهدايا ، عقد سوق للحجاج وعبور عسكر الدوق الى البسفور وضربهم خيامهم فى الاقليم المحيط بخلقدونيا .

١٣ - اسراع بوهيموند فى القدوم ووصف من كان فى معيته من الكبار وتدير الامبراطور الخطط السرية لتصيدهم .

١٤ - رسالة الامبراطور الكسيوس الى لورد بوهيموند وقيام جيش الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهيموند والقبض على أسير فضح نوايا الامبراطور الشرير .

١٥ - الدوق [جودفروى] يخرج لاستقبال الأمير بوهيموند ويسير به رغم أنه الى الامبراطور الذى يستقبله باحترام كبير ، كما أن تانكريد يتحرك فى الوقت ذاته كتائبه فى بيشينبا فتتضم الى جيشن الدوق .

١٦ - وصول روبرت كونت فلاندرز بجيشه وذهابه محروسا الى حضرة الامبراطور بناء على استدعاء الأخير له . واطلاق الهدايا الجمّة عليه ثم عبوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ - كونت تولوز وأسقف بوى يخترقان دلاشبا بجيوشهما ، ويلاقيان كثيرا من الصعوبات فى عبور هذه البلاد .

١٨ - سفارة امبراطورية تقابل الكونت فى دورازو ، والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن سرعان ما تطلق العناية الالهية سراحه ، وحين وصول ريموند الى « رودستو » يصله رسل من الامبراطور ومن قادتنا مرة أخرى .

١٩ - الكونت يترك جيشه ويذهب الى الامبراطور لكنه لا يوافق على وجهة نظره ، فيعمد الامبراطور - خيانة منه له - الى اصدار الأوامر بمهاجمة جيش الكونت .

٢٠ - الاغريق يباغتون جيش الكونت أثناء غيابه فيحتمل الكونت غيظا من الامبراطور الكسيوس الذى يبدي ندمه على ما جرى ويدفعه خوفا على نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويتظاهر ببراءته مما حدث .

٢١ - الكونت يتصافى مع الامبراطور بسبب وساطة القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبيين فى زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فتسرع الى نيقية ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال .

٢٢ - وصول روبرت كونت نورماندى وأستاس - أخى الدوق - بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال الإمبراطور لهما بالترحيب ووصلهما بالهدايا

الجمعة ثم عبورهما البسفور ومجيئتهما الى الزعماء
الآخرين .

٢٣ - اتصال أحمد موظفي الامبراطور - واسمه
تاتيكوس - بزعمائنا وتودده اليهم وكان رجلا
شديد المكر مطبوعا على الخبث الدنيء .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الثانى

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنة ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حاقت به وأشرنا إليها ، وفى أعقاب مذبحه جماعة « جوتشوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى جرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيش الذى جاء من بعده ولقد انضم الى معسكر « جودفروى » رجال من ذوى المكانة السامية ، الجديرين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى مونس » كونت « هينولت » ، ولورد هيج كونت « سنت بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرائقا على الهمة ، وكونت « جارنييه » المعروف بجرأى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بيرج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هنرى ديش » وأخوه « جودفروى » ، و « دودو دى كونتى » ، و « كونون دى مونتاج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى أسمائهم ولا ندرك عددهم .

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيرة طائفة واحدة مترابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالمين معافين ناحية فى ولاية النمسا تعرف باسم « سولينبورج » حيث يكون نهر « ليتا » الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر .

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينة وقعت عليهم وقع الصاعقة أخبار النكبة التى قيل انها حاقت بجوتشوك وعسكره ، فتشاور بعضهم مع بعض كيف يتسنى لهم السير قدما فى أمان حتى يتم لهم انجاز العمل الذى أزمعوا القيام به ، فاتفق رأيهم فى النهاية على وجوب ارسال سفارة الى ملك المجر تتقصى منه السبب الذى أدى الى هلاك جيش اخوانهم الذين سبقوهم فى تلك البلاد على هذه الصورة .

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للتعاهم مع الملك حول استتباب السلام ، وأوصوا أن يتخلوا جانبا عن اثاره الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يمرون به سالمين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارتهم تكون فادحة ، ومشقتهم التى يلقونها عظيمة ، لذلك اختاروا لهذه السفارة الشريف « جودفروى ديش » أخا هنرى ، مع طائفة معينة من ذوى المكانة العالية والرتبة النبيلة ، وكان اختيارهم [جودفروى ديش] راجعا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [جودفروى] فى حضرة الملك حياه بما يليق بمكانته ، ثم ألقى على مسامعه بما كلف أن يقوله :



قال :

« لقد جئنا الى جلالتك مبعوثين من قبل النبيل السرى
جودفروى دوق لوثرانجيا ، ومن فى صحبته من القادة الآخرين ،
عباد الرب المرافقين له ، والصادقين فى طاعتهم للارادة الربانية .

« وانهم لتواقون أن نعرفهم السبب الذى من أجله عومل شعب
مسيحى طالعنا جشهم على طول الطريق هذه المعاملة التى تنكرها
الانسانية على يدكم ، وأنتم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من
الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسيحيين
لو أنهم ولوا وجوههم شطر بلاد العدو فسلكوها ، فان كانت جرائم
هؤلاء الناس بشعة بشاعة استحقوا من أجلها العقاب الشديد فان
الذين أرسلونى اليك مستعدون أن يتحملوا - عن طيب خاطر -
اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان
ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ينبغى أن نتقبله فى صبر .

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجمتكم
الأبرياء ، فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات
التي كانت من نصيب خدام الرب ، بل إنهم مستعدون للثار لدم
اخوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن نوافيهم بالجواب عن كل هذه
الأمور ، وسوف يتخذون قرارهم بما يتفق وخلاصة ، دكم ، »

وختم جودفروى ديش خطابه بهذه الكلمات .

فأجابه الملك وهو فحاط بكبار رجالاته .

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حيواته منذ زمن بعيد يهودتنا
التي هو أهل لها ، انه ليسعدنا أن تكون قد أتيت لا لتجدد صداقة

الأيام الخالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم
عادل مثلك .

« اننا - كما قلت بحق - في عداد المؤمنين ، واننا نستطيع
بأعمالنا أن نعل من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أتباع
بطرس الناسك وذيول جوتشوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاستيلاء
قسرا على إحدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقتحام مملكتنا
بالعنف ، لم يكونوا في الواقع من أتباع المسيح ، ولا أهلا لحمل
هذا النعت ، فلقد احتفلنا ببطرس وجيشه في بداية الأمر احتفالا
كريما ، ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبثمن رخيص ، ولكنهم
رغم ذلك كانوا كالحية تختبئ في الصدر أو كالفار في صيوان
الملابس ، اذ ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان
يحتمه عليهم الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما تفضلنا به عليهم ،
اذا بهم يقتحمون واحدة من مدتنا الواقعة في أقصى تخوم المملكة ،
ويفتكون بأهلها فتكا ذريعا ثم يرحلون في خسة اللصوص ، سائقين
أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم
من هذا الفعل الذميم فقد أذنا لجيوش جوتشوك بالدخول دون أن
تكلفة رهقا أو شنتا ، كأننا لم نلق أذى من الجيوش التي سبقته
في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن
العنف ، ولم يتخرجوا عن اضرار النار ، بل انهم لم يتورعوا عن
سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب
منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد في طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أنزلوه من
البلايا برعايانا ، فقد صبح عزمنا على القيام ببعض ما فيه علاج
لهذه الظروف الخطرة ، فدللتنا تجاربنا الماضية على أن الحكمة
تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفة من
فجرة أوغداد ، حتى لا ننكب للمرة الثالثة على أيديهم ، فكانت

محاربتنا اياهم كأعداء خيرا مما ينزلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر الفادحة .

« فليكن اذن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وأنت الرجل الفطن اللبيب ، فوالله لقد بينا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باستضافة الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاملوا بوافر الاحترام حتى يستطيع - بعد مشاورة رجاله - ايفاد رسل الى القادة [الصليبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم بعث أخيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبة السفراء ، وحملهم هذه الرسالة التالية :

« لقد سمعنا وجاءتنا الأخبار الصادقة منذ أمد بعيد بأنك تعد عن حق أميرا عظيما جليلا ، كبير القدر فى قومه ، كما أن العقلاء - وان بعدوا عنك أرضا - ليثنون على صدق ايمانكم ، وثبات جنانكم ثباتا تشكرون عليه ، وقد شددنا اليكم حسن الأحذوثة عنكم ، وبطولة أعمالكم فرأينا أن نحبيك حتى فى غيابك ، وأن نحبوك بعطف أكبر ، ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلتهم ، والذين يماثلونكم أيضا فى حماسهم للعقيدة المسيحية ، قد قاموا كذلك بعمل كله تقوى ، ولما كنا عازفين كل العزوف عن أن يعتور الفتور والتراخي ما بيننا من ود بسبب عمل غير مرض ، فأننا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبذل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخوى » .

وها هى ذى الفرصة قد واثتنا لندرجوكم أن تفضلوا بالحضور الى قلعتنا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتياقنا له . وتطلعنا اليه ، وحتى نكون قادرين على الوصول الى سلام يتلاءم مع رغباتكم » .

بعد استماع الدوق الى رسل الملك ومشاوراته أصدقاءه ،
ضرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مستصحبا معه
ثلاثمائة فارس من الصفوة المنتقاة من رجاله ، فلما اجتاز الجسر
وجد الملك الذى استقبله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات
الترحيب ، وأبدى كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة ، ثم اتفقا
فى النهاية على تبادل الرهائن الذين يختارونهم من علية القوم ،
كما اتفقا على ألا تنطوى صدور الجانبين على كراهية بعضهم لبعض ،
وأن يعود السلام بين الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن
الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول
مثل هذا الجيش اللجب الذى قد يحدث - بطريق الصدفة المحضة -
أن يتوسل بأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعتمادا منه
على كثرة عدده وشجاعته فقد سألهم أن يعطوه بلدوين - أخا الدوق -
وزوجته وأهل بيته رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك ، وأسلم
أخاه رهينة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس
قريب العين بعسكره ، وحينذاك أصدر الملك - وفاء بوعدده - قرارا
يقضى بتقديم الطعام اللازم للجند فى كل ناحية يمرون بها من نواحي
البلد لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على
ذلك فقد أمر بأن يصحب الجيش سوق يتاعون منها ما يريدون .
أما الدوق فقد أمر من جانبه أن ينادى المنادون فى أرجاء
المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو الشدة مع من
يأتون الى الجيش ، والا كان الموت جزاءه ومصادرة كل ما بيده ،
كما أمر أن تجرى معاملات البيع والشراء فى جو من السلام والمحبة
الأخوية .

وهكذا قدر لهم - بفضل من الله - أن يعبروا كل بلاد المجر في سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مشى الملك برهائه إلى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على أتم أهبة لأن يخمد في الحال أي شغب قد يحدث ، فلما وصلوا أخيرا إلى « سملين » التي تكررت الإشارة إليها توقفوا على شاطئ نهر الساف ، حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصليبي] ، وإلا لم يجدوا سوى بضغ قوارب قليلة لا تكفى لنقل قوم كثيرين كهؤلاء القوم فقد جهزت أرماث لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس في كامل سلاحهم لحراسة الشاطئ الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين ينصبه العدو لهم ، حتى تيسر للجيش - بعد عبوره النهر - أن يجد مكانا هادئا توقرت فيه أسباب الراحة .

وحينذاك أخذ الحجاج ينتقلون إلى الجانب الآخر في لهفة وشوق .

ما كاد [اللاتين] وبعض زعمائهم يجتازون النهر حتى أسرع الملك بالتقدم مستصحبا معه حرسا كثيرين ، وأسلم بلدوين وزوجته وبقية الرهائن إلى الدوق وفق ما اتفقوا عليه في البداية ، ثم وصل الدوق ومن معه من القادة بالغالى الثمين من الهدايا التي وصلهم بها الملك تكريما لهم واجلالا لقدرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ إلى قصره .

حينذاك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقية الناس إلى السير وراء الجند الذين كانوا قد عبروا النهر إلى الشاطئ الآخر ، حتى إذا وصلوا إلى بلجراد - إحدى مدن بلغاريا التي أشرت إليها من قبل - نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب متاعهم ، وتهبأ الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « نيش » ثم « ستراليكيا » .

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من التعاسة .
وأن يعرف مدى الضعف الذى بلغته الامبراطورية حين يشاهد أوضاع
الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما تستتبه
النفوس من السلع والمتجر ، لكن حدث بعد انتهاء حكم أمراء
القسطنطينية اللاتين أن وقعت الامبراطورية بسبب أخطائها ومتاعبها
تحت سلطان اليونان بزعامة تقفور الأول ، فاغتنمت شعوب المنطقة
الهمجية فرصة ضعفها وبادرت فى الحال الى شن سلسلة من الغارات
على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان وفق
هواها .

كان من بين هؤلاء الغزاة جماعة « البلغار المتبربرين » ، الذين
لم يأخذوا بحظ من الحضارة ولكنهم أغاروا عليها من الشمال ،
وبسطوا سلطانهم على جميع الأقطار الممتدة من الدانوب حتى مدينة
القسطنطينية الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتيك ، ونجم عن
ذلك أن اضطربت أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض ،
وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ،
وعرضها عشرة أيام أو أكثر ، ولم يدرك الاغريق الأشقياء أن هذا
الاسم بالذات كان دليلا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه
كانت تقع فى القديم على بحر الأدرياتيك ولايتا « ابيروس » وكانت
عاصمة احدهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقت من
الأوقات قصبة بيرهوس « ملك الأبيروت » وكان رجلا شعاعا وكان
موضع الاعجاب من الناس .

كان الاقليم الذى يوشك أن يجتازه الدوق [جودفروى] على
رأس جيشه يتألف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (ربنسس)

وهى التى تكون على يسارهم حين عبورهم الدانوب ، وداكيا البحرية
التى مروا بها فى طريقهم ، وفيها مدينتا نيش وستراليكيا
الرائعتان .

كذلك كانت توجد ولايات أخرى فى نفس المنطقة هى أركاديا
وتساليا ومقدونيا وأقاليم تراقيا الثلاثة التى قدر لها أن تلقى نفس
الحظ العاثر [الذى لقيته الامبراطورية] لم تكن هذه الولايات كلها
هى وحدها الأملاك التى ضاعت من يد الاغريق بسبب ضعفهم ،
ذلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقيم فى الأراضى الواقعة فى
الولايات القاصية ، ولا يجوز له زراعتها حتى بعد أن أخضع الامبراطور
« بازيل » الاغريقى نفس الشعب البلغارى ، وكان واضحا على وجه
الخصوص فى حالة الأراضى المتاخمة لحدود الممالك الأجنبية ، والتى
كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايتى « داكيا » ، ولا يزال نفس
الوصف منطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحية بأجمعها مغطاة
بالغابات الكثيفة والنباتات المتشابكة فلم يكن ثم أحد بقادر على
اختراقها حتى ولو رغب فى ذلك ، ويرجع هذا الى أن اليونان وضعوا
ثقتهم الكبرى فى العوائق التى تعود الى صعوبة الطرق وكثرة أشجار
العوسج والشوك التى كانت تعتبر وسائل دفاعية تفوق ما تستطيعه
قوات اليونان الدفاعية .

ونهج اليونان هذه السياسة ذاتها فتركوا « بيروس بريموس »
أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجورة والأحراج
الموحشة أصبحت لا تنتج طعاما ، وصارت عقبة كأداء فى وجه من
يبغى دخولها ، وكان هذا الاقليم الذى لا بد من أن يجتازه بقية
القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسيرة أربعة أيام فى
الجبال المسماة بجبال البلقان .



سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داكيا البحرية المعروفة
ايضا باسم « موزيا » ، فلما اجتاز الأحراج المسماة عادة بممر سانت
بازيل صادف ناحية أكثر اتساعا ورفاهية أمدته بكميات وفيرة من
المثونة . حتى جاء الى مدينة « فيليبو بوليس » الجميلة ، الآهلة
بالسكان . وهذا علم بما فعله الامبراطور من زج هييج الكبير - أخى
ملك فرنسا - فى السجن مع ثلة من رفاقه النبلاء ، فأرسل على
جناح السرعة وفى لحظته رجلا من قبله الى الامبراطور . ولاحقه
بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال ، ويلومه على
ما أنزله بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه
سجنهم من غير جرم ارتكبه .

وكان هذا الرجل الوجيه [هييج] أول القادة جميعا فى الخروج
الى الحملة ، وقد اجتاز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم غادرها الى
« أبوليا » حيث أبحر فى حراسة قليلة ، وتوقف فى « دورازو »
فى انتظار القادمين ورائه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وقوع أى خطر
عليه ولا على من معه ، وهم فى مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم
يعتقون المسيحية ، غير أن والى هذه الناحية ألقى القبض عليه وزج
به فى السجن ، ليسبله الى الامبراطور كى يقضى فيه بما تشاؤه
ارادته الملوكية ، فحبسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا
للدماء ، وكان الامبراطور ينتظر وصول القادة الذين قالوا انهم فى
الطريق ، فاذا قدر لهم النجاح فى الحضور أطلق سراحه كيد يمن
رهبان عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فلسوف يبقيه أسرا طول
حياته .

كانت الامبراطورية اليونانية في هذه الآونة تحت حكم رجل
ماكر يدعى « الكسيوس » ويلقب « بكومنينوس » ، كان يعيش من
قبل في القصر الامبراطوري ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التي
نيطت به واجباتها ، وهي وظيفة نسميها نحن [اللاتين] بحاجب
الحجاب . أو مدير شئون القصر ، وتجعله في مكانة تلي مباشرة مكانة
الامبراطور ، مما أصبح عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نففور »
الملقب « بيوتوناتس » صاحب الصولجان في هذا الوقت ، لكن ذلك
الرجل [الكسيوس] خان ولي نعمته [نففور] وكان ذلك قبل
مجيء شعبنا بخمسة سنوات أو ست فخلع مولاه وتقلد الأمر بدلا
منه في الامبراطورية ، وأصبح مالكا لها الآن اغتصابا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينفذون التعليمات
الملقاة اليهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هييج ورفاقه ، فلما
رأوا اصرار الامبراطور على رفض رجائهم عادوا الى الجيش الذي كان
اذ ذاك قد جاوز « أدرنه » ونزل للاستجمام في أحد السهول .

ولما علم الدوق والقادة الآخرون عن طريق مبعوثيهم أن
الامبراطور لن يمن بالحرية على هؤلاء الرجال [هييج ورفاقه] اتفق
رأيهم جميعا على الاذن لعسكرهم بنهب الاقليم ، واذ طالت اقامتهم
هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا ، لكن ما كادت
أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لدنه
الى الدوق يرجوه - عن طريقهم - أن يكف أيدي جنده عن أعمال
التخريب هذه ، ويؤكد له أنه مستجيب لرجائه ، ومطلق سراح
الأشراف الذين فر حبسه ، فقبل الدوق هذا الاجراء بنفس جدلي
وأمر جنده بالتوقف عن متابعة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى
مدينة القسطنطينية مستصحيا قواته في أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جيشه ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، بنصب خيامهم هناك وإقامة معسكرهم .

أما النبلاء الدين أشرنا اليهم وهم : هيج الكبير و « دروجو دى نيسل » - و « وليم » النجار ، و « كلاريبولد دى فنديل » . فقد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له يده عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا يفيض بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسيهم مواساة الأخ لآخوانه يشاركهم آلامهم التى تحملوها ظلما .

- ٦ -

لم يكد هؤلاء يفرغون من عناق بعضهم البعض ومن تبادل الأحاديث الرقيقة فيما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور [الكسيوس كومنين] يحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمثول بالقصر الامبراطورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى - بعد مشاورة أصدقائه - أن يرجى ذهابه اليه ، مما أغضب الكسيوس غضبا حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد مع الدوق ويشترون ، بيد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسيس الحاجة الى المثونة وقلة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على الاتفاق على اجتياح تلك النواحي بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى المعسكر وقد فاضت أيديهم بشتى أنواع المأكولات ، حتى أن الرعاع منهم أصابوا منها وقرة ضخمة أصابتهم بالكظة .



ولما رأى الامبراطور أن المنظمة قد تعرضت للحريق والنهب ،
خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ،
ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب مواعده ، وصار على
الأبواب فقد أصدر الزعماء - احتراماً للدين - قراراً ينهى الجند
عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فأنقضى العيد
فى أتم هدوء وسلام .

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور تسيل كلماتها رقة
وعذوبة ، وإن انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش
عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بقصر « بلاش-ناى » وأن
يقيموا فى القصور المتعددة المتناثرة على شاطئ البسفور ، فأقبلوا
فى يسر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع الشتاء الذى كان على
الأبواب كانت تزعجهم أشد الأزعاج ، كما ضربتهم العواصف الثلجية
بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن الخيام لم تمنع المطر من التسرب
اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معداتهم
بالفساد والعفونة بسبب التعرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك
من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يتحمل أكثر من هذا
البرد القاسى الذى كان يخرق كل شيء ، وعجزوا عن مجابهة الثلوج
الكثيرة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانت فوق طاقتهم .

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامبراطور من العطف على
الحجاج ، إلا أن هدفه الحقيقى كان يختلف عن ذلك تمام الاختلاف ،
فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصبح العسكر أقل
حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما
تزداد قدرة الامبراطور فى كبح جماحهم والسيطرة عليهم .

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحاً فلا بد من إبراز بعض
الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه .

ان بحر بنتس [البحر الأسود] الذى يتخذ اسمه من الاقليم المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك ضيقة ، ثم يستقيم مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ، يخترق فيها مدينتى سيستون « وابيدوس » الموغلتين فى القدم وتقع احدهما فى اوربا ، والاخرى فى آسيا ، ثم يصب فى النهاية فى بحرنا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود ينتشر لثلاثين ميلا فى مجرى يمتد من الممر الأول الذى دخله ويكون فى الناحية الغربية خليجا يقرب طوله من خمسة أميال الى ستة ، وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يمتد لمائتين وثلاثين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالسفور أو « بروبونتس » أو « هيليسبونت » ، ويشهد بذلك « سولنوس » فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة الرابع يبدأ عند الهيلسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهذا هو السفور الذى عبره اجزرسييس على جسر من القوارب أمر باقامته ، ويجرى الماء من هنا على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسيوية التى استولى عليها الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لغزو العالم ، ويتسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا من المياه فيسمى بروبونتيس [أى السفور] - أما الآن فإنه يضيق الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور تراقيا الذى نقل « ذارا » جندة عبدة .

ويبدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى .

فسمي البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبيتر تنكر في شكل
ثور حاملاً عبر مياهه « أوربة » ابنة أجينور .

وجاء اسم هيلسبوننت من « هلة » أخت « فركسيس » الذي
تزعم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيهما على ظهر كبش .
وهو يعتبر الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع
سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فليس متساوياً في كل
الأماكن ، ونظراً لموقع الأراضي المجاورة له وطبيعة تكوينها فإن عرضه
الآن يصل إلى ميل ، ثم يتسع حتى يبلغ ثلاثين ميلاً أو أكثر .

وأما الخليج الذي يمتد إلى الغرب فيكون - كما ذكرنا - واحداً
من أشهر موانئ الدنيا وله مرفأ زحّب ، وأما المدينة التي نتكلم عنها
فتقع في زاوية بين هذا الخليج وبين البسفور ، وكانت تسمى في
القديم بيزنطية التي كانت موضعاً لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت
آخر المدن في تراقيا ، أما الآن فهي أسعد المدن حظاً إذ تحمل اسم
الامبراطور الذي زاد فيها حتى أصبحت قسبة الولايات كلها ، كما
صارت مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانتها الممتازة
منافساً لاسم سيدتها رومة .

وتذهب الزاوية الواردة في الكتاب الثالث « لبول أوردسياس »
إلى أن تأسس هذه المدينة كان على يد « باوساونيوس » ملك
الاسبرطيين ، وهي على شكل مثلث غير متساوٍ الأضلاع التي يمتد
أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيلسبوننت حيث
توجد كنيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانجانا » ، ويمتد هذا
الضلع بامتداد الميناء إلى القصر الجليلي المسمى بقصر بلاشيريلى ،
أما الضلع الثاني فيمتد على طول البسفور من عند دير سنت
جورج إلى البوابة الذهبية .

وأما القسم الثالث فيمتد بطول الاقليم من نفس البوابة الى قصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى الميناء وهو ضحل جدا فى الصيف ، أما فى الشتاء فتغزر مياهه بسبب فيضان مياه الأمطار مما يصبح الجسر معه ضرورة لا بد منها .

★★★

ولما اجتاز جيشنا هذا الجسر مضى الى النواحي التى خصصت له فى بعض المباني الكثيرة القائمة على امتداد شاطئ البسفور ، وهى الدور الواقعة بين مياه البحر الأسود ، وحدث فى أثناء انتظارهم قدوم القادة الآخرين أن تسلم الدوق عدة رسائل من الامبراطور ، يرجوه فيها الشخصوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان « جودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على الاحجام عن استجابة دعواته ، وان شعر أن سوء الأدب ومخالفة نواميس الشرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لتمثيله عنده ، طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل النبيل كونون دى مونتاج وبلدوين دى بوج وهنرى ديش يعتذرون للامبراطور عن عدم قدوم جودفروى ، فلما أدرك الكسيوس أن لا رجعة للدوق فيما قرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور الى مجلسه عاد فأمر بفض السوق ونقضه ، ولكن هذا الاجراء لم ينجح فى تنى هذا الرجل [جودفروى] عن عزمه ، واذا ذاك اتخذ الكسيوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماة الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تباشير الصباح قتل هؤلاء الرجال بسهامهم طائفة كبيرة من رجالنا لم يكونوا فحسب من بين الذين ذهبوا الى الشاطئ ، بل وأيضا ممن كانوا يطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق استدعى فى الحال زعماء
الناس لمشاورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أخاه
[بلدوين] على رأس كتيبه من العسكر للاستيلاء على وجه السرعة
على الجسر الذى عبره الجيش ، حتى لا يغدو محصورا فى هذه
الأماكن الضيقة ، وحتى لا يفقد الكثيرين من رجاله ، فخرج بلدوين
الشجاع على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واستولى
عليه عنوة ، ولم يعد الخطر قاصرا على من جاءوا بالقوارب بل ان
المدينة بأجمعها أيضا حملت السلاح تريد الفتك برجالنا .

رأى الصليبيون ان أعداءهم الاغريق نشطون فى اقامة
الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهالى السلاح للقضاء عليهم ، لذلك
أضرموا النار فى جميع القصور التى كانوا ينزلونها ، والتى تمتد
مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فشب الحريق فى
جميعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهالى ، أو كان للامبراطور ،
والتهمتها النيران حتى تهاوت الى الأرض ، وسمع رجالنا دق الطبول
ونفير الأبواق يتردد مدويا فى الأحياء المختلفة التى كانوا قد
انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وتتبعوا
الدوق الذى أسرع الى الجسر يقود عسكره وقد صفهم للقتال ، غير
أن أصحاب الخبرة الحربية الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الخناق
على الجيش وهو فى مواضعه الضيقة هذه ، فيهلكون ان استولى
الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يترثوا فى انتظار فرق المشاة ، بل
نادروا الى جمع كل الخيالة فى تلك الناحية ، الا أن بلدوين - أخا
الدوق - كان قلنا - قد أسرع الى الأمام واحتل الجسر رغم
محاولات الأعداء فأرغمهم أن يولوا الأدبار هاربين ، فسيطر بذلك
على الشاطئ الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم من المتاع والتجهيزات ، وأقاموا مرة أخرى فى موضع بالعراء يواجه المدينة ، ويمتد فى كل اتجاه دون أى عائق .

ولما اقترب المساء من الدخول شبت معركة فى البقعة الواقعة عندما يعرف الآن باسم قلعة بوهيموند الموجودة بين كنيسة الشهيدین الطاهرین کوزمو ودامین و بین قصر بلاشرناى الجديد ، القائم فى زاوية من المدينة قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة أعداد كبيرة من الناس ، وعجز الاغريق عن تحمل ضراوة القتال فكفوا عنه وارتدوا الى المدينة .

حينذاك نزل عسكرينا المنصور فى أروع بقعة من الساحة التى استولوا عليها بشجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعته نهاية للقتال الدائر بين الجيشین لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب ما يضمرونه من الكراهية السوداء التى كانت تعشش فى صدورهم نحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن تجرى معركة ثانية أشد وحشية من سابقتها فتتمخض عنها خسارة فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة .

هنا - ولأول مرة - تجلى بوضوح للعيان مدى الشر الذى انطوت عليه خطة الامبراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك نابعا عن رغبة منه فى أن يضع هذا الشعب الصليبي الذى تساوره الشكوك فيه فى منطقة ضيقة محدودة ، فيصبح بين المطرقة والسندان .

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى علانية بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفة بقيادة رهط من الزعماء لتفتيش المنطقة التى حولهم ، والعودة بالأطعمة التى منع الامبراطور بيعها . وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أجله ان غصبوا أو بالشراء ، وألا يخلفوا وراءهم ماشية ولا غنما ولا غلة ، ولا أى نوع من المثونة .

كما صدرت الأوامر لغيرهم ولطائفة من القادة بالبقاء مع الدوق فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكتشفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدخروا وسعا فى الاستعانة بكل الوسائل الممكنة لحماية أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهضت اذ ذاك كتيبة كبيرة من الفرسان والمشاة ، وخرجت فى حملة لجلب الطعام ، وطالت غيبتهم ستة أيام بلياليها ، راحوا خلالها ينهبون الحقول فى دائرة محيطها ستون ميلا ، فلما كان اليوم الثامن عادوا الى المعسكر بكميات وفيرة من المواد الغذائية لا يتصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كبيرة جدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ما نهبوه .

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى المعسكر. وصل الى [جودفروى] رسول من الأمير بوهيموند يحمل اليه خطابا يقول فيه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ،
 ومع رجل خسيس كل الخسة ، ليس له من غرض أبدا الا الخديعة ،
 ولا يتورع عن اضطناع أى وسيلة او سلوك أى سبيل يكون فيه
 هلاك كل من هو من أمة اللاتين ، وسيبرهن لك تقديرك الذاتى - أن
 أجلا أو عاجلا - على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك
 لأننى أعرف أن اليونان يضمرون الشر والضعينة لكل من هو لاتينى،
 وتلك طبيعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يستطيعون عنها
 حولا ، وذن ثم فعليك أن تغادر المدينة - اذ شئت - وترحل الى
 النواحي المحيطة بأدرنة و « فيليبوبولس » ودع هنار الجنيد
 الذين عهد بهم الرب اليك ليستجمعوا وينعموا بلذيد الطعام فى
 منطقة أخرى خصبة ، واننى لقدام اليك - ان يأذن الرب - فى مطلع
 الربيع لأقدم اليك - باعتبارك مولاي - خدماتى الاخوية المنطوية على
 المحب والنصيحة ضد أمير الاغريق اللئيم » .



قرأ الدوق الرسالة ، وبعد أن تبصر مليا فى محواها عقد
 مجلسا مع القادة ، ثم أرسل الرد كتابة وشفافا بهذه الصورة
 الحكيمة .

« اننى أعرف يا شقيقى الحبيب - كما جاءتنى الاخبار منذ
 وقت طويل مؤكدة صدق ما أحس - أن الجنس اليونانى المحتال
 يطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويلتهدف للاضرار بشعبنا ،
 واذا كنت فى حاجة الى شئ من هذه المعرفة من قبل فقد أكدتها
 التجربة يوما بعد يوم ، ولست أشك فى أن ما انطبعت عليه أنت
 من صادق التقوى يحركك ضدهم ، كما لا أشك فى صحة احساسك
 الغريزى بنخستهم ، ولكننى اذ أضغ خوفى من الله أمام عبنى ،

ولا أغمضها عن هدف حملتى ، فان بدنى يقشعر من أن أوجه ضد
أى شعب مسيحي سيفى الذى قطعت العهد على أن أقاتل به الكفار ،
ومهما يكن الأمر فان الجيش الذى معنا - أيها المحب لارب - يتأهب
شوقا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخلصين للسيد » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفرع الكبير حين رأوا
البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدرة الامبراطور
احتمال أنين شعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من خبر مجيء
رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أثرهم ، كما أنه خاف أن
يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحدة تعمل
لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق وتهدئة ثأثرته ،
ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوثيه اليه ، ملتمسا منه زيارته
وكان هذا هو السبب الذى جعله على أن يجهد نفسه كل الاجهاد فى
أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، ومن ثم
أرسل وفادة ثانية الى الدوق يلح عليه أن يبادر بالحضور الى القصر
دون أى ابطاء أو تمهل حالما يصله ابنه « حنا بيرفيرجنتس » الذى
أرسله اليه ليكون رهينة عنده .

ولقد أثلج هذا الاتصال قلوب القادة [اللاتين] فأوفدوا
إثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين
دى بورج » ليكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى
الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم
خلف الدوق أخاه فى قيادة الجيش وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

القادة الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذي كان يتلهف أشد التلهف على قدومه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برجاله البارزين وكلهم تواقون لرؤية الرجل الذي طالما سمعوا به وعرفوا الكثير عنه من قبل .

وأكرم الامبراطور أيضا وفادة من كانوا في شرف صحبة الدوق ، واحتفى بكل منهم الاحتفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم جميعا قبلة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، وترفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم ، ثم التفت الى الدوق قائلا له :

« أيها الدوق المحبوب : لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الأمراء شأنا وقوة ، وما كنا جاهلين حماسك الكريمة فيما عاهدت به نفسك القيام به من مشروع حاطتك التقوى الكريمة فيه برعايتها. أضف الى ذلك أن الأخبار التي ذاعت عنك شرقا وغربا قد أكدت لنا أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكتسبت عن حق حب الكثيرين حتى من لم تتح لهم الفرصة للقاءك .

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آيات الحب ، وأن نخصك بالود الصادق ، فقد صممنا أن نتبناك اليوم ابنا لنا في حضرة كبار رجال قصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطوريتنا ، عسى أن يظل تماسكها عن طريقك صحيحا غير مثلوم في نظر الجمعيوع التي احتشدت هنا ، وكذلك في عيون أبناء العصور القادمة » .

بهذه الكلمات التي صاحبها احتفال ملكي جرت العادة باتخاذها كلما كان هناك تميز من هذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبسوا الدوق الثياب الامبراطورية ، وثبناه جريا على عادة المملكة .

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد .

حين فرغ الامبراطور من هذا الحفل فتح خزائنه للدوق ورفاقه ،
ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الجواهر والثياب
الحريرية ، والمرهريات الغالية النفيسة التي يعجز الخيال عن
تصورها : صنعة وقيمة ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء
اتحافهم بالهدايا التي أكرمهم بها - أن يثير ذهولهم واعجابهم بما هو
عليه من ثراء ليس له مثيل ، كما هدف أن يخلب ألبابهم بعظمته
الملوكية ، ولذلك لم يقتصر كرمه الذي خص به الدوق على أن يكون
مرة واحدة فحسب ، بل أخذ منذ يوم الغطاس حتى عيد الصعود
يرسل اليه أسبوعيا من القصر الامبراطوري من النقود الذهبية
ما تكل أكتاف أربعة رجال أشداء عن حمله ، هذا الى جانب عشرة
أثقال من الدراهم النحاسية ، غير أن الدوق لم يستبق من كل ذلك
شيئا لنفسه ، بل جاد بما جاءه على النبلاء والجيش ، حسبما تستلزم
حاجة كل فرد .

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور في الرحيل ،
ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذي كانوا قد
استبقوه في المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه في
رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بيانا عاما يقضى بتجهيز كل
ما يحتاجه جيش الدوق بثمن معقول ، وكيل لا جور فيه ولا ظلم ،
ونودى بقتل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته
على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب في معسكره عملا من أعمال
العنف ، أو يخطئ في حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الجانبان

فى تعاون متبادل بينهما فى أمور البيع والشراء وسادهما جو من
اتفاق التام .

ولما آذن شهر مارس بالانتصاف علم الدوق بوصول القادة
الآخرين ونزولهم بجيوشهم فى تلك الناحية ، فأمر الامبراطور
بتهيئة السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار
رجالاته أيضا ، واذا ذاك ضرب [جودفروى] معسكره فى خلقدونية
فى بيثينيا التى كانت أول ولاية فى آسيا يصل اليها .



وكان قد انعقد [فى سنة ٤٥١] فى خلقدونية .لتى هى من
أعمال بيثينيا ، وفى زمن كل من البابا ليو الكبير والامبراطور
مارتيان المجمع الدبنى الرابع العام ، وحضره ستمائة وستة وثلاثون
من آباء الكنييسة ، فشجب المجمع هرطقات كل من الراهب
« ايوتيشيوس » راهب اسكندرية و « ديوسكورس » بطريركها .

كان هذا المكان [وأعنى به خلقدونية] أقرب ما يكون الى
القسنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويستطيع الناظر من
هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى لكانها الى جواره .

يضاف الى ذلك أنه كان فى استطاعة من تحتم عليهم أعمالهم
الذهاب اليها من المعسكر القيام بهذه الرحلة ذهابا وإيابا ثلاث أو
أربع مرات يوميا .

غير أن كلمات الامبراطور المعسولة - فى الالحاح على الدوق بأن
يعبر هو وجيشه البحر قبل الوقت الذى كان محددًا لذلك - لم تكن
صادرة عن إخلاص وصدق طوية ، بل كانت على العكس من ذلك تابعة

مما طبع عليه من المختل والرغبة فى خداع الدوق حتى لا تنضم قواته الى قوات اللاتين الآخرين عند وصولها ، كما أنه ساك سبيل الخبث ذاته حين احتال فأرغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب البحر ، واحدا بعد الآخر ، حتى لا يتسنى مطلقا وجود جيشين معا فى وقت واحد أمام المدينة .

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامبراطور والدوق فى القسطنطينية ، وحدث فى هذه الاثناء - وقبل دخول فصل الشتاء القارس البارد - أن قام لورد بوهيموند بن روبرت جيسكارد أمير تارانتو بصور بحر الأدرياتيك ، ووصل الى دورازو على رأس جميع عسكره ، وتابع من هناك - هو من معه - الزحف فى بطة عبر غابات بلغاريا وكان قد انضم الى جيشه كثير من أصحاب المكائنة السامية وأهل القرية من ايطاليا وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لتظل ذكراهم خالدة أبدا ، منهم ثانكريد بن وليم مارشيسوس ، وريتشارد البريسباتى بن وليم ذى الذراع الحديدية أخو روبرت جيسكارد ، وأخوه رينولف ، وروبرت انزى ، وهيرمان دى كانى ، وروبرت دى سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهمفري ابن رالف ، وريتشارد ابن كونت رينولف ، وكونت ريزونولو مع اخوته ، وكذلك بويللوى شارترز ، والبيريد دى كانيانو ، وهمفري من مونت سكاليوزو .

انخرط هؤلاء جميعا تحت راية بوهيموند ، حتى اذا بلغوا « كاستوريا » احنفلوا بعيد ميلاد المسيح .

لم تكن المدينة تعقد فى هذا المكان أسواقا لمن يمر بالناحية من الناس ، ومن تم اضطر [اللاتين] للاستيلاء قسرا على قطعان المشية والدواب ، ونهب كل ما يحتاجونه للعيش . مما أدى الى خسارة الأهالى الدين نظروا اليهم نظرتهم للأعداء .

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك فى متابعة زحفهم من هذه الناحية حتى بلغوا منطقة شديدة الخصب والنماء ، وتعرف باسم « بيلا جونيا » فضربوا معسكرهم بها ، وهنا وافتهم الأخبار أنه يوجد على مقربة منهم مدينة حصينة يسكنها الهراطقة ، فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح ، وأضرموا النار فى مبانيها ، وراح ما بها من بين هالك بالسيف أو صريع التيمته النار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الضخمة والأسلاب الوفيرة .

ولما سمع الامبراطور أن كتائب بوهيموند تتابع زحفها ، أوعز سرا الى مقدمى جيوشه الذين كان قد أرسلهم فى مشاتى ذلك المكان أن يظلوا سائرين مع جميع قوات تلك الناحية الى جانب القوات المسيحية حتى يصلوا الى نهز الوردار ، على أن يغتنموا الفرصة ان لاحت لهم ليلا أو نهارا للاغارة على طليعة الجيش ، سرا أو جهرا ، وذلك لما نمت الى علمه من أعمال القتل التى جرت عند مجئ القائد بوهيموند ، وكان الامبراطور قد ذاق منه ومن أبيه روبرت جيسكارذ الأهوال الجمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه من الدهاء والمكر - أن يوفق غاية التوفيق فى ستر أغراضه وإخفاء أهدافه ، بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم [بوهيموند] ألقى اليهم أن يكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن يصطنعوا معه من الأسلوب المطمئن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها تخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لخدمته ، وكانت لهجة الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التي فاه بها الرسل كالآتي :

- ١٤ -

« قد علم جلالتنا - رعانا الله - بما لا يدع مجالا للشك أنك أمير جليل القدر ، قوى الشكيمة ، رفيع المكانة ، كما أنه يعلم أنك ابن أمير مبنجل قوى لم يعرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك منا منزلة الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنت أهل له ، وإن كنا لم نرك وجهها لوجه حتى الآن .

★★★

« وقد علمنا أن طاعتك للرب حملتك على أن تهب نفسك لخدمته ، وأن تشارك بقية الأمراء المخلصين في القيام برحلة الحج ، وإن هدفنا هو أن نزيدك منا حبا ، وننزلك منزلة الود من نفسنا لذا (فانا نلبس منك) أيها الصديق الحبيب أن توعدنا إلى أتباعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو اضرار الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك البدار للمجئ إلى حضرتنا لا تخاف شيئا ما ، عساك أن تنعم بآلاف الشرف ، وتحظى بالنعم التي نعتزم اغداقها عليك ، ولقد أصدرنا أمرا إلى حامل هذه الهدايا على تهئية كل ما هو لازم لجيشك ، بثمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على الدوام . »

وعلى الرغم مما يوحى به ظاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفى وراءها السم ، غير أن بوهيموند - وهو الرجل الفطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما تنطوى عليه نفس الامبراطور من الشر - كتم مشاعره ، وأخذ حذره الشديد ، وأزجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وتبع الدوق هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الوردار وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على شاطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يتأهبون لعبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحت الفرصة لهم ، فكروا فى وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اتضح المكر السيء لتانكريد - وكان مستعدا للدوام للعمل - هب كأنه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مستصحبا معه ما يقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزد سباحة الى شاطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسيوفهم ، ففرقت صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا يتعقبونه بعض الوقت وفتكوا بالكثيرين من رجاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهيموند الذى أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردتهم جيشا مسيحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقته ، وأنه لابد لهم من الانصياع لأمره ، وقاتل من أوصاهم بقتالهم .

وحينذاك اتضح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وأنه قول لحمته الخديعة ، وسنداه الرياء .

غير أن بوهيموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وأنه فى حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصدى للوقوف فى وجه ارادة بقية رجاله ، وراى أن يكتف
أحاسيسه ، حتى لا يثير حنق الكسيوس من غير فائدة يجنيها .

- ١٥ -

بعد أن اجتاز الجيش مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يبحث
الخطى وهو تحت قيادة جودفروى الحكيمة حتى دنى من المدينة ،
فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عيد الميلاد بخمسة أيام ، وهنا جاءت
سفارة ثانية من الامبراطور الذى أرسل يرجو من بوهيموند فى
الحاح أن يخلف وراءه قواته ، ويمضى لزيارته فى حرس قليل ،
فتردد بوهيموند فترة قصيرة وأجل تنفيذ هذه الأوامر بعض الوقت ،
لأنه كان يشك فى نوايا الامبراطور ويدرك ما يضره من الشر ،
وبينما كان يبحث فيما ينبغى عليه اتخاذه ، اذا بالدوق العظيم
جودفروى يقبل فى أبهة عظيمة ، تحوطه كوكبة شرف من النبلاء ،
وقد وفد على بوهيموند - استجابة لتوسلات الامبراطور الملحة عليه -
فى محاولة منه لحمله على زيارة جلالته الامبراطورية دون خوف أو
وجل ، فعانق كل منهما الآخر ، وتبادلا قبلات الحب ، ودارت
بينهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ،
فلما فرغا من ذلك أشار الدوق جودفروى - بناء على ما لديه من
التعليمات - على بوهيموند - بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر
فى بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابىء
بنصيحة الدق ، لعدم ايمانه بصدق ما يقوله الامبراطور كما
ذكرنا ، بيد أنه رضى فى النهاية لرجاء جودفروى ، ومضى مطمئنا
فى حراسة الدوق الى القصر ، فلما بلغه تلقاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح بوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المثل وأعلن تبعيته له ، وأقسم يمين الولاء له جريا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من قسمه انهالت عليه الهدايا الغالية التي لا تقدر بثمن ، والتي جئء له بها من الخزانة الملوكية ، حيث قدموا اليه الذهب والثياب والمزهريات والأحجار الكريمة ، وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .

★★★

أما تانكريد - ابن أخت بوهيموند - وكان رجلا يشير كل ما فيه الى عظمته - فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذهب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [بوهيموند] لا يزال في البلاط الامبراطوري انتقل هو بكل عسكره الى بيثينيا في اقليم خلقدونية الواقعة على لجانب الآخر من البسفور ، وضرب خايمه قرب جيش الدوق [جودفروي] الذي كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن في انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [الكسيوس] بتجنب تانكريد المجيء الى حضرته اشتد غضبه منه ، الا أنه تمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يغدق - بين آونة وأخرى - الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فإذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء البسفور - وصلهم بآيات التشريف .

وأقام البعيشان هنا في وئام واستقرا في انسجام على مقربة

من المدينة فى انتظار وصول الجيوش الأخرى ، ثم انضم الجميع بعضهم الى بعض فى جيش واحد فى السير الى الحج الذى اعتزموه .

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمنطقة التى حولها أهل المعسكر بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع بالوفرة منه حسبما يشاءون .

- ١٦ -

فى هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، شرع روبرت كونت فلاندرز العظيم فى الإبحار من « بارى » إحدى مدن أبوليا الساحلية ، وأرسى بعد إبحاره بجميع جيشه فى « دورازو » وتحاشى زمهرير الشتاء بنزوله وسط الغابات والمراعى وفى منطقة خصبة تزخر بشتى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى فصل الربيع تابع رحلته وهو أنشط ما يكون لينضم الى القادة الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر .

وأنفذ الامبراطور - كما فعل مع القادة الآخرين - رسلا من جهته الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يشيرون عليه بترك قواته خلفه ، ومتابعة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمثول بالحضرة الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل سابقوه فى هذا الموضوع مع الامبراطور ، فلما بلغ الكونت القسطنطينية مضى الى القصر فى شريطة ضئيلة من حاشيته ، فتلقاه الامبراطور بكل مظاهر الاجلال ، وعامله أطيّب معاملة ، فلم يكن من [الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذى

طلبه منه الامبراطور ، واذا ذاك انهال عليه من مظاهر التكريم والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاقه مثل هذا الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبته .

وصدر الاذن لجيش كونت فلاندرز بالبقاء عدة أيام قرب المدينة متنعما بأطيب الطعام ومستجما ، وقد أكثر الكونت في هذه الأيام من اجتماعاته مع الامبراطور لبحث المواضع التي بدت ضرورية ، فلما قرغ منها استأذنه في الرحيل بعسكره فأذن له ، فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض .

أقام القادة بضعة أيام يقص الواحد منهم على الآخر الأحداث المختلفة التي جرت له في رحلته ، وقد سادتهم روح البهجة ، حتى اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مرت بهم انتهوا أخيرا الى مناقشة المسائل الخطيرة ، وكان من الضروري بعد آن عقد كل منهم محادثات دقيقة مع الآخر أن يقرروا متى وكيف يكون انجاز المشروع الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا منهمكين في لوم رفاقهم الذين تأخروا في المجيء وتحميلهم مسئولية انصرام الوقت بلا طائل اذا برسول يصلهم من كونت تولوز وأسقف بوى ينبؤهم بانهما على مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة .

- ١٧ -

تلازم هذان الرجلان العظيمان منذ مستهل السير ، وظلا جنبا الى جنب بجيوشهما ، فكانا رفيقي رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن الآخر ، وكان في ركابهما رجال بارزون من علية القوم خلقا ومكانة ،

منهم : وليم أسقف أورنج ، ورينبولد كونت نفس المدينة [أورنج]
وجاستون دي بيزيه ، وجيرار دي روسيليون ، ووليم كونت
مونتبلية ، ووليم كونت فوريز ، وريموند بيليه ، وجاستون
دي بيارن ، ووليم أمانجو وكثيرون غيرهم ممن لم تع الذاكرة
أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء في ذاكرة الزمان ،
ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط
رؤوس آبائهم وفارقوا أحبائهم وأقاربهم ، وتخلوا عن أملاكهم
القسيسة التي ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح .

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا في خروجهم
وابتاعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا ،
واجتازوا لمبارديا ، حتى اذا خلفوا وراءهم الاقليم المسمى «فورم جيلي»
دخلوا استريا القريبة من «أكويليا» فأفضى بهم السير في
النهاية الى أرض «دلاشيا» الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين
المجر وبحر أدرياتيك ، والتي توجد بها أربع مدن كبرى هي «زارا»
و «سالونا» (المسماة أيضا بسبالتو) و «أنتيفاري» و «راجوزة»
التي يسكنها قوم قد أوغلوا في الهمجية ، وبلغوا من الوحشية
أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل .

وأرضهم مكسوة كلها بالغابات ، وتشققها الأنهار الكبيرة ،
وتحفل بالمراعى القسيسة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تناثر منها
هنا وهناك .

ويعتمد الأهالي في معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنام
باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا
بيننا عن بقية القوم في العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو
«اللاتيني» ، على حين يتكلم بقية الأهالي اللغة السلافية ، وسلوكهم هو
سلوك المتبربرين .

ولما دخل الكونت وأسقف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واقتراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأة المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمثونة .

ولما طالع الأهالي وجوه قومنا فزعوا فزعاً شديداً ، حملهم على ترك مدنها والتخلي عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسرة ، واعتصموا بالتلال والأدغال مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم ومتاعهم وان ظلوا يتابعون في خلصة - وعلى بعد - آثار جيشنا الزاحف ، ويفتكون بمن ترميه الأقدار في أيديهم من المرضى والمسنين والعجائز من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطيئة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم .

ولما كان الكونت يشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه عن هذا الحشد الكثيف ، فقد ولي قيادة الطليعة الزاحفة أمامه جماعة من الزعماء . وأما هو فقد وقف في المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاته كان آخر العائدين الى معسكره .



كان الجو مليئاً بالضباب الكثيف ، والظلام شديداً كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب جدا على السائر في الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طليعة الجيش كانت لا ترى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، وتكثر فيها المستنقعات التي تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكثيف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس .

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدماشيين والسلاف كانوا على

دراية تامة بالاقليم ، فراحوا يتابعون الجيش وهم على القمم الشاهقة .
وفى الغابات الكثيفة ، وكثيرا ما كانوا يبرزون فجأة من الغابات
لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من القادة طالما قاموا أيضا من جانبهم .
يردون على هجماتهم عليهم بمثلها ، فقضت حرايبهم وسيوفهم على
الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحشوا القتل فيهم أكثر
مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلاشين الى الأحراج القريبة منهم ،
متخذين منها ملجأ آمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض
هؤلاء الأشرار فى يد الجيش فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فيكفون .
- جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع متتالية يعبرون هذا الجزء من الاقليم .
وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له
« سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحيمًا
رضى الخلق فقد سخرى فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راجيا أن
يؤدى هذا الكرم من جانبه الى توثيق روابط الصداقة بين الجانبين ،
وحتى يضمن لمن معه مودة الألينا عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون
منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهدد من
وحشية هؤلاء القوم ، أو يخفف من قضاظتهم ، بل الواقع أنهم
ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن تسنى للجيش أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسيرة
اربعتين يوما داخل أرض دلاشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصليبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجالاته لمقابلة الكونت في دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتثلوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بالفاظ سداها الرقة ولحمتها المداهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور التي تضمنت الآتى :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الخافقين منذ أمد بعيد كثير من أخبار فطنتك ، وما اشتهرت به من حسن الأحداث شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا في اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك الينا لنؤكد لك - بسبب فضائلك - وعلى رؤوس الأشهاد - تقديرنا الشخصى لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع فى لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمتك - وأنت العزيز الغالى عند امبراطوريتنا - كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرجوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمجنء الينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اعداقتنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملي هذه الهدايا أن يهيثوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التجارى بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملامة ، »

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، فقرروا متابعة السير ، فساروا اياما كثيرة

قاسوا خلالها المشاق في اجتيازهم الأحراج والجبال ، حتى اذا جاوزوا بلاد ابيروس كلها نزلوا في الاقليم المسمى ببلاجونيا ، ناصبين معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الذيل فقد انتقى من دون الجند مكانا قصيا ايثارا منه لراحته ، ونصب هناك معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى قسيس عظيم كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن تتداركه ، فأبقت على حياته ، وما كان ذلك الا بقاء الا عن طريق الصدفة البحتة وحدها ، اذ طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط عليه فضل حمايته ، فلا يناله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغضب هذا بقية اللصوص ، فثارت بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا الأسقف المبجل ومن معه من بين أيديهم .



تابع العسكر بعد ذلك مسيرتهم ثانية فعبروا سالونيكاً وكل بلاد مقدونيا ، وظلوا يتابعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا مدينة « رودستو » البحرية المطلّة على البسفور ، والتي تبعد عن القسطنطينية مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين قدموا قبله يحضونه النصيح ، ويلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير ولكن فى ببطء ، أما هو فعليه أن يبادر بالخروج فى شزيمة ضئيلة من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون جيشه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذا ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى عاقبة للجيش الذى كان راغبا فى سرعة
الزحف .

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من
عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة .

- ١٩ -

تلاشى أخيرا تردد الكونت أمام الالحاق المستمر من جانب
مندوبى كل من الرسل الامبراطوريين والقادة [اللاتين] الذين
التمسوا هم أيضا منه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم
جميعا ، وترك جيشه تحت الحماية الدقيقة من جانب الأساقفة وغيرهم
من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبيا الدعوات
المتكررة اليه ، ودخل القسطنطينية فى رهط قليل من حاشيته ، وفى
حراسة مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالغ
الامبراطور ووجوه رجاله فى الترحاب به واطهار التقدير العظيم له ،
لكن ما كادت تنتهى كرمات الثناء التى قيلت لاستمالته وخديعته ،
والتى تضمنت الالحاق الشديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور
بالطريقة التى اتبعها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت
هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين
رفضاً باتاً .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية اذا
بالامبراطور قد استبد به الحق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما
فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحي

بمباغثة قوات الكونت وأخذها على غرة ، وأمرهم ألا يدخروا وسعا
في ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد شجعه على
ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل التزام القادة الآخرين بيمين
الولاء التي قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جيوشهم كلها
كانت قد عبرت البحر ولم يعد من اليسير رجوعها ، كذلك صدر الأمر
الى جميع السفن المتجهة لنقل التجارة أو الناس بحرا بعدم مغادرة
الشاطئ الآخر ، وبذلك تصبح كل فكرة للرجوع ضربا من العبث
لانعدام وسائل النقل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة
الخداعة ، وما اصطنعه من اغراءات كبيرة في حمل الجيوش على
العبور فردا بعد فرد حتى لا يتجمعوا كلهم في المدينة في وقت
واحد ، وكان الداعي له الى ذلك الأمر هو خوفه - كما شرحنا - من
أن يجيء هؤلاء العسكر فيكون في تجمعهم كلهم خطر ما بعده من
خطر عليه ، كما أن سخاء القادة لم يكن عن كرم أو حسن قصد ،
بل كان سياسة خبيثة تنطوي على المكر وهي وليدة اليأس ، ومع
ذلك فقد أقدم زعمائنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لثقتهم فيه
وتصديقهم لما يقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوية
الاغريق ، ولؤم نية الامبراطور وخداعه وختله الذي لا ينقضي ،
لا سيما منذ أن بالغ في السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم
بأقصى مظاهر حسن النية .

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور - وهم من أمراء
الخمسمائة وكذلك الموكل اليهم قيادة القوات الحربية - ينفذون
توجيهاته ، فقاموا سرا - والليل يلف الدنيا بظلامه - بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون قط أى خطر يأتهم من هذه الناحية ، فتراخى حراسهم ، وغفلت عيونهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وفتكوا بالكثيرين منهم فتكا ذريعا ، وذلك لأن المباغته أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانتضاء سيوفهم ، فجرت فيهم مذبحه محزنة ، وفر من نجى فرارا مشينا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تبصروا حالهم ، واستردوا شجاعتهم وعادتهم بطولنهم ، فأنزلوا كثيرا من الخسائر بتلك العصابات الحربية من مرتزة الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عبقرية آخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يتسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا تنتهى ، تأتيمهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون لليأس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماسهم تفتت كل يوم عن الذى قبله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل منال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واجهتهم ، وندم الكثيرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرون من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشاؤونهم مكانة ، والواقع أن الريينة ساورتهم فى قدرتهم على انجاز حججهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذتهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم اليهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الجيش ، وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مباليين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشرافه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لأنه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق إذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند في الوقت الذي ذهب فيه ريموند الى الامبراطور استجابة
للكتب العديدة التي جاءت من القادة ، ونزولا على التماساتهم
الكثيرة منه .

كذلك لام الكونت القادة لمداومتهم الالاحاح عليه بالمضى الى
الامبراطور حتى ترك جيشه وشخص الى القسطنطينية ، وأعلمهم
ريموند بالمصائب التي ألمت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم
طالبهم - كاخوة له - أن يشاروا لهذه الفعال الشائنة .



لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرغبته الصادقة في الانتقام
لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لتدخل سواهم من القادة
قدرة على ثنيه عما اعتزمه ، فقد اشتهر عنه انه كان رجلا صلب
الارادة ، قوى الشكيمة ولا يشنيه ثان عما أجمع العزم عليه ، كما
انه لا ينسى الاساءة أبدا .

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذي ذهب اليه ندم على
ما بدر منه ، ورأى أن يبعث في استدعاء القادة الذين لا زالوا
بجيوشهم على الشواطىء الأخرى طالبا اليهم المشول في حضرته ،
طمعا منه في أن يؤدي تدخل هؤلاء القادة - وهم الدوق وبوهيموند
وكونت فلاندرز - الى استرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوته ،
وعلى الرغم من شدة حنقهم جميعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم
ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رجاء
أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التي يشعرون أنها قد حاقت به
وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه في طريق الانتقام قد يؤدي الى
ضياع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون في
السير في طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحيم ، وكبت مشاعره المريرة واحساسه بالآلم ، وخضع
لنصيحة القادة ، ووافق على ما رتبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى
الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يشعرون به من
السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاستياء ،
وقد وحدهم جميعا شعور جماعى متين ربط بينهم جميعا لم يجد بدا
من التنازل والاعتذار للكونت أمامه وفى حضور بطانته ومن لا يمت
اليهم بصلة ، وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الإهانة التى
لحقّت الكونت ، وأن شيئا من ذلك لم يصدر عن أمره ، وقال انه
على الرغم من ذلك فانه راغب فى استرضاء الكونت ليؤكد له
برأته .

هكذا كانت تتكشف للعيان - يوما بعد يوم - خدع الاغريق
وخيانة الامبراطور ، ولم يعد هناك أحد من الزعماء لم يتضح له
وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسيوس تنطوى على
كراهية سوداء لشعبنا واحتقاره اياه ، ومع ذلك فلما كان تحقيق
هدف الحجاج يدفعهم الى أمور أخرى ، ولما كانوا هم أنفسهم تواقين
لانجاز مهمتهم على الوجه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن التجاوز
عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرافهم عن هذا المشروع المقدس
الذى جاءوا من أجله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فتصافى مع الامبراطور ،
وأقسم له يمين الولاء على الصورة التى أقسمها الآخرون ، فأصبح
الامبراطور منذئذ يحبوه بعطفه الشامل ، ويسخو عليه بالهدايا

الثمينة التي لا يحصيها العد ، والتي تبلغ قيمتها قدرا لا يدركه
التصور ، كما مضى يصل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ،
واذ ذاك استأذنوه في الرحيل فأذن لهم ، والتمسوا من الكونت
- على وجه الخصوص - ألا يبطئ في اللحاق بهم ، بل عليه أن
يجيء اليهم على جناح السرعة ، واذا ذاك انطلقوا عابرين البسفور ،
وانضموا الى كتائبهم الموجودة في بيثينيا .

أما غسكر الكونت [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية
حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر في ساعتهم هذه فاستجابوا
لأمره ، وانضموا الى الجيوش التي سبقتهم وان تخلف ريموند عنهم
للنظر في ترتيب أموره الخاصة ، وتصريفها تصريفا لم يحل بينه
- وهو الرجل الفطن - وبين الاهتمام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله
القادة الآخرون من قبله حين راح يرجو الامبراطور رجاء الملح أن
يصحب القوم في زحفهم ، على أن تكون له قيادة جيش المسيح ،
ويكون حينذاك صاحب الأمر فيه .

وعلى الرغم من أن جميع قادتنا - لا سيما كونت تولوز -
طالما التمسوا منه مرة بعد أخرى أن يتفضل بمرافقتهم كقائد لجيش
المسيح ، وأن يأخذ القيادة العليا بيده ، الا أنه ظل يتنصل منتحلا
المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعداء همجيين كالبلغار والكومان
والبشناق الذين لا يكفون عن الحركة على حدود الامبراطورية
لاغتنام الفرصة لشن هجماتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة
وأمانها ، وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة في المساهمة معهم في الحج
العظيم ، ومشاركتهم في النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى
عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصة للعدو
المحقق بها لينزل الضرر بها .

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما قاله بهتانا حشوه
الخدیعة .

وكانت غيرته من رجالنا هي التي دعتة الى هذا الادعاء ، لانه
كان يلتبس أى ذريعة تمكنه من كف مساعدته من شعبنا واعاقة
تقدمهم بأى وسيلة يستطيعها .

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا - وأعنى بهم جودفروى
وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى - قد أعدوا
حوائجهم وصاروا على أهبة الاستعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما
أزمعوا السير على مهل الى نيقية فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ،
ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نيقوميديا ، التى هى أكبر مدن
ولاية بيثينيا ، واذ ذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكتائب المتقدمة
وتحية الزعماء .

كان بطرس - تجنباً منه للجو القارس - قد أمضى الشتاء فى
هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحياة .
فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل ترحيب ، ولما
سألوه عما لقيه جيشه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق
بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والتمرد التى كان عليها
هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبته ، ونسب النكبة التى
ألمت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شيء 'سواه' .
فشاركه القادة الحزن العميق فى مصيبتهم ، ثم وصلوه هو ومن معه
بالهدايا الثمينة الجمّة .

ازداد حينذاك عدد الجيش زيادة كبيرة بعون الرب ، وذلك لان
الطوائف المختلفة اتحدت حتى صارت جماعة واحدة تابعت السير
تحت قيادة حكيمة لبيبة ، فبلغوا نيقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا
معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يقدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٩٠٧] ضربوا الحصار على المدينة :

حين فرغ كونت تولوز من انجاز شئونه في القسطنطينية استأذن الامبراطور في الرحيل ، فسبحا عليه ثانية بسخاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا .

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت نرمندي العظيم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معيته ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارترز وبلوا ، ولورد أستاس أخو الدوق جودفروي ، بايفاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا .

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وألان فيرجانت ، وكونون ، أحد سعاة برياني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل .

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهييج العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء .

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بقيتهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على قضاء الشتاء في ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلايريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حتى استدعوا أتباعهم الحجاج ، وجهزوا متاعهم للسفر ، ويمموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فاجتازوا الولايات الوسطى لا سيما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراقيا ، وكانت رحلة هادئة أبلغتهم القسطنطينية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاء الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلالته وجميع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرقا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء الثلاثة ، مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحقا اياهم بكلماته الرقيقة ، ووعوده الجمّة ، فقطعوا له على أنفسهم العهد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم - قبل ذهابهم الى الامبراطور - بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا ، ومن ثم فإنهم اقتداء منهم بهم نهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يميننا كاليمين التى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حظوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على منحة فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثر المال بين أيديهم ، وجاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس الثمينة والأواني التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك الثياب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى جاوزت عطاياه فى طبيعتها وقدرها كل ما نتصوره نحن ، ثم انطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج ، وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجمعهم الى نيقية حيث كانت بقية الجيش الصليبي لا تزال بها ، فتلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم .

- ٢٣ -

اتصل بمعسكرنا اغريقى اسمه « تاتيكيوس » كان موضع ثقة الامبراطور ، وكان لثيم الطبع غدارا ، يدل أنفه الأفطس على ما انطوت عليه نفسه من الشر ، وكان زعماؤنا قد سألوا الامبراطور أن يمدهم بمرشد لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بتعيين [تاتيكيوس هذا] ليكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفته التامة بتلك النواحي هى وحدها — كما قيل — التى دعت الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم تاتيكيوس بقواته الخاصة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصيح عاليا بين الدجاج ، وكالحية الرقطاء بين ثعابين الأكل ، فكان أذن الامبراطور وعينه فى كل ما يجرى بالحملة ، ويفسر له كل ملاحظة يبدىها أى شخص تفسيراً يرشح بالحقد ، ويتلقى من مولاة على يد الرسل الكثيرين المترددين بينهما غدوا ورواحا موجزا للمخطط التى يوجه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد تألف هنا - ولأول مرة - جيش متحد للسيد الحى ،
وكان فى مجموعه مكونا من زمر شتى ألقت قيادتها الى رجال
تزعموها فى أماكن مختلفة وفى أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه
الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ،
ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم
أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكراتهم بها ، أقول لم
يتأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة
المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن .

وأحصوا العسكر فوجدوهم ستمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى
مشاة لا ظهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا
مائة ألف .

وقد عسكر هذا الجيش بأجمعه أمام مدينة نيقية ، مكرسا كل
نشاطه بشتى الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول
ثمار عملهم للسيد فى اخلاص .

هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

١ - وصف مدينة نيقية وذكر أسباب شهرتها ،
وكيف جمع حاكمها قلج أرسلان قوة كبيرة من
الترك من كل نواحي الشرق لمحاربنا ، وكيف
أعدوا الكمين لمهاجمتنا .

٢ - قواتنا تهاجم المدينة في ضراوة ولكن المواطنين
يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق البحيرة ،
فيرسل اليهم قلج أرسلان رسالة يشد بها
أزرهم .

٣ - القبض على حامل الرسالة وافضاؤه الى القادة
بكل أسرار العدو ، ووصول كونت تولوز

(الحروب الصليبية ج ١) - ١٩٣

٤ - وكان الغائب الوحيد - على جناح السرعة
استجابة للزعماء الآخرين .

٥ - قلع أرسلان ينزل من التلال ويهاجم معسكرنا
بعنف ، ولكن الهزيمة تحقق بجيشه ويرسل
رجالنا بعض امارات انتصارهم الى الامبراطور
فيكافئ الزعماء على ما فعلوا .

٦ - اقامة القيادة في الأماكن التي خصصت لهم
ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحي وهلاك
طائفة من النبلاء في المعركة .

٧ - أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسوار
فيهلك تحتها كثير من الصليبيين ، كما أن
البحيرة تعوق نجاح محاولتنا .

٨ - الصليبيون ينقلون القوارب من البحر على
العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالي
في يأس ودهشة الى براعة شعبنا .

٩ - معاودة الهجوم على نيقية من كل الجهات ،
ومحاولات كونت تولوز التغلب على برج أمامه
واستعماله من أجل ذلك الآلات وشتى الحيل
الممكنة ، ولكن مقاومة الأهالي أدت الى فشل
جهوده .

١٠ - البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروي ، وقيام
أحد الأهالي بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حدث اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه
أحد رجالنا البارزين .

١٠ - أحد الصناع يقدم خدماته للزعماء الياثسين
فيبنى لهم آلة ويحدث نقبا بالسور الذى
صرعان ما ينهار .

١١ - زوجة قلع أرسلان تقع فى الأسر هى وولداها
أثنىاء محاولتها الفرار ويستولى اليأس على
الأهالى فيفاوضون تاتيكيوس الاغريقى كى
يسلموهم ، ويبعث القادة الرسائل الى
الامبراطور بشأن هذا الموضوع .

١٢ - الامبراطور يوقد رسلا من قبله لتسلم المدينة ،
كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن
السيخط يستولى على الصليبيين ويشكون من
شجب الاتفاق بينه وبينهم ، ويصدر الامبراطور
أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينية ويقدم لهم
الهدايا ويبعث بهم من هناك الى بلادهم .

١٣ - رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه
ويتفرق القادة ، ويقوم قلع أرسلان باعتراض
الصليبيين مرة ثانية بجيش كثيف .

١٤ - نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ،
وأما جيش بوهيموند فيصبح بأكمله فى خطر
عظيم ، كما أن تانكريد يتنجو من الأسر بأعجوبة .

١٥ - القادة الآخرون يصلون لنجدة اخوانهم
المنهوكين ، فيفر قلع أرسلان ويحقق البوار .

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاضت أيديهم
بالغنائم ، ويتجمع العسكر كلهم مرة أخرى .

١٦ - الجيوش تدخل « بيزيديا » ولكنها تكابد هنا
الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر في حال
بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ - انفصال بعض القادة عن بقية اخوانهم وتخريبهم
الاقليم المجاور ، ونجاة الدوق من الموت بأعجوبة
من هجوم دب عليه .

١٨ - اصابة كونت تولوز بمرض أشفى به على الموت ،
وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى
« مرعش » حيث تموت زوجة بلدوين أخى
الدوق .

١٩ - ذهاب تانكريد الى قيليقية ومحاصرته طرسوس ،
وزيارة بلدوين - أخى الدوق - لتلك النواحي
واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ - بلدوين يطلب انزال راية تانكريد من فوق
القلعة ليرفع رايته مكانها ، فيرتد تانكريد غاضبا
ويستولى « جلف » على أدنة .

٢١ - استيلاء تانكريد عنوة على المصيصة وهى إحدى
المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ - استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة
صليبي أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

٢٣ - بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاتلة بلدوين ،
ولكنهم يهدأون أخيرا ويوصل الى طرسوس
أسطول من الغرب محمل بالرجال .

٢٤ - بلدوين يزحف على المصيصة بعد استيلائه على
طرسوس ، وتنشب معركة بينه وبين تانكريد
ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان .

٢٥ - بلدوين يعود للجيش الأصلي أما تانكريد فيغير
على كافة أرجاء قيلقية ويستولى عليها ، فيسرع
الحكام المجاورون لمهادنته كسبا لوده ويقدمون
الهدايا اليه .

هنا يبدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية - وهي إحدى مدن بيشينيا وعاصمة الاقليم - خاضعة في القديم لنيقوميديا ، ثم تحررت من سلطانها عليها على يد الامبراطور قسطنطين ، تنفيذا لما قرره أول مجمع ديني مقدس انعقد فيها ، فقد حدث في عهد كل من البابا سلفستر واسكندر الموقر بطرك القسطنطينية والامبراطور قسطنطين الذي أشرنا اليه حالا أن اجتمع في نيقية مجمع مقدس حضره ثلاثمائة وثمانون من آباء الكنيسة ليتخذوا قرارا ضد هرطقة آريوس وأتباعه ، فتمخض المجمع عن شجب ما عليه هؤلاء من عقيدة فاسدة ضالة ، واستبدالها بالحق المبني على شهادة الكتاب المقدس ، وبذلك قدم المجمع الى كنيسة الرب ايمانا نقي الجوانب ، كما عقد في نفس المدينة مجمع عام آخر ، يعرف بالسابع ، في زمن الامبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن ايرين ، احتجاجا على اللا أيقونيين أعنى المهاجمين للصورة المقدسة ، وكان يجلس على كرسى رومة اذ ذاك البابا أدريان . وكان بطرك القسطنطينية حينذاك ثاراتيوس الموقر ، وتلقى الهرطقة المشار اليهم في هذا المجمع من الكنيسة الارثوذكسية الحكم العادل الذي يستحقونه بشجب بهتانهم .

★★★

وتقع مدينة « نيقية » فى الاقليم السهلى ، وتمتّع بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التى تحيط بها من شتى النواحي ، كما أنها حافلة بأحسن الحقول فى المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سخرت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى تمتد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وغسلت جدرانها .

وزيادة على ذلك فان نيقية مكتظة بالسكان الذين هم مساعير حرب ، وتقوم بحراستها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع ، وابراج شاهقة الارتفاع ، قدت من الصخر الجلمود ، حتى ان الدهشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقتربون منها فرأوا وسائل دفاع ضخمة .

كانت المدينة وبقية الاقليم والولايات المتاخمة لها فى هذا الوقت تحت حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، يدعى « قليج أرسلان » ويكنى « بالشاه » التى تعنى الملك فى اللسان الفارسى ، وكان قليج أرسلان هذا على جانب كبير من الحذق ، وما كان يسمح بعزم قواتنا على المجيء حتى أخذ للأمر أهبطه ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكام تلك النواحي ليخول بين الصليبيين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقنصاعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بذله أن يجمع اليه من فارس وما تاخمها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقية » وتجنيب الناحية بأجمعها ويلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل - وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجينيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسيوس [كومنين] - أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه - وهو عم قليج أرسلان من الاستيلاء

عنوة على جميع الأقاليم الممتدة من خليج البسفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما تمتد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلت معظم تلك الأراضي في ذلك الوقت الى قلع أرسلان الذي استغل ملكيته اياها ، فتطلع الى الاستيلاء على كل الاقليم الممتد من طوروس في قيلقية الى البسفور ، ومن ثم كان له - وهو على مدى رمية قوس من القسطنطينية ذاتها - نوابه الذين يجلبون له الضرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاتاوات من كل النواحي المحيطة بالاقليم .

كان هذا الحاكم يقيم في المناطق الجبلية المجاورة ، التي لا تبعد عن قواتنا أكثر من عشرة أميال ، وكان يترقب الفرصة المواتية لمهاجمتها دون أن يعرض نفسه للخطر بفضل ما توفر له من جيش بذل الجهد في جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذي يؤرقها من هذا العسكر .

- ٢ -

لم تكد قواتنا تقف أمام المدينة حتى شنت هجوما عنيفا عليها رغم عدم حسن ترتيب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فإن عسكرنا الذين جاءوا أولا قد تخيروا لأنفسهم مواضع محددة يقيمون فيها ، وخصصوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالي من دخول المدينة أو الخروج منها غير أن البحيرة الملاصقة لأسوار المدينة - كما قلنا - كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السفن الموجودة

فيها من السلامة لمن يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، ونقلهم حيث شاؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا عن تقييد حرية التنقل هذه ، ولكنه استطاع بثتى الحيل أن يمنع الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة جميع مسالكها ومنافذها ، ولما عرف قليج أرسلان أن مدينته تعاني أهوال الحصار فقد أرسل اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينة في قلوب أهلها ، ويشجعهم على الاستمرار فى الصمود ، وقد أرسلهما فى قارب يعبر بهما البحيرة ، وبعث معهما عبارات التشجيع التى جاء فيها حسب العادة •

« ان قدوم هؤلاء المناكيد المتبربرين الذين يظنون أنفسهم قادرين على فرض الحصار على مدينتنا لا ينبغى أن يسبب لكم خوفا كبيرا ، لأننى مرابط الى جواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء العظماء ، كما أننى فى ارتقاب أعداد أكبر قادمة بعدهم ، وحين يلتئم شمل هذه القوات كلها فى جمع واحد فسوف نفاجئ معسكرهم بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم لمساعدتنا ، وكونوا مستعدين لفتح الأبواب وانهضوا متحدين لا يشغلكم شغل سوى مهاجمتهم ، ولا ترهبكم كثرة عددهم اذ ليس عندهم من العدد والعدة ما يكافىء ما عند قواتنا النشيطة ، لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد الغرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهقهم بعد المسافة ، وفيت فى عضدهم ما صادفوه من المتاعب ، وهم لا يملكون سوى جياذ لا تصمد للمقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا نظراء لقواتنا التى وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم ان تتذكروا كيف انتصرنا فى يسر على جيشهم القوى ، وأوردنا ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى فى يوم واحد ، ففروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذتكم الجزع . لأنكم تلقون نهار الغد نجدة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » •

ظل الرسولان مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان
يرسوان فيه ، وبينما كانا يتلمسان منفذا أمينا يدخلان منه اذا
برجالنا يباغتونهما على حين غرة منهما ، فوق أحدهما في الأسر ،
وأما الآخر فقد قتل خلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم
يمسوه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف
النقاب عن كل شيء وأخبرهم عن أرسله وعما حمله على إرساله .
فاتضح من روايته أن قليج أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالي أنه
قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجند القوي الذي جمعه ، وقد
أجمع العزم على مباغته معسكرنا غدا .

فلما عرف زعماء كتائبنا أن قليج أرسلان على وشك القدوم
أمروا بإبقاء الأسير تحت الحراسة ، وبأدروا في لحظتهم فأرسلوا من
قبلهم الى كونت تولوز وإلى أسقف بوى - اللذين لم يكونا قد انضموا
إلى بقية العسكر حتى هذه اللحظة - رجلا يلتمسون منهما المجيء
على جناح السرعة ، فلما تسلم هذان القائدان تلك الرسالة من
إخوانهما جزعا عليهم جزعا غير قليل ، وندما على تأخرهما عن اللحاق
بهما ، وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلغا المعسكر مع أولى
تباشير الصباح وقبل شروق الشمس ، وتقدما وحولهما الناس
ما بين مهلل وهاتف ، والرايات ، تخفق أمامهما ، وتلمع الأسلحة
في الجو ، وما كادا يضعان أثقالهما جانبا ليتخذا مكانا مع بقية
الجيش في المكان المقسوم لهما حتى انحدر قليج أرسلان من ناحية
الجبال - وكانت الساعة الثالثة طبعا لما قاله الأسير ، واجتاز السهل
في طريقه إلى المدينة ، على رأس حشد كثيف من الفرسان ، إن تغدهم
تجدهم قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالنا يرون العدو حتى
هبطوا إلى أسلحتهم فحملوها ، وإلى ظنون الحزب قد قوتوها ، وإلى
الأبواق فلغخوا فيها ، وأيقظوا العسكر كلهم فزقبوا صفوفهم
استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قبله يعرضون لهم أهبتهم ، وتهيبوا

لمواجهة العدو القريب منهم فى صورة التزام فيها غاية الالتزام بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا .

- ٤ -

أرسل قلعج أرسلان كتيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم ليكونوا طليعته ، نحو البوابة الجنوبية التى وكلت حراستها الى كونت تولوز ، لكن لما كان قلعج أرسلان غير عالم بوصول ريموند فقد توقع أن يجد البوابة كعهده بها فى اليومين السالفين من غير حراسة ، بيد أن أمله تبدد هباء اذ صادف عندها من الجنود المرابطين أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغييرات .

ومن ثم أسرع فشن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رغم أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ، وبددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أدبر هاربا ، بيد أن ظهور قلعج أرسلان على رأس امدادات قوية أحيا عزيمته عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انفرط عقد نظامهم .

فى هذه اللحظات لاحظ الدوق وبوهيموند وكونت فلاندرز أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تقف صفوفها متراسة ، كما لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت تولوز مبلغا جاوز الحد ، بسبب جيشن كاسح بأسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات العدو والقريية ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان يبدو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والباس ،

الا أنه لم تمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى فقدوا أربعة آلاف
نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقيتهم على الفرار .

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، فاستمروا
يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلع
أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو - منذ ذلك اليوم وأيام
الحصار التالية له - على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، وإذا كان
زعمائنا المذكورون آنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فان تانكريد وولتر
دى جار لاند صنجان الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجر دى بار
نفيل أبدوا من البسالة ما أذاع صيتهم وأكسبهم حسن الأعداء .

ورغبة فى زيادة بث الفرع فى قلوب الأعداء فقد صدر الأمر
لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس الترك المقتولين الى داخل
المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعثوا الى الامبراطور ألفا
من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب
فى نفسه ، وزيادة على ذلك فقد قام الكسيوس بمكافأة زعماء
الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع الثياب
الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضرورية
لهم من غير إبطاء عليهم ، وأمر بتجهيز سوق حافلة بالبضائع من
أجلهم .

أراد قوادنا تنفيذ غرضهم ، فأوا من الملائم فرض الحصار على
المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع القواد فى أماكن
استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ،
عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا
منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق
معين من الزعماء .

فرايط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب الشرقى .
أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهيموند بجيشه
ومعه تانكريد والقادة الذين تبعوه ، والذين ذكرنا أسمائهم من قبل .
وكان يلى هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى
مع جندهما .
كما خصص الشطر الجنوبى لريموند كونت تولوز ولأسقف
بوى بمن معه .
وقام ستيفن كونت شارترز وبلوا بنصب معسكره وراءهم .
وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام .
ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة
على وجوب الإسراع فى نصب الآلات اللازمة لتقويض الأسوار ، وهى
الآلات المسماة بالآلات المتحركة .
كذلك صدرت الأوامر بالتعجيل ببناء آلات رمى المنجنيق
وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمة لصنعها من
الغابات القريبة .

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجاء بالفعللة الذين راحوا يتنافسون
فيما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، لينفرغوا لمهاجمة المدينة ،
وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجماتهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرمهم طالعهم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين نبل المحتد ورفع المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالديرون ، وبلدوين الغنتي ، فقد هلكا وهما يقاتلان أروع قتال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أوداه صريعا ، ونجا الآخر سهم غرب أودى بحياته ، ومن ثم قرر القادة شن هجوم ثان ، ولكن هلك فيه وليم كونت فوريز ، وجالو دي ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، فقد رميا بسهمين أصابا منهما مقتلا .

وأصاب المرض هنا أيضا دي بوسسا أحد نبلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فذب الذعر في نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مثواهم الأخير محاطين بالشرف والحزن العميق ، وكان موكب جنازتهم موكبا حافلا لم تجر العادة يمثله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرفيع .

- ٦ -

وحدث في مرة أخرى أن كان جميع القادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل في ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو قليلا من التمهّل ، وراحوا يحاولون بكل ما في وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يتمكنون من شق طريق لأنفسهم يقتحمون منه المدينة .

وانصرف كونت هارتمان وهنري ديش - وهما نبيلان من مملكة التيوتون - وانصرف أتباعهما وخواشيهما ومعاونوهم الى

نصب آلة صنعت - على أحسن ما تكون الصنعة - من جذوع البلوط التي شدوا بعضها الى بعض شدا متينا ، واحاطوا الآلة بأعمدة غلاظ ، ورتبت عسى أن تسع فى جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بتقويض السور ، فاذا صار الفرسان فى جوف الآلة أمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضخمة التي ترميهم بها الآلات . لكن حين أسندت هذه الآلة الى الجدار اشتد الأهالى فى رميها من فوق رميا أسفر عن تحطيمها تمام التحطيم ، بسبب ما انهار عليها من القذائف الحجرية ، فتناثرت أجزاؤها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشتد حزن الناس على هؤلاء النبلاء ، وعظم الكرب لضياح جهد أيام كثيرة صرفوها فى بناء تهدم عن آخره ، ولم تعد له أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصير أولئك الشجعان الذين تفترت القلوب للنهائية التي انتهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراود النفوس ويهدد الجوانح ، ليقينهم الجازم بأن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم فى سبيل المسيح فى هذا العمل إنما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياة الدنيا ، ولادراكهم الحقيقى أن هؤلاء الرجال الذين ماتوا فى ذلك القتال ماتوا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واستهانوا بالحياة الدنيا ، واستمروا يواجهون شتى المخاطر بقلوب ثابتة الجنان ، ومن ثم فقد اتفق القادة على الاستمرار فى مضاعفة رمى جميع أسوار المدينة ، وراح كل قائد يبذل قصارى جهده فى تشديد الحصار - فى قطاعه الذى وكل اليه - شدة حملت بقية الناس على التحدث بما كان منه . وسار العمل قدما ، وان كلفهم غاليا ، كما أن المعارك الموصولة والكمان شبه الدائمة ، لم تدع لأهل البلد وقتا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أفسدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التي بذلوا من أجلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمُحْصُورِينَ الَّذِينَ تيسرَ لهم بِرُكُوبِهِمْ ماءها
أَنْ يَجْلِبُوا ما يَشَاؤُونَ مِنَ الطَّعامِ والمُثُونَةِ ثُمَّ انها كانت تمكنهم بين
آونة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشية الى المدينة تحت
بصر قواتنا التي كانت تقف مكتوفة الأيدي عاجزة عن منعهم
من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع القادة أحباب الله للنظر في هذه المشكلة على
وجه الخصوص ، وتدير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأي
منهم أخيراً على ارسال رهط من بينهم الى البحر ، تحرسهم كوكبة من
الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من
اليابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مستُضمِلين في ذلك ما تيسر
لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل ، ورأوا
أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدي الى فشل جميع مجهودات
الصليبيين وضياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود ثمة جدوى لأي
شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسر السيد
طريقهم ، وكلاً محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك
من الحجم المتوسط فحصلوا عليها في سهولة من الامبراطور ،
وجزوها على اليابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو
أربع الى بعض حطب طول السفن التي يحتاجونها ، وأمكن بهذا
النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيرة ، مسافة سبعة أميال أو تزيد ، بعد أن شدوا الحبال الى أكتاف الرجال ورقاب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم تسع الواحدة منها ما بين خمسين ومائة مقاتل .

ولما تم سحب هذا الأسطول على اليابسة ، وفرغوا من انزاله الى البحيرة ، بلغت فرجة الجيش الصليبي غايتها ، وأسرع الى الشاطئ ، وجيء بالجدافين المهرة والرجال المفتولي السواعد المشهود لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما امتلأت قلوب الجميع بالثقة فى استيلائهم على المدينة .

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر مما اعتادوا رؤيته ، فتملكتهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى جاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو .

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد بذلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوها الى البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم اذ نجحوا فى تنفيذ عمل يعتبر من الميثوس منه وشبه مستحيل .

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصليبية الى سد مخرج المدينة عن طريق البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمل كل كتيبة سلاحها ، وتقف بقيادة قائدها فى المكان المخصص لها ، كما نودى بتشديد الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل قائده يشهد من عزم رجاله ، ويخرج على رأسهم الى المعركة .
وهم في أكمل سلاح ، فلما تم ذلك كله جرت معركة لم تكن في
الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أيما إبداع في استعمال الآلات ،
فدللوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملغمة
الأسوار ، مضى غيرهم يقذفون الأحجار الضخمة على الحصون ليضعف
صمودها .

أما القسم الجنوبي الذي عهد به الى كونت تولوز ليتخذه
مركزا لهجماته فكان به برج يبرز كل برج سواء في ارتفاعه
الشاهق وبنائه المحكم ، وقيل ان زوجة قلع أرسلان كانت تقيم على
مقربة منه .



وظل الكونت بضعة أيام يبذل كل جهده لهدم هذا البرج فما
أفلح ، بل بات مساعيه كلها بالفشل اذ على الرغم من موالاته رميه
بالصخور التي كانت تنصب عليه من آلتين الا أن البناء الصلد أثبت
أنه من المستحيل زحزحة حجر واحد منه ، فلم يشن ذلك الكونت
عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التي أعدها
لقصفه ، غير أن موالاة قذفه بكتل الصخر والأحجار الثقيلة أصابته
بالشروخ فوهت مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اضعافه ، فلما رأى
العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وثبة قوية عبروا بها الخندق
المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار في محاولة منهم لتقويضه ، وكان
كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من
فتح ثغرة فيه .



كان الأهالي يدركون أن الخطر يتهددهم ان انهيار البرج ،
فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والأسمنت حتى اذا زعزعت الآلات
أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا في
طريق الذين يحاولون فتح الثغرة .

غير أن رجالنا نجحوا في هذه الأثناء في تشييت ستار متين الى
السور من هجمات العدو ، ثم قيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بذلوا
من الجهد غايته ، وبفضل عددهم الحربية ، وتمكنوا من فتح ثغرة
كافية لادخال رجلين في غير مشقة كما أخذ الأهالي في الوقت ذاته
يزيدون من مقاومتهم العنيفة ضد عدوهم ، وراحوا يقابلون الحيلة
بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة مثلها ، وأظهروا روحا لا تقل عما
عند الصليبيين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأنهم رجل
واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تسير بين أيديهم تسنى
لهم العثور عليه ، وتكاتفوا في رد العدو وتقادى الأهوال المنصبة
عليهم .

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن السور والقائمين بصدد القوات
المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ،
وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول
سترها ، وقد أذاق هذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب . بما كان
يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كيد
لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق
جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتنكب قوسا ضخما ، وتخبر
مكانا مناسباً ، وسدد رميته في دقة : فأصاب السهم - وقد انطلق -

أحشاء هذا الخاسر فجندله صريعا على الأرض قد فارقت روحه فلقى
الجزاء الحق الذى محا الالهانات الجمّة التى كانت يصبها على
الصليبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على منواله فوضعوا
خطة محكمة كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فزعهم
من الدوق استبد بأكثرهم فقللوا من رميهم رجالنا بالسلاح ، وكفوا
عن ملاحقتهم بالالهانات ، على أن رجالا غيرهم لم يعلموا نبأ هذه
النكبة فثابروا على نشاطهم فى الدفاع عن المدينة من أماكن أخرى
على طول السور من أخذهم الحذر الشديد ، ولم يكفوا عن إصابة
رجالنا يرمونهم وهم على الأسوار والأبراج فيتركونهم ما بين جريح
وقتيلى ، ولم يكتفوا بأن يصبوا عليهم القار والزيت والدهن وغير
ذاك من المواد التى تؤهيج النار ضراما ، بل زادوا على ذلك بأن راحوا
يرمون النار المشتعلة على آلاتنا فتلف أكثرها ، إلا ما كان منها فى
أماكن شددت عليها الحراسة الدقيقة .



أما رجالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكاثوا يشنون
هجومهم العنيف على البرج ، واستمروا على ذلك الحال من النشاط
حتى النهاية ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما تقبوا جزءا من السور نهارا
رماه العدو ليلا فأنهم سرعان ما تراخوا فى جهودهم بعض الشيء ،
حتى إذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن
رجلا منهم شجاعا على المكانة - وهو فارس من جيش كونت نرماندى -
قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقتفى الآخرون منواله ،
فلبس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهينا بكل
خطر ، ودنا من السور متخذًا من ترسبه مجنا يقيه العطب ، هادفا
من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأهالى
فى الليل ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشنونه من أعلى هجوما عنيفا ، فباعت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجرؤ أحد من الصليبيين على القدوم لنجدته ، فتردى قتيلا قد سحقته القذائف الحجرية الضخمة ، فهلك تحت السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أشد الرغبة فى انقاذه ، الا أنهم كانوا أعجز ما يكونون على مده باى عون من جانبهم ، فجذب المارقون الجثة الهامدة بالخطاطيف الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حيث ظلت موضع سخريتهم المقذعة ، ثم جردوه فى النهاية من درعه وسلبوه خوذته ، وألقوا به الى قواتنا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يشنون عليه وعلى شجاعته ، ثم دفنوه بما يليق به من الاحترام وسحبوا جثمانه فى قبره ، ولم يشكوا أبدا فى أن ميتته هذه كانت عظيمة فى عين الرب ، وأن روحه - وقد لقيت هذه الخاتمة النبيلة - سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع - كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سيوفى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية مجيدة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء زعماء جيوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عاداتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعهم ، بل تبينوا أن واقعهم جرى على العكس مما رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثروا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجد فيما ينبغى عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة ، اذا برجل لمباردى يأتيهم وينبئهم أنه لاحظ
ألا جدوى من وراء جميع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم ذاهب
ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهارة فائقة فى هذه
الصناعة ، وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللازمة والمال الكافى
لاتمام العمل يأخذونه مما عندهم فى خزانتهم العامة فانه بمشيئة
الرب منجزه فى ايام قلائل معدودات وأنه مدمر البرج ، وفاتح فيه
ثغرة واسعة ، ان يشأ الجميع ان يقتحموه منها لم يتعسر ذلك
عليهم ، وأكد لهم أنه متم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ،
فأمدوه بما يكفى نفقاته مما أخذوه من الأموال العامة ، هذا بالإضافة
الى تخصيصهم مبلغا مناسباً مكافأة له على جهده .

وجيء له بالمواد التى أرادها ، فعمل آلة رائعة الصنع صممت
تلى هيئة يستطيع من بداخلها - رغم مقاومة العدو - أن يعلقوها الى
البرج من غير خطر يهددهم ، فان دخلوها أخفتهم وتمكنوا من متابعة
عملهم فى تفويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم .

وأنجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاؤها
بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحي حسبما أشار
[صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ،
وبدأوا عملهم فى تفويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم .
ثم دفع القوم الآلة بمن فى داخلها من الصناع ، حتى اجتازت الخندق
ثم ثبتوها الى الأسوار فى براعة ومهارة فائقتين .

على أن الأهالى لم يفارقهم اندفاعهم الذى طبعوا عليه ، فراحوا
يرمون الآلة من عل ، ويقذفونها بالنيران المشتعلة فما أجدتهم هذه
القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليها لأن الانحدار
الشديد لكل من السقف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

أن تستفر حيث رميت ، فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ،
وسرعان ما أخذت ثقة الأعداء تتزعزع فى أساليبهم التقليدية ، وكان
اعجابهم بعبقريه المخترع وقوة الآلة ، اعجابا بالغاً لما اتضح من فشل
كل حيلة حيالها .

كان الذين بداخل هذا المخبأ آمنين تماماً من مكائد العدو ،
ومن ثم ظلوا يتابعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل
ما أوتوا من قوة ، ولم يكد الصدع يلم بحجر الأساس فيخلعه حتى
وضعوا مكانه العروق والأعمدة الخشبية خوفاً من أن ينهار ما فوق
السور على الآلة فيسحقها سحقاً اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة
قادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكتلة ان هى انهارت عليها .

ولما اتضح أن البرج قد نقب بما يكفى لسقوطه ، أشعلوا
النيران فى الدعائم التى يقوم عليها الحائط الآيل للسقوط ، وجيء
أيضاً بمواد ملتهبة تعمل على بقاء النار مشتعلة على الدوام ، واذ ذاك
ترك العمال الآلة وغادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف
الليل أو كاد أتت النار على الأعمدة الخشبية فصيرتها هشيماً ،
وانهار البرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثاره فى الناس
جميعاً - حتى من كانوا على مسافة قاصية - فزعا وجفت له قلوبهم ،
ونبه صوت انهياره الجند فهبوا الى أسلحتهم مجتمعين العزم على
اقتحام المدينة عنوة .

- ١١ -

ظلت زوجة قلع أرسلان - حتى هذه اللحظة - صابرة صبرا
شديداً على تحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ الفزع منها
غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت - كعادة النساء - بأعداد السفن

وصحبت جواريتها وكل أهل بيتها ، وانفلتت سرا من المدينة عازمة على التماس مكان يكون أكثر أمنا وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا قد أقاموا حراسا فى القوارب الراسية بالبحيرة لمنع المحصورين من الدخول أو الخروج ، واذا كان هؤلاء الحراس رجالا عقلاء قد أعدوا لكل شئ عدته ، ريقظين أشد اليقظة فى مراقبة أية حركة فقد تكشف لهم أمر هذه السيدة وهى على وشك الهروب ، فأمسكوها ومعها ولداها الصغيران وساروا بهم الى القادة الذين أمروا بوضعها وولديها تحت الحراسة الكثيفة .



أما الأهالى فقد مسهم الفزع الشديد بسبب الشجرة التى تمكن عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سيدة لها هذه الخطورة ، وتملكهم اليأس القاتل من قدرتهم ، فأرسلوا فى لحظتهم وفادة الى الزعماء يلتئمسون منهم منحهم هدنة لترتيب خطة الاستسلام .

ولما كان تاتيكيوس الذى تكلمت عنه من قبل رجلا شديد المكر كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالى لابد أن يتخلوا عن دفاعهم عن المدينة ، ومن ثم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه نصحهم فيه أن يستسلموا للامبراطور اجلالا له ، كما أشار الى ان جيش الحجاج الواقف الآن قبالة المدينة مشغول هذه اللحظة بانجاز أمور أخرى ، وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتراكهم فى الحصار عن طريق الصدفة البحتة قد بعدوا تماما عن خطتهم الرئيسية ، كما أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس الى جانب الصليبيين) ، وأن فى قدرتهم الاعتماد التام على رحمته الجديرة بشكرهم ، وحينذاك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يستسلموا - اذا

استسلموا - الى الامبراطور وأن يؤثروه على قوم مجهولين ،
وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور
الذى سوف يتمكن اذ ذاك - بمعونتهم من استرداد المدينة التى
انتزعت منه ظلما منذ قريب بسبب بطش الأتراك .

آتت هذه الحجج القوية وأمثالها أكلها فى حمل الأهالى
المجتمعين على موافقة [تاتيكيوس على ما طلبه] مشترطين عليه ضمان
سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اشترطوه عليه فقد
آثروا أن يسلموا المدينة وأنفسهم وكل ما ملكت أيديهم الى
الامبراطور .



لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب القادة الصليبيين
نظرا لأنهم كانوا فى الواقع يتطلعون الى خانمة تختلف كل الاختلاف
عن هذه الخاتمة ، ولم يكن من غرضهم أن يقيموا فى نيقية أطول
مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم
وبين ألكسيوس] فتدفع غنائم المدينة وأسلابها الى الجيش تعويضا
له عن المشاق التى كابدها والخسائر التى منى بها وتحملها .

على أن [القادة اللاتين] اشترطوا - قبل أن يبحثوا كل
ما يتعلق بالاستسلام ، وقبل أن يوافقوا على ما فيه تحقيق رغبات
الأهالى فى هذا الصدد - أقول انهم اشترطوا ان يعود الى الجيش
جميع اخوانهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرههم قليج أرسلان
فى قلعة سيفيتوت وكذلك من أسرههم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تمت موافقة القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من
قبلهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة التالية يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وقواده النية في حصار نيقية محبة منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبة ، وبعون الرب أن يرغموا تلك المدينة على الخضوع ، واننا لنلتمس من كريم جلالكم أن لا تتأخروا عن ارسال بعض وجوه رجالكم الى تلك الناحية ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة التي استسلمت تقديرا منها لاسمكم . »

« وعلى الأهالي أن يلتزموا هم أيضا بارجاع من في أيديهم من الأسرى وهم كثيرون ، ذلك لأننا راغبون في الرحيل في أعقاب تسلم جلالكم المدينة ، ومعتزمون متابعة السير في طريق الحج الذي اعتزمناه بفضل الله . »

- ١٢ -

ملأت هذه الرسالة قلب الامبراطور غبطة ، فأنفذ في ساعته الى نيقية رهطا اختارهم من حاشيته وثقاته وأهل الخبرة ممن يستطيع الاعتماد عليهم في تسلم المدينة والقيام بتحصينها ، وكلفهم بأن يحملوا اليه - كملك خاص له دون سواه - كل ما غنم من الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المتاع ، كما أرسل الى القادة هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فأزجى اليهم شكره الخاص - كتابة وقولا - على خدماتهم الجليلة والعطاء العظيم الذي حصلت عليه الامبراطورية بفضل جهودهم .



على أن الحقن بلغ غاية مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لما بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذي كانوا

يتوفعون معه أن نكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه الغنائم التي استولوا عليها من الأسرى ، وما عثروا عليه من البضائع ، وما زخرت به المخازن الموجودة في المدينة ذاتها ، فيعوضهم ذلك كله عن خسارتهم لأموالهم ، لكن تبين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزاء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد اتضح لهم ما عزم عليه الامبراطور من احتجاز كل شيء لنفسه ولخزائنه الخاصة ، أعنى الغنائم التي نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون غنيمة مشاعة ، فندموا على ما بذلوا من جهد ، وتبلى لهم الآن أن كل المال الذي أنفقوه قد ضاع بددا .

كذلك دأب القادة على اتهام الامبراطور [الكسيوس كومنين] بأنه نكث عهده ، وخالف نصوص الاتفاقية التي نصت شروطها المبرمة بينهم وبينه : على أنهم إذا استولوا أثناء زحفهم كلهم معا على بلاد الشام بارشاد الرب على أي مدينة من المدن التي كانت تابعة لامبراطوريته وجب عليهم ردها اليه هي وما يلحقها من النواحي ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فتؤول من غير جدال الى العسكر مكافأة لهم على جهودهم ، وتعويضا عن النفقات التي تكبدوها .



يادر الصليبيون الى اخراج مرتزقة الامبراطور من المدينة وردوهم الى مولاهم صفر الأيدي ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذي قاموا به ، بل اللوم يكون في التزامهم الوفاء بالعهد مع رجل نقض عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب يملأ جوانحهم ، ولما كانت الرغبة في الاسراع بانجاز عمل أجل خطرا من هذا وأبلغ أهمية تملأ نفوسهم ، ولما كان اتمام حجتهم هو مقصودهم فقد كتموا مشاعرهم الحقيقية في صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكلماتهم الرقيقة تهدئة مشاعر العامة الذين كان
مضطربهم شديدا على هذه المعاملة التي عاملهم بها الامبراطور .

ولما دخل المدينة الرسل الاغريق الذين أوفدهم الامبراطور
لاستلامها وأخذوا سلاح أهلها وتسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر
ووقفوا أمام القادة باعتبارهم - أى الرسل - مسئولين عن حياة
الأهالى وسلامتهم مصرحين بأن الأهالى هم الذين أعادوا المدينة الى
الامبراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان استسلمت مدينة نيقية على هذه الصورة ، أقيمت فيها
قوة كافية لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قلج أرسلان وولداها ،
وطائفة كبيرة من الأسرى الى القسطنطينية ، فلم يكتف الامبراطور
بمعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ فى الاحسان اليهم واکرامهم اذ
لم تكده تنقضى أيام قلائل على ذلك الأمر ، حتى رد عليهم حريتهم
التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك
هو ما كان يراوده من الأمل فى اكتساب مودة الترك ، وما كان
يطمح فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد يبذل ، وما كان يقدره
من أن قواتنا لو حاصرت أى مدينة أخرى فلن يخامر أهل تلك
المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التي
استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية فى العشرين من يونيو من
مولد السيد .

لم يكد الحصار يرفع عن نيقية حتى أصدر القادة أمرهم بمتابعة السير ، فرتب العسكر متاعهم ، وخرجت كتائبهم يوم التاسع والعشرين من يونيو ، فى وحدة متماسكة ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فأقاموا هناك ، حتى اذا أهلت طلائع الفجر الوليد وان كان الظلام لا يزال يمد رواقه على الكون تأهبوا للرحيل مرة أخرى فعبروا الجسر ، وهنا حدث اما صدفة أو باتفاق من القادة - أن مضى كل منهم بكتيبته مفارقا غيره ، واذا ببوهيموند كونت نورماندى ، وستيفن كونت بلوا ، وتانكريد وهيج كونت سنت بول ييمون وجوهم ناحية اليسار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم ليس معهم غيرهم ، حتى انتهى بهم السير الى واد يسمى «بجورجون» فعسكروا به حوالى الساعة التاسعة ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار ، كثير الكلا ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا بليلة هادئة رغم انشغال بالهم .

أما القادة الآخرون فقد اتجهوا يميننا ضاربين معسكرهم - بعد مسيرة يوم - فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

فى هذه الأثناء كان قلبج أرسلان - وقد أهله الخطب الذى نزل به - دائم التفكير فيما دهمه على أيدي الصليبيين من ضياع تلك المدينة الرائعة من قبضته ، وما كان من فقدته لزوجته والصبيين ، فاشتعلت نيران الثأر فى قلبه وأجمع العزم - ان أمكن - على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، متعقبا بهم

الجيش الذى انعطف الى اليسار بنفس خطاه ، وكانت عيونه تأتية على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبقه وبتلهف لاغتنام الفرصة الملائمة لمباغتتهم ، وسرعان ما أعلمته كشافته بانقسام الجيش شطرين ، وأن أقربهما اليه أضعفهما وأقلهما عددا ، فأدرك فى الحال أن الفرصة التى ينشدها منذ وقت طويل قد واثته فنزل من الجبل بجيشه الذى لا يحصيه العد .



وما كاد الضياء يشرع فى تبديد غبش الظلام الكثيف حتى تبين للمراقبين ذلك لأن الجيش الصليبي كان قد وضع رجالا يرصدون من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاشارة فى الوقت المناسب ، فأعطوها ، فدقت الطبول فى الحال محذرة من اقترابه ، فهب العسكر جميعهم الى سلاحهم وقد نبههم دق الطبول ونداء المنادين ، وأسرجوا خيولهم واستعدوا للالتحام فيما قرب من النواحي ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول يوليو ، واصططفت الصفوف للقتال ، سواء منهم أمراء المئين أو أمراء الخمسين ، وتقدم كل واحد منهم على رأس جماعته ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى أجنحة المشاة .

ولما كانوا يريدون أن يكون تقدم القوات للقتال من غير عائق يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة ممن لا جدوى ترتجى منهم فى المعركة وجعلوا معهم كل متاعهم ، وكان هذا المكان الذى اختاروه ، والذى تحميه العربات الخفيفة وغيرها من مراكب النقل ملاذا آمينا ، وبعثوا بالرسول الى كتائب الجيش الأخرى التى دفعها الطيش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج وضيق ويحثونهم على المجيء اليهم على جناح السرعة لنجدتهم .

ومن ثم تمت اجادة تنظيم كل شىء فى معسكر بوهيموند وفق ما نقضى به اصول الحرب ، ولما قاربت الساعة الثانية نهارا ظهر قلع ارسلان ، يقود جماعة لا يحصىها العد من الترك ، فاستولت الدهشة على جيشنا ، اذ لم ير فى هذا الحشد الكثيف الذى قيل انه جاوز مائتى الف مقاتل سوى البخيلة ، على حين كانت قواتنا - كما قبل - تتألف من خليط من الفرسان والمشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش الترك فى الاقتراب تعالت فى المعسكر ضجة هائلة لم يعد أحد يدرك معنا أو يستبين منها كلمة مما يقال ، فلم يكن يسمع الا صليل السلاح ، وصهيل الخيل ، وقرع الطبول ونفخ الأبواق ، وهتافات العسكر الحماسية التى تعالت حتى خيل انها تبلغ عنان السماء ، مما أوقع الفزع فى قلوب من لم يألوا شهود مثل هذا الموقف .

وأخذت صفوف الترك ترمى بنفسها على قواتنا ، ممطرة اياها بوابل هتان من السهام ، كأنها المطر الدفاق فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لتوالى السهام بعضها فى أثر بعض ، وكانت كل رمية أكثف من سابقتها ، فإن فات سهم واحد أصابه التالى بجرح واذا كان هذا الأسلوب من القتال غريبا على رجالنا وليس مألوا عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته ، وأخذت خيولهم تتهاوى تحتهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدتها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى ضربات كآتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقاتلون بحصونهم بالسنيوف والخزاب ، ويجاهدونهم دفعا الى الوراء ، حتى إذا عجز الترك عن الصمود بسبب

شدة الغارة عليهم ، فتحوا صفوفهم عمدا لتجنب الالتحام ، فجازت
الحيلة على الصليبيين إذ لم يجدوا واحدا يتصدى لهم ، ورجعوا
إلى مواقعهم فى الخلف دون احراز النجاح ، وحينذاك عاد الترك
ثانية فضموا صفوفهم ، وكروا على رجالنا صابرين عليهم سيلا جارفا
من السهام والنشاب ، حتى قل أن استطاع صليبي واحد فى هذه
اللحظة النجاة من غير جراح خطيرة نافذة ، وقد قاوموا ما وسعتهم
المقاومة ، يحميهم ما عليهم من الدروع والزرديات والخوذ ، ولكن
تساقطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واختلط الحابل
بالتابل .

ولقد سقط فى هذه المعركة قرابة ألفين من وجوه الفرسان
والمشاة على السواء ، كان من بينهم « وليم » ابن المريكز الطيب وأخو
تائكريد ، وكان شابا يبشر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه
بينما كان مستبسلا فى الدفاع عن جماعته ، اذا بسهم غرب أصابه
فصرعه .

كذلك لقي روبرت أوف باريس نهايته بنفس الطريقة ، وكان
محاربا بارعا مشهورا له بالكفاءة .

بل ان تائكريد ذاته - الذى لم يكن يكثر بالحياة ولا يعبا
بمكائنه السامية - كاذ أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت
منه قاب قوسين أو أدنى ، إذ طوح بنفسه فى مععان القتال ،
صابا على العدو أهوال السمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهيموند
من جهد فانتزعه من براثن الموت رغم أنفه . واستمرت كفة العدو
تزداد رجحانا ، على حين شالت كفة الصليبيين وأخذت شوكتهم فى
الضعف ، واذ ذاك شرع الترك فى مهاجمتنا بالسيوف ، وتضييق
الخناق علينا ، وهم أقرب ما يكونون إلينا ، حتى لم تعد أية جدوى

ترتجى من القسى المدلاة من نجادها ، فاضطربت الصفوف ، وارتد المحاربون الى حيث توجد أمتعتهم وأحمالهم فى الغابات الكثيفة المتشابكة ، وراحوا يتزاحمون حول العربات ، أملا فى أن يجدوا شيئا من الحماية .

- ١٥ -

فى هذه الأثناء التى كان جيش الايمان فيها يحارب. نحت هذه الظروف ، والتى أخذت فيها قوة بوهيموند فى الضعف والتلاشى ، خف لنجدتهم رهط من اخوانهم الأشاوس العظام ، نطالع فيهم دوق جودفروى ، وكونت ريموند ، وهيج العظيم ، وبلدوين أستاس. أخا الدوق وسواهم من القادة الذين أخلصوا النية لله وكانوا قد خلفوا وراءهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم يركبونه ، وتركوهم مع شتى أنواع الأمتعة ، أما هم فقد هبوا نجدة على رأس أربعين ألف مقاتل من الفرسان ومعهم أحسن السلاح ، فبث قدومهم الحماسة الشديدة فى رجال بوهيموند الذين كانوا على وشك التسليم ، فلما عاودهم بأسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخذ الثار ، الثار ، انتقاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عاز هزيمتهم السابقة ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب بسيوفهم بأيد لا يعرف الكلل اليها طريقه وما لبثوا قليلا الا وقد هزموا الأعداء الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أشد الخوف ، ويحسبونهم أشد منهم بأسا .

★★★

وقد راح أسقف بوى - مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفيته - يقوى عزائم الناس ويعظمهم ويشجع القادة. ألا يتراخوا فى قتالهم،

أخذوا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لا بد مسعفهم من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الملة وأعداء اسم المسيح من التباهى بأنهم أهلكوا المؤمنين ، وظل رجال الرب يحثون الناس على القتال بهذه الكلمات وأمثالها من عبارات التشجيع ، وبثوا فيهم الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون فى همة لم تعهد فيهم من قبل ، هجوما عنيفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مفرقين صفوفهم حتى حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يتعقبون الفارين فى اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال الى ما وراء معسكرهم الذى كان يقوم فوق واد شديد الخصوبة ، وكان القتل فيهم فظيحا .

وهكذا تبدد الترك أمام عدوهم متكبدين خسائر فادحة فى الأرواح ، ثم عاد الصليبيون الى معسكر خصومهم فجاءوا منه ببعض من قومهم [اللاتين] ممن كان العدو قد أسرههم ، وعثروا فى هذا المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولوا على كثير من الحمير وبغال الحمل وقوافل الجمال (وهى دواب لم يتسن لقومنا رؤيتها من قبل) كما استولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما وجدوا شتى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه المغانم الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم ترفرف عليهم رايات النصر ومحملين بأعلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب والعبيد .

ويقال ان العدو فقد فى هذا اليوم ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل من رجاله الأقوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفيعة فى قومهم ، كما سقط فى تلك المعركة أربعة آلاف من عامتنا ، ومن الطبقات الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن - اعتمادا منهم على ما تغيه ذاكرتهم - أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد جرت الموقعة يوم أول يوليو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها جرت بين قوات لا يكافئ أحد الجانبين فيها الآخر في العدد ولا في العدد ، واستمرت من الساعة الثانية حتى الثامنة من ذلك اليوم وقيل ان عدد الفرسان وحدهم الذين أحصوا في جيش قلعج أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبيين الذين شاركوا في هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا .

ولما فرغ الجيش من هذا النصر القشيب الذي هياته له العناية الإلهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مرة ثانية ، وأتيحت لهم فترة راحة قصيرة صرفوها في مداواة جرحاهم ، وأقاموا ثلاثة أيام سويا وسط المراعى الخضراء مستجمين معتنين بجادهم ، وزاد في رفاهيتهم جميعا ما خلفه العدو وراءه رغم ارادته من مئونة وأحمال ضخمة من المأكولات الكثيرة .



وظهر قوادنا العظام ظهورا بينا في هذه الأزمة الخطيرة ، كما واثت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤثل ، لاسيما بلدوين بوج و توماس لافير ، ورينو دي بوفيه ، و جالو دي شومونت ، وجاستون دي بيريون وجيرارد دي شيريزي .

وتقرر منذ هذا اليوم بالاجماع أن تنضم الكتائب بعضها الى جانب البعض وتتوحد ، وأن تسير مترافقة كالجسد الواحد حتى يتقاسموا جميع الاقبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر .

أقام المحاربين مستجمين في هذه الناحية ثلاثة أيام كما قلنا ، وكانوا هم وجيادهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم النفير استعدوا مرة أخرى لمتابعة رحلة حجهم التي بدأوها ، وكان طريقهم الذي سلكوه يمر عبر كل بلاد بيشينيا الى بيسيديا ، وقد دفعتهم رغبتهم في اختصار زحفهم الى النزول عن غير قصد في اقليم جاف ، يكاد يكون بأكمله خلوا من الماء ، ولما صاروا فريسة للخطر الجسيمين : الظمأ وشدة قيظ يوليو كما هي العادة ، فقد أخذت أعداد كبيرة منهم في الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من خمسمائة من الجنسين من شدة العطش والحر ، وتمضى الرواية فتقول ان الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل التاريخ له مثيلا .

أما النساء اللاتي كن يعانين غصص الكرب الشديد ، فقد خلفن أطفالهن في المعسكر ، منهم الأحياء ومنهم الموتى ، وفيهم من يعانون سكرات الموت ، ودفعت الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن في صدورهن ، غير آبهات أن يراهن الرجال وهن ينطلقن في الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموت المفزع ، غير حافلات بأنوثتهن .



ولم يجد الرجال فتىلا قوتهم الجثمانية الهائلة ، فأغمى عليهم من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراحوا يلهثون بأفواه مفتوحة ، وأنوف تتلهف على نسمة ريح ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساها تخفف بعض ما هم فيه من ظمأ ، لكنهم لم يجدوا شيئا مما ينشدونه .

لم تقتصر مكابدة هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل تعدتهم أيضا الى دوابهم التى تحمل متاعهم فعصتهم كل بهيمة ذات ظلف كانت نستجيب لكل ما تؤمر به ، أما الطيور الصغيرة والصقور المحلقة فى السماء فقد لفظت أنفاسها ، كما أن البزاة التى كان النبلاء يتمتعون بها أثناء خروجهم للصيد والقنص فقد ماتت هى الأخرى فى أيدي أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصوى التى يحيطونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة الشم النافذة والمدرّبة على الصيد ، والحيوانات الأليفة فقد هجرت أصحابها الذين تتبعهم ، وراحت تتساقط على طول الطريق وهى تلهث من الظما ، وكان أشد الأشياء إيلاها للسلادة وأوجعها لنفوسهم ، هى أن جيادهم الصافيات - وهى رفيقتهم فى حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم فى طلبهم السلامة لأنفسهم - وهى حققت الفخر لنفسها بقوائمها الوثابة وأسنانها البراقة - هوت هى الأخرى نافقة كما نفقت دواب الحمل العادية تحت وطأة الحرارة والظما .

وأخيرا تفضل نبع كل الرحمة ورب السلوى، فأنقذ هؤلاء الحجاج المعذبين الظماء اذ قادهم إلى نهر كانوا أحوج ما يكونون إليه وقد طال بحثهم عنه ، فتدافعوا الى مائه فى لهفة مجنونة ، وراح كل منهم يزاحم الآخر فى الوصول إليه ، لكنهم بعثورهم على هذا الماء الذى طال شوقهم إليه سقطوا فى خطر أكبر مما هم فيه ، حيث أقبلوا يعبون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن الشرب ، فكان ذلك خطأ منهم فى هذه الحال ، اذ كانت كثرة الماء تحمل لهم الهلاك، الذى كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين بل نفق كثير من دوابهم بنفيس الأسلوب .

ثم شاءت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الأخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والنماء قرب أنطاكية الصغرى ، عاصمة
بيسيدا ، وكانت من أجمل النواحي لما فيها من القنوات والمراعى ،
فضربوا مخيماتهم فى حقولها الخضراء .

- ١٧ -

وحدث لأول مرة فى هذا الموضع أن عمد بعض الزعماء الى
الانفصال بقواتهم عن الجيش الرئيسى ، وكان أول من فعل ذلك
منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت ستييناى وأخوه
رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وجلبرت دى مونت كلير ،
واستصبحوا معهم سبعمائة فارس وجماعة من الجند المشاة .

أما ثانى القادة الذين انفصلوا عن الجيش فكان تانكريد وفى
صحبته ريتشارد من برنسباتس ، وروبرت أوف اتزى على رأس
قوة كبيرة قوامها خمسمائة فارس وبعض الجند المشاة .

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يختلفون فيه ،
ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقليم المجاور ، والبحث
عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين
أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ،
وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف فى سلام وطمأنينة ، وكانوا فى
بداية مغادرتهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن
المجاورة ومنها قونية وهرقلية ، ثم عرجوا بعدئذ يمينا ، وأخذوا
يمشون الخطى ناحية الساحل .

فى هذه الأثناء استهوى الدوق والقادة الآخرين ممن ظلوا فى المعسكر حسن منظر النواحي المحيطة بهم وبهاؤها ، وجذب انتباههم قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها فى طلب الصيد ، وذلك لانهم أحسوا وهم فى غمرة انشغالهم بالعمل المصنى بحاجتهم الى الترويح عن أنفسهم بعض الشيء ، وودوا لو خلوا وراءهم - ولو لفترة قصيرة - ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ، فلما دخلوا الغابة استلقت انتباههم كثير من مباهاجها ، ففرقت بهم المسالك ، ولاقوا مخاطر جمة .

فأما الدوق الذى خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فقد واجه على غير انتظار دبا بشع المنظر يتأهب لينقض على رجل من الفقراء الحجاج يعمل حطابا قاصدا افتراسه ، وعبثا كانت مجاهدة الرجل فى العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب . فلم يسعه الا الصراخ بصوت عال يسأل المعونة فى محنته الخطيرة التى هو فيها ، وشاء القدر أن يظهر فى هذه اللحظة الدوق الذى أشفق على رفيقه المنكوب ، فاندفع لنجدته ، فما كاد الدب يرى الدوق الذى كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسته الأولى وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكشرا عن أنيابه ، ومسددا نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاء مضطرا للنزول عن ظهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحش الذى زمجر زمجرة ترتعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكشرا عن أنيابه ، غير مكترث بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه الذى رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ، فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعيه وطرحه أرضا ، فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحش ، وأصبح من اليسير عليه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الباسل استل حسامه ، واذا كان شديد البأس فقد احتضن الدب المهاجم.

بيسراه ، بينما أغمدت يمينه سيفه حتى مقبضه فى جنبه فصرعه ،
وهكذا كسب الدوق الجولة بالدم وان خرج منها بجرح خطير فى
ساقه ارتمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الضعف فى كيانه
اذ انساب من دمه ما لم يعد معه قادرا على النهوض .

وتعالى صراخ الرجل الفقير الذى قدرت له النجاة بفضل
مساعدة الدوق له ، فنبه صياحه العسكر لما جرى ، فانطلقوا كلهم
صوب الناحية التى كان البطل الشجاع - حامى الجيوش - مسجى
فيها ، وقد أثخنه جراحه فوضعه على محفة ، وحمله القادة الآخرون
الى المعسكر وسط بكاء الجميع ، واستدعوا له الأطباء الذين بذلوا
المحاولات الشاقة لانقاذه ، ووصفوا له من الأدوية المناسبة ما جعل
الأمل يداعب النفوس فى أن يسترد عافيته .

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالذات أن اعترى المرض الشديد ريموند
كونت تولوز ، ذلك المبجل الذائع الصيت ، وحمل هو الآخر فى
محفة وقد أنهكت علاته وأثقله مرضه ، حتى أنهم لما وضعوه على
الأرض فى انتظار موته كانت أنفاسه شبه مقطوعة ، فقام وليم أسقف
أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشعائر التى تؤدى للمؤمنين ،
مثما يفعل ازاء رجل قد انتهى ولفظ أنفاسه .

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا - أو كادوا أن يحرموا -
من توجيهات هذين الرجلين العظمين فقد ران عليهم من اليأس

ما كاد أن يصرفهم عن متابعة رحلة الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للقيام به ، واستغروا جميعا فى البكاء لانشغال بالهم بحالة قائديهما ، وقام كل الحجاج أثناء تأديتهم التسعائر الدينية برفع أكف الضراعة للرب عساه يرد على هذين الزعيمين عافتيهما ، فأصغى اليهم الرب الرحيم واستجاب لتوسلاتهم ودعائهم ، ورد على الرجلين صحتهما ، وأصغت الرحمة لصلوات شعبه .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجتياز بيسيديا دخلوا اقليم ليكونيا ، وجاءوا الى عاصمته قونية ، وكانت هذه الناحية قاحلة جرداء ، فابتلوا فيها بنقص كثير فى الطعام أدخل اليأس الى قلوبهم ، وكان الترك قد علموا من قبل بزحفنا عليهم ، فانطلقوا يعيشون فسادا فى الاقليم بأجمعه ، ونهبوا جميع مدنه اعتمادا منهم على عجز رجال أى مدينة عن المقاومة ، وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسترقوا الأطفال ، ونهبوا كل ما صادفوه من الماشية والأغنام ، ثم فروا الى الجبال المنيعه معتصمين بها ، وكان أملهم الوحيد هو أن يبادر الصليبيون الى مغادرة الاقليم ، حين بلغ الجهد منهم غايته بسبب حاجتهم للطعام ، ولم يكن الترك واهمين فى هذا الأمل ، اذ فر الحجاج من هذه الناحية القاحلة التى لا تستطيع اسعافهم بما يقيم أودهم وغادروها على جناح السرعة .

فلما خلفوا هرقلية وراءهم ، جاءوا الى مدينة مرعش ، فنصبوا معسكرهم بها . وأقاموا بها ثلاثة أيام .

: وفى أثناء وجودهم فى مدينة مرعش هذه فاضت روح [جودهيلد] زوجة بلدوين - أخى جودفروى - الذى كان قد تركها فى رعاية أخويه حين سفره ، فرقدت فى الرب فى هدوء ، ولفظت

أنفاسها بعد مرض عضال أمضها ، وكانت «جودهيلد» (١) هذه امرأة شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلقت بالخلق الكريم ، ودفنت حيث ماتت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الجديرة بها .

- ١٩ -

فى هذه الأثناء قام تانكريد الفاضل ، وهو من هو فى الفضل بفرض الحصار على طوروس وهى أهم مدن تلك الولاية ، ونجح اذ سلك أقصر الطرق فكان أول من بلغ قيليقيا احدى ولايات الشرق ، وبناء على ما يقوله القدماء فان ولاية « أنتيوكينا » كانت تسمى بمنطقة الشرق .

ويتأخم قيليقية من الشرق ولاية كوليسيريا ، « سسورية الشمالية » كما يتأخمها من الغرب ايسوريا ، وتحدها من الشمال جبال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينتان رئيسيتان هما طرسوس موطن معلم المهتدين ومهبط رأسه أما الأخرى فتدعى « عين زربة » ولكل منهما قراها التابعة لها ، ومن أجل هذا يقال أنه توجد قيليقية الأولى وقيليقية الثانية .

والقول الشائع أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس » وهو ثانى أولاد « جافام » ابن يافث الذى تذهب الروايات القديمة الى أنه الابن الثالث لنوح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة تحمل اسم مؤسسها .

(١) أشارت الترجمة الانجليزية فى تعليقها على خبر هذه السبلة أنها عرئت بأكثر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTERIA » الا أننا نفضل « جودهيلد » بناء على المراجع الواردة فى هذه الحاشية الانجليزية .

ومع ذلك فان لسولينوس رأيا مخالفا لهذا الرأي بشأن هذا المؤسس ، فيقول فى الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات» : « وتتبع قيليقيا مدينة طرسوس التى هى أم المدن ، والتى أسسها بيرسيوس داناي الشريف ، ويشقها نهر « كيندس » الذى يقول بعض الثقات انه ينبع من جبال طوروس وينحدرا انحدارا عنيفا مخيفا ، على حين يذهب آخرون للقول انه أحسد روافد نهر « هيد اسباس » .

وربما كان هناك شىء من الصحة فى كلا القولين من أن مؤسسها هو طارسيس ، ثم جاء من بعده بيرسيوس فحصنها وزاد فيها .

أقام تانكريد ورجاله على حصار مدينة طوروس بضعة أيام حتى أرغم أهلها — بالوعيد تارة والكلام المعسول تارة أخرى — أن يقبلوا ما رسمه من ادخال رايته ورفعها على أحسد أبراجهم رمزا لاعترافهم بالخضوع له ، فاستجابوا لطلبه هذا ، مشترطين عليه أن يظلمهم بحمايته حتى يحضر بوهيموند والجيش الرئيسى ، وألا يحملهم — خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدوم بوهيموند — على مغادرة دورهم أو ترك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن يسلموا المدينة فى هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان مرضيا لتانكريد ، فقد قبله هو أيضا .

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان الاقليم ، وهم يتألفون من الأرمن والاغريق ، غير ثلة قليلة من الترك الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح ، والذين كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، وتقع على عاتقهم مهمة قمع الأهالى بالشدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح ، ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة التجارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين — أخو الدوق — ورفاقه الذين

سلكوا مسالك لم تكن مألوفة - في ميسيس الحاجة للطعام ، لكن
تسنى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قمة
جبل من الجبال استشرف منها منظرا يمتد حتى البحر الى قيليقيا
ومدنها المتناثرة تحت قدميه .

★★★

ولما تبين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس ، سرت
المخاوف أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الخيام خيام
عدوه ، بيد أن رغبته الملحة في الوقوف على هوية هذا الاقليم وعمن
يكون أصحاب هذا المعسكر الذي يراه على بعد دفعته للخروج على
رأس جماعته بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل .

وكان تانكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عيونا في نقاط مرتفعة،
كما أخذ حذره توقعا لأي عدوان قد يقوم به العدو ، فاستدعى في
الحال اليه رفاقه في الحرب وحملوا أسلحتهم ليقينه بأن الذين
رأهم انما هم عسكر الخصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح في رجاله
مشجعا اياهم ، وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الزاحفة ،
ولم تطر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما
من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن ليست
هذه أسلحة العدو ، فدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر في اطمئنان
وتعانقوا .

وبعد الفراغ من الأحاديث الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى
بعض وتابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فتلقاهم تانكريد
بالترحاب والاكرام ، وأولم لهم ليلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم
الاغنام والماشية التي نهبوها من النواحي المتاخمة .

ولما أشرق الصباح وتجلى النهار ، رأى بلدوين ورقاقه راية تانكريد تخفق على أعلى برج بالمدينة ، فنهشتهم الغيرة فى الحال. بأنيا بها ، ونسوا أواصر الحب والأخوة التى عقدوها فيما بينهم أثناء زحفهم فى سلام ، وهى الأواصر التى صمموا - أفرادا وجماعات - على أن تظل عراها ثابتة لا انفصام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع رايته فوق المدينة ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاضرين ، وهم أكثر منه جندا ، وأكثر عسكرا .

كان تانكريد رجلا متواضعا فأراد فث غضبهم ، فأنكر أن يكون قد استهدف اهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه اتفق على رفعها مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء ، وقبل أن يخامر الأمل أحدا فى قدومهم .

أما بلدوين الذى راح أصحابه يثيرونه بكل قواهم ، ويحثونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبا بما فعله تانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود الفطنة ، فتناول على تانكريد بكلماته السفهية ، وأدت غطرسته الى مأزق أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه ، ويفتك به ، وأخيرا استدعى بلدوين اليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما جاورها من النواحي غير عابىء بما وعدهم به تانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية تانكريد ونصب رايته هو مكانها . . .

ولما رأى الأهالى أن بلدوين أشد من تانكريد بأسا وأكثر منه جندا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التى سلف لهم اشتراطها على

تأنكر يد الذي أنزلوا رأيتهم ورفعوا مكانها علم بلدوين ، فلما رأى
تأنكر يد هذا الحيف الذي حاق به أحرقه الغيظ عن حق ، لكنه كظم
غيظه بفضل ما طبع عليه من رجاحة العقل ، ومن تَعَوُّده الصبر على
تحمل الآلام شفقة منه من حدوث شقاق خطير بين قوات المؤمنين ،
لذلك نقض معسكره ، وارتد إلى مدينة مجاوزة يدعونها « أذنة » ،
فلما بلغها لم يأذن له أهلها بدخولها لأن شخصا معيناً اسمه « جيلف »
من الأمة البرجندية كان قد استولى عليها ، وكان « جيلف » هذا
انفصل عن الجيش الأصلي مع ثلثة من الآخرين ، وجمع إليه حشداً
كثيفاً من الناس انخرطوا تحت رأيتهم ، وشاءت الصدفة أن تؤدي به
إلى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها قسراً .

ولما علم تأنكر يد أن مشيئة الرب قد أسقطت هذه المدينة في
أيدي شعبنا ، بعث الرسل إلى جيلف يلتمس منه فتح أبوابها
لتدخلها جماعته وأعلمه أنه ينبغي النزول بها وشراء ما يحتاجه
عسكره من ضرورات العيش ، فاستجاب جيلف للرسل ، وأمد
تأنكر يد وخيله بكل ما هو لازم لهم في كميات وفيرة جعل بعضها
إليه هبة ، والبعض الآخر بأثمان معقولة ، وذلك لأن جيلف كان
قد وجد المكان مليئاً بالذهب والفضة وقطعان الماشية والأغنام
والحبوب والنبيد والزيت ، وقصاري القول بكل شيء نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهار رحل تأنكر يد من المدينة بكل من معه وأخذ
السير في الطريق الرئيسي المؤدى إلى المصيصة ، التي كانت واحدة
من أروع مدن هذا الإقليم ، والتي نالت حظاً من الشهرة بفضل

أسوارها وأبراجها وكثرة سكانها ، كما زاد في قدرها موقعها
البهيج ، وحقولها الخصبة ، وأرضها الغنية ، وما كاد تانكريد يعسكر
على مقربة منها حتى أغار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من
الغارات حتى تمكن من الاستيلاء عليها في مدى أيام قلائل بمعونة
الرب ، وحكم السيف في رقاب أهلها المارقين .

ووجد بها تانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من
كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، في أنصبه يلائم كل منها
ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضت أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم
الطعام الوفير عن أيام المسغبة التي قاسوها من قبل ، كما
استسلموا في الوقت ذاته للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون ،
وأطلقوا ما عندهم من دواب النقل حرة ترعى كيف شاءت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعد رحيل تانكريد - يكثر من تأنيب أهل
طرسوس ويهددهم تهديدا شديدا ويحذرهم مرة بعد أخرى ، وأمرهم
أن يفتحوا الأبواب أمام عسكره ليدخلوها ، إذ خيل إليه أن العار
لاحقه إن هو أضاع الوقت بلا عمل حتى يجيء الجيش ، فخاف
الأهالي منه أن يهاجم المدينة من قرب إن هم رفضوا إطاعة أمره ، لما
رأوا من عجز تانكريد عن مقاومته ، هذا إلى جانب زعزعة ثقتهم في
قدرتهم الذاتية فجعلوا من الضرورة فضيلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا
بلدوين وجميع عسكره ، وخصصوا برجين جعلوهما في وقتها
الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جنده فقد تفرقوا في بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الأبراج الأخرى فكانت فى أيدي الترك الذين كانوا لا يزالون يحتلون المدينة ، وكانوا أكثر منهم عددا ، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد ، ومع ذلك كانت الريبة تخامر نفوسهم من ناحية طائفة النصارى الذين أذنوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل فى نجدة تأتيهم ، فقد كانوا يلتمسون الفرصة للتسلل فى الخفاء إلى خارجها مع زوجاتهم وأبنائهم وما ملكت أيديهم .

وحدث فى هذه الليلة بالذات أن وصل إلى طرسوس ثلاثمائة رجل من حملة يوهيموند كانوا فى طريقهم للانضمام إلى تانكريد ، فاصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينة ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وقلص فى أيديهم ضرورات العيش ، فقد ألحقوا فى السؤال التماسا للسكن وعقد سوق لهم ، فعطف عليهم فى محنتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا فى المدينة ، وألحوا فى طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا قاشلين ، لأنهم كانوا ، كما قيل طائفة من رجال حملة يوهيموند الذين كانوا مغنين السير لمساندة تانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين فى المدينة من الخروج إلا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا مترعة بالنبيذ ، وهكذا أمكنهم إمداد الذين بالخارج بالطعام الكافى لهم فى هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطنوا أنفسهم على الإقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبير حياتهم جهد استطاعتهم .

فلما كان الليل استسلم للنوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكوتا مرييا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب فى هدوء تام ، وخرجوا متلصصين مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء فى بلدتهم الى جوار هؤلاء الضيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان فى أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلفوا وراءهم انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يغطون فى سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم التالى وقد ملأ النور الكون ، استيقظ مسيحيو المدينة فوجدوها مهجورة ، فعجبوا كيف هرب العدو من غير ضجة ، وانطلقوا الى الأيسوار ومدخل المدينة عسباهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر فى دقة وينقضون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حسرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة الثانية على بعد من الآخرين وحمى السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يشاونه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التنصل

منه ، كما كانت حقا لكل ذي حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحق ،
فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يقصدون النيل من زعمائهم الذين لولا
انسحابهم الى الأبراج العالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء
الأسوار .

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذي استولى على الناس بحق
أخذ في الزيادة ، راح يدبر في لهفة كيف يبرر مسلكه ، وكيف
يعتذر عن نفسه عند قومه ، عسى أن تهدأ ثائرتهم ، ويركنوا الى
السكينة ، فترث لحظة استرد فيها أنفاسه ، وسألهم الانصات
فهذأت غاغة الرجال قليلا وإن كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ،
وراح هو يبرئ سياحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذي
حملة على اغلاق أبواب المدينة في وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد
وعدا لا حنت فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما
أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التي كان لابد منها في مثل
هذا الموقف والتي قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلحت
فهذأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم .

وهكذا انتهى النزاع ، ولبت القوم هناك في سكون بضعة
أيام ، حتى رأوا أسطولا يبحر البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال
من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى
هبوا سراعا ناحيتها ، وتحدثوا مع القادمين من البحر فعلموا منهم
أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أي البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز
وهولندة وفيريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ،
ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن اثمهم
فركبوا هذا البحر في طريقهم الى القدس للصلاة .

فلما عرف رجالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وتبادلوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد
أن أرسى السفن آمنة بالثغر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان زعيم هؤلاء القوم يدعى « جينمار » من اقليم بولونيا ،
ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروى ، وما كاد جينمار يعلم
أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهيأ لمرافقته الى
القدس ، وكان جينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة
الدنيئة التى مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط
كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع
بلدوين ، واذ ذاك انتقى انتقاء دقيقا خمسمائة من أتباع القائدين
لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهيئون للخروج
الى بحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

غادر الجيش طرسوس ميمما وجهه شطر المصيصة حتى بلغها ،
وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ،
واحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفى البساتين
المحيطة بها ، ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول
المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب
معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارت ثأثرته وتأججت
نيران سخطه اذ عاودته ذكرى المصائب التى ضيها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سورة خنقه الى حمل السلاح
مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى
مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النشاب
لرمى جياد بلدوين التي سرحها في المراعى ، ولأخذها أو دفعها ،
كما خرج تانكريد ذاته في خمسمائة فارس في دروعهم مهاجما بهم
معسكر بلدوين وأخذوا الحراس على غرة منهم قبل أن يتمكنوا من
امتشاق سيوفهم ، حتى كاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم ، ولكنهم مع
ذلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة ، وجرت في اثر ذلك
معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالاً ضئيلاً كما
لو كان كل واحد منهم يحارب خصماً لدوداً ، فسقط من الجانبين
قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالاً من رجال الفريق الآخر ، غير
أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأساً ، وأقل منه عدداً ،
ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهاداً لم يعد قادراً معه على تحمل
شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .



كان الجسر الشديد الضيق الذى يعلو النهر الفاصل بين
معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كأداء فى وجه قوات تانكريد
وهى تسرع فى الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك وهط غير قليل
من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلثة منهم هربوا الى داخل
البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان
من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هى عليه ، نظراً لما كان يمكنه
كل فريق من كراهية تضطرم كالنار فى قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا فى الأسر رجال نبلاء
بارزون منهم واحد من ذوى قرباه اسمه ريتشارد دي برنسباتى ،

وآخر اسمه روبرت دانزى ، وكانت مشورة هذين الرجلين
وتحريضاتهما هي السبب الرئيسى فى قيام تانكريد بحركة الانتقام
التي ذكرناها .

كما وقع فى أسر تانكريد واحد من أتباع بلدوين ومن عليه
القوم وأسماءهم مكانة ، هو جيلبرت دى مونت كلير ، ونجم عن
غياب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الجانبين .
اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم التالى أخذت أحاسيس الكراهية
فى التلاشي ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة
الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى
هدوئه ، ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشد اقرار السلام ،
ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا يتبادلون قبلات السلام
ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوثام يرفرف من جديد بين الجميع
وأظلم السلم بجناحيه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وغاد من المضيضة منضما بكل
عسكره الى الجيش الاصلى الذى كان قد وصل - كما قلنا - الى
مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى
بيسيدا امام انطاكية فاشتد جزعه على سلامة جودفروى ، واران
أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان تانكريد فى هذه الأثناء قد زاد من بأس قواته بمن ضمهم اليها من الرجال الذين جاءوا فى صحبة الأسطول ، فكثر جيشه بهم كثرة بالغة ، مكنته من اجتياح كل قيليقيا ، والاستيلاء قسرا على معاقل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوت الى الأرض ، واذا ذاك عرض من فيها على السيف فقتلهم جميعا ، وكان آخر مكان عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » التى استولى عليها أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكته هذا النصر الأخير من أن يصبح مسيطرا على الاقليم كله .

سرعان ما تواردت الاخبار تشير الى تمام استيلاء تانكريد على كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فرفضت قلوب الترك والأرمن الجبليين خوفا من أن يعوج تانكريد عليهم ، ويفتح مدنهم ، ويسترق أهلهم ، فراح كل ينافس الآخر فى سرعة المبادرة بإرسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا الثمينة من الذهب والفضة والجياذ والخيول والأقمشة الحريرية ، مؤملين أن يهدى هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ، ويعقدون واياهم أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف تانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب كان معه ، ولأن السيد كان يوجه جميع أعماله لأنه خادم أمين .

هنا ينتهي الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم فى حصار انطاكية

فصول الكتاب الرابع :

- ١ - بولدوين أخو الدوق - يعود الى الجيش الأصيل
وينزل على اقتراح باكراد فيقود حملة تزحف الى
الشمال ويحتل كل الاقليم حتى الفرات .
- ٢ - شهرة بلدوين تنتشر فى كل ناحية ، فيستدعيه
أهل الرها فيستجيب لهم ويسرع اليهم عابرا
الفرات ولكنه يقع فى كمين نصب له فى بعض
الطريق فيخرج المسيحيون لمقابلته ويجعلون من
أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحين به .
- ٣ - الغيرة من نجاح بلدوين تدب فى نفس حاكم

المدينة الذي يندم على قراره الذي اتخذه ويرغب
في شجب الاتفاق ، لكنه من أجل استرضاء الأهالي
يتبنى بلدوين ويتخذه ولدان وان أضمر الغدر به .

٤ - بلدوين يحاصر سميساط استجابة لرجاء أهل
المدينة الذين يتآمرون ضده حاكمها الضعيف
انتقاما منه للأضرار الجسيمة التي أنزلها بهم .

٥ - الأهالي يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين
واليا عليهم فيشتري سميساط من حاكمها
« بلدك » بمبلغ كبير من المال .

٦ - بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويستولي عليها
بالقوة فيشكره أهلها شكرا يعجز اللسان عن
وصفه .

٧ - ارسال طائفة معينة من رجال الجيش الأصلي
يحتلون بالقوة مدينة « أرتاح » واذ تترامى أنباء
ذلك إلى أهل أنطاكية يبادرون إلى هناك بقوة
ضخمة وينصبون كميثنا لشعبنا ، ويهاجمون
مدينة « أرتاح » لكنهم يفشلون في محاولتهم
هذه فيعودون إلى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ - الجيش الرئيسي يضل « أرتاح » ويرسل الكشاف
من هذا المكان لكشف الطريق ثم يقترب من
الجسر ويعبر النهر رغم ما بذله العدو من
محاولات كان يهدف من وراءها إلى صدده .

٩ - ووصف مدينة أنطاكية ، ومكانتها .

١٠ - القول في الاقليم الذى به المدينة ووصف موقعها .

١١ - من كان حاكم هذه المدينة التى هى أنطاكية ، وكيف بادر هذا الحاكم - حين سماعه نبأ اقترابنا - الى تحصينها ، ثم جلب الى داخلها العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة .

١٢ - زعماءنا يتشاورون فيما بينهم ويتقدم الجيش الى المدينة .

١٣ - القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية فى أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر الخوف على نفوس الأهالى .

١٤ - المسيحيون يقيمون جسرا خشبيا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركة للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالى بشن هجمات مفاجئة على معسكر كونت تولوز من أقرب البوابات اليهم .

١٥ - الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو وينتهى الأمر أخيراً بسد البوابة بأكوام من الأحجار يهيلونها أمامها .

١٦ - العدو يهاجم الجماعات التى خرجت فى التماس العلف وينتج عن ذلك قتال ضار يهلك فيه

الكثيرون من الجانبين اذ يهلك بعضهم بالسيف
ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ - الضعف يستولى على جميع الاقاليم وتتفاقم
المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس فى صراع
ضد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى
الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام
وهو عفن يهدد الجيش بالقناء .

١٨ - يوهيموند وكونت فلاندرز يخرجان فى حملة
كبيرة سعيا وراء الكلا ، كما يقوم المواطنون فى
الوقت ذاته بشن هجوم فجائى على المعسكر ،
ويمنى الصليبيون بخسارة كبرى ويكثر فيهم
الجرحى .

١٩ - الفرقة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ،
ثم تعود بالغنيمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ - مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على
أيدى الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان
يغذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ - تاتيكيوس الوغد يترك الجيش وليس فى نيته
العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل
عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض
الى الامبراطور ليسأله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ - المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب
الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسترد الدوق جود فروى صحته تماما ويفرح
الجيش بنقاوته .

٢٣ - نورد بوهيموند يقترح خطة حكيمة للقضاء على
ما سببه الكشافة الذين أرسلهم العدو من
الازعاج .

٢٤ - خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب
عقد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب
مودتهم .

هنا يبدأ

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وشروعهم في حصار انطاكية

- ١ -

بينما كان تانكريد يتابع اخضاع كل ارجاء قيليقيا غير هيات ولا وجل ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعش [يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧] ، واذ ذاك اعتزم بلدوين زيارة أخيه جود فروي ، فلما وجدته قد تماثل للشفاء ثارت في نفسه نيران الغيرة من تانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بسالته التي طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقائه ، وأفضى اليهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم أن يكونوا عوناً له في تحقيق هذا الهدف ، لكنهم كرهوا أن يصاحبوه في خروجه ، لما سمعوه عن وقاحته المتناهية حيال تانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس في قيليقيا ، اعتماداً منه على كثرة أتباعه . والحق أنه لم يشذ أحد منهم عن الاجماع على ان يسلكه كان اذ ذاك مسلكاً مشيناً ، وهو اجماع استحقه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورجالاه ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ولم يجد بلدوين من يقبل مرافقته في حملته هذه غير شردنقة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب - تعشيفاً قاسياً على عمله هذا - ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترفه عن جرم فقد أعلن بكل مدله أنه

مستعد لأن يقدم لتانكريد النبيل الاعتذار الواجب عما اقترفه من
اساءة في حقه .

ولما كان بلدوين قد أخطأ بناء على ما أشار به غيره عليه أكثر
من ان يكون خطؤه نابعا من تلقاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك
بتحريض من سواء وليس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسترد
ثقتهم به . والحق انه كان رجلا موضع الاطراء من كل الوجوه كما
انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ شناعة تزرى به كهذه الشناعة .

وكان لبلدوين صديق من اشراف الأرض يدعى « باكراد » تعرف
عليه في نيقية بعد فراره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجل
يلزم بلدوين على الدوام في جميع زحفه ، ومع أنه كان محاربا شديدا
الا أنه كان شديد المكر ، مغموز الوفاء ، وقد دأب على الالحاح على
بلدوين واغرائه بشتى السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم
هو اليه في حملة يشنها على النواحي المتاخمة التي قال انه من اليسير
احتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح « باكراد » ، وخرج
مسترشدا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المشاة
وزحف بهم ميما وجهه ناحية الشمال ، وسرعان ما دخل اقليما
شديد الخصب والثراء ، أغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهم ،
أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ،
وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا
يحرمونهم من الانخراط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم
قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكد بلدوين يدخل تلك الناحية حتى
اسلموه الأماكن الحصينة ، وما غبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى
كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لبث الرعب في ذلك الاقليم وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء منه حدا غادروا معه قلاعهم من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل رجلا واحدا من رجاله لقتالهم .

وكان مجرد حضور بلدوين قد بث الشجاعة والثقة في قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كيف يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة » .

لم يكن العامة وحدهم هم الذين تعلقوا ببلدوين ، بل حالفه أيضا امراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا النية في مصادفته ، وآزروه فيما يفعله ، وامدوه بالجند ، وبذلوا له الطاعة الصادقة .

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم يجرى على كل لسان ، وحتى كانت أعماله الجليلة مشهورة في كل مكان ، واستشاع خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع يشنون على بطولته ، ويمتدحون اخلاصه ، ويشيدون بشجاعته ، وملا صيته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان ما راحت المدينة تتحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحرية ، وترتب على ذلك أن جاءت وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينة وكانوا من اصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة - بالكلمة المنطوقة والمكتوبة - أن يأتي اليهم .

(١) تثنية ، ٣٢ : ٣٠ .

وأوديسا هي إحدى مدن العراق الشهيرة أيضا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل إليها توبيث الكبير ولده توبيث الشاب ، ليطلب من قريبه « جابيلوس » عشرة مكاييل من الفضة كان الأب قد اعاره إياها وهو طفل .

وكان أهالي الرها قد اعتنقوا المذهب المتعلق بالخلاص المسيحي على يد الرسول « تاديوس » ، وذلك في أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما يتفق مع ما بشر به ذلك الرسول العظيم وبرسالة مخلصنا التي كتبها إلى ملكهم « ابجار » ، وهذا ما نطالعه في الفصل الأول من التاريخ الكنسي الذي كتبه يوسيبوس القيصري ، وقد ظل القوم مخلصين في تمسكهم بهذه العقيدة منذ إيمانهم بها لأول مرة في زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يقعوا تحت نير خصوم ملتهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاتاوات سنويا ، كما اغتصبوا منهم عنوة كل ما في أيديهم من بساطين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجروا على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الإيمان قلبه ، فكانت مدينة الرها - دون غيرها من جميع مدن الناحية - هي التي احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلوثها الجاهلية ، ومع أن العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التي حولها إلا أنها ظلت بمنأى عن الخضوع له ، ولم تأذن لأي صاحب عقيدة أخرى أن يعيش في رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعيشون في المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطني الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسلته ليدير شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وكان هذا الوالي شيخا طاعنا في السن ،

واهن القوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكمته فقد اضطرتهم الضرورة لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة فى البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغبوه على التخلّى عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حماية رعيته من الضرر ينزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو تخفيف ما يلقونه من الضيق .

ولقد وفد على بلدوين - كما قلنا - مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم .

فلما استمع بلدوين الى التماس العامة والخاصة ، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقائه فى هذا الأمر ، فأعد العدة اذ ذاك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى ثمامين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلقا بقية أتباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التى منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيشون على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن فى طريقه الذى كانت به احدى المدن الحصينة وعليها وال أرمنى ، فأنحاز اليها بلدوين تجنباً للكمائن التى رصدوها له فى الطريق ، فلما بلغها استقبله حاكمها استقبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلالها على السير قدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كميناً ، وضاقوا ذراعاً من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بيارقهم وظهروا فجأة فى حشد كثيف قوى أمام الناحية التى هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم فى البأس ولا فى العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا فى القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الاتراك .

حينئذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالتعظيم عند وصوله اليها ، - وشاركه الترحيب به جميع من فيها ، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا امامه منشدين الاهازيج والتراويل الدينية على وقع الدفوف ودق الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذي كان السبب في استدعاء بلدوين ، سرعان ما شعر بغصة الغيرة تنهش قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه وبين نفسه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والترحيب بهذا القائد عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن - حين وجه الدعوة اليه - أن يناصفه طول حياته كل ما تملكه المدينة من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الآتاوات ، ثم يؤول كل شيء ، بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رغب الحاكم في تقديم عرض مخالف لهذا العرض يتلخص في ان يبذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد الترك ، وأن يدفع عنها شرهم ، على أن يعرضه الحاكم ذاته مقابل ذلك تعويضا ماليا سنويا مجزيا مشرفا ، حسبما يتراءى له كرجل عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عرض ينزله منزلة الجندي المرتزق ، الذي يتناول أجرا لقاء خدماته ، لذلك أخذ يعد العدة للعودة من حيث جاء ، فلما عرف الأهالي بعزمه على الرحيل ، بادورا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال برحيل زعيم جليل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم عنه لتحقيق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لشروط

الاتفاق ، حتى ينعم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو غاية ما ينشدون .

وازاء هذه المطالب المجمع عليها من عامة الناس وخاصتهم ، وازاء المحبة العميقة التى بثها بلدوين فى نفوسهم شعر الحاكم بمدى الخطر الذى يتهده ان لم يستجيب لرجائهم هذا ، ومن ثم رضخ لهم على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ، وزاد على ذلك فعمد الى تحسين مسلكه السابق بأن تبنى بلدوين فى حضرة أهل البلد ، واعلن فى احتفال مهيب يتلاءم مع جلال الحدث بأنه يأذن له أن يناصفه كل شئ فى حياته فان مات كان هو الحاكم من بعده ، فعربدت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون أن بلدوين هو معقل آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى الاقدام على كل عمل يتطلب الجرأة ، واطمئننا منهم الى حماية سيدهم الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك، وهذا مما اتضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه بلدوك ، وهو محارب مقدم ، ولكنه مخادع لثيم ، وقد أنزل كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاغف عليهم الخراج والضرائب التى فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال ، وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرغمون تحت ظروف بالغة القسوة على العمل فى خدمته كرقيق يحملون الطين والآجر ، ومن ثم فقد ركس كافة السكان عند قدمى بلودين بعيون باكية يستعطفونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغية ، وأن يعيد اليهم أبناءهم الذين فى جيشه فأصغى بلدوين باهتمام الى أول رجاء لشعبه ، أملا منه فى اكتساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، وزودهم بالسلاح ، وخرج بطائفة منهم زاحفا على سميساط .

وظل بلدوين بضعة أيام يراوح المدينة ويفاديهها بالهجمات المتتالية ، لكنه صادف مقاومة شرسة من جانب من فيها من الترك ، ثقة منهم فى استحکاماتها القوية ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، تاركا وراءه على مقربة من سميساط وفى مكان حصين ملائم - جماعة من الفرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا ينديقوا أهلها طعم الراحة .

سرعان ما تبين لمواطنى الرها ما عليه بلدوين من النشاط ، وما يلقاه من النجاح فى كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذى حاق بمحرر المدينة وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا اقتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين هذا قمين بأن يملك كل شئ ، وان يتخلص مما لا يتفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واخدا من أشرافهم يدعى قسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة قلاع شديدة المنعة ، واقعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهى ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضة وغير ذلك من كل غال وثمان ، وظلمهم ظلما فاحشا ، وكان

إذا ما حاول أحد مقاومته آثار عداوة الترك ضدهم بما يصلهم به من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل التعيس منهم لا يخاف فحسب قطع كرومه وافساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واغنامه ، بل إن حياته ذاتها تصبح فى خطر .

- ٥ -

ادرك مواطنو الرها الذين كانت فعال حاكمهم الشريرة ماثلة على الدوام فى اذهانهم ان قد واثتهم الفرصة لنيل حريتهم المنشودة منذ زمن طويل على يد هذا الضيف ، ومن ثم فانهم - وفقا للخطط التى تم اتفاقهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى اتخذته حاكمهم مستقرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا ينثنى ، فاشتد خوف الوالى على حياته بسبب غضب الأهالى وسخطهم الذى هو اهل له والذى له ما يبرره ، فاستدعى اليه بلدوين ، ونثر أمامه كل الأموال ، وتوسل اليه أن يكون واسطة له عند الناس .

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حماية الحاكم ، وصرف كل أذى ينزل به على أيدي المواطنين ، ورغم أنه بذل قصارى جهده لثنيهم عما اعتزموه الا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته وذهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يزداد عنفا وحدة شيئا بعد شيء ، وحينئذ انكفأ بلدوين الى الحاكم ، ومحضه النصيحة أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامتها ، فلما أعيت الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من إحدى النوافذ بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ تناوشه ألف سهم من سهام القوم الذين سحبوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه ، لكن ذلك كله لم يشف لهم غليلا .

فلما كان اليوم التالى نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به فى موكب بهى مهيب الى قلعة المدينة ، وأعطوه كل ما اكتنزه واليهم السابق طوال سنين عدة من الأموال والثروات الكبيرة ، ومن ثم عاد الهدوء يرفرف على المدينة .

ولما رأى « بلدوك » الذى كان كما قلنا حاكم سميساط - نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه منضغ كل الأقاليم ، فقد عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشرة آلاف قطعة ذهبية ، واذ كان بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير بفضل تحصيناتها ، فقد دفع بعد مداوات طويلة - المبلغ الضخم الذى طلبه صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد فى هيئته فى العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه الماثرة منذ اللحظة الأولى من حكمه ، فقد اكتسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه منذ هذه اللحظة واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أتم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد فى نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروج» كانت هى الأخرى غاضية بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركى اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستها منه الهلايا الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع جيشا لغزو سروج ، حتى اذا وافى اليوم الموعد زحف عليها وحاصرها نزولا على رغبة شعبه ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلاته على أكمل صورة وأحسن هيئة ، شرع فى مهاجمتها فى عنف
ثبت الخوف فى نفوس أهلها حين رأوا عزمه المطبق على تحقيق هدفه ،
فى الوقت الذى كانوا يشكون فيه فى مبلغ قوتهم الذاتية فأبلوا أن
يسلموه المدينة ان ضمن لهم حياتهم وسلامتهم ، فلما وافق على هذه
الشروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعة رابطة بالمدينة لحمايتها ،
وجعل القيادة فيهم لواحد من الذين شاركوا فى المفاوضات ، وفرض
على أهل سروج جزية سنوية ، ثم رجع الى الرها متوجا بالفخر .
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حرية الاتصال بين أنطاكية
والرها ، اذ كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والفرات
يعتبر عقبة كاداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما .

والآن وقد قدمنا هذه البيانات عن عمل بلدوين فهيا بنا نعود
الى قصة الجيش [الصليبي] الأصلي .

- ٧ -

بينما كان بلدوين منشغلا انشغالا كبيرا فى اقليم الرها فيما
وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسى قد وصل الى مرعش ، بعد أن
اجتاز - كما قلنا - جبالا شديدة الانحدار ، وأودية متعرجة ، وكان
سكان هذه المدينة - الا القليل منهم - نصارى ، وكانت قلعتها فى
يد الترك الذين يتحكمون كيفما شاءوا فى الأهالى ، ولم يكد الترك
يعلمون أن جيشنا آخذ فى الاقتراب منهم حتى فروا خفية وفى دعر
شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين .

ولما بلغ الجيش الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
أمام أسوار المدينة فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

أن ينجنبوا العنف مع أهل البلد ، كما انعقد في هذا المكان سوف حافلة . ثم جاء الى الصليبيين رهط من ثقات أهل البلد ، يخبروهم أن في يد الترك مدينة أخرى في ذلك الاقليم تسمى «أرتاح» . وتقع في اقليم أكثر خصبا ويفيض بالنعم الوفيرة ، فاتفق الرأي على ان يخرج في الحال روبرت كونت فلاندرز اليها على رأس ألف فارس عليهم زرد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت دي روزير ، وجوسيلون سن كوتون كونت مونتاج ، وما كادوا يبلغون تلك الناحية حتى شرع روبرت في اعداد ترتيبات الحصار ، فغادر الترك المدينة وارتدوا الى القلعة لثقتهم في منعها .

وما كاد الأرمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين النازلين أرتاح يعلمون أن هؤلاء المحاربين - بأسلحتهم البراقة - قد جاءوا من الجيش الذي طال انتظارهم اياه وتشوقوا اليه ، حتى انتعش الأمل بالحركة في صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين احتلوهم زمنا طويلا فرضوا عليهم خلاله حكمهم القاسى ، وأعملوا فيهم القتل دون تراخ ، قاذفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما فتحو الأبواب على مصاريعها ، ودعوا في اخلاص دينى القوم الواقفين خارجها الى الدخول ، وسألوهم أن يضربوا مخيماتهم بها ، أضف الى ذلك أنهم أوقفوا بشروط الضيافة ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجيادهم على السواء ما يحتاجونه .



وتعرف ارتاح أيضا باسم « شالسييس » وهى مثل مرعش التى أشرنا اليها من قبل فى انها تمثل احدى المدن الاسقفية التابعة لكرسى بطركية أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عشر ميلا .

ولقد انتشر نبا هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن أهل أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لتسليح أنفسهم ، واستعدوا للفتك

بالغزاة الذين جعلوا من أنفسهم سادة لارتاح بذبحهم مواطنيها ،
واذ ذاك تم انتقاء عشرة آلاف ممن تجمعوا في أنطاكية للدفاع عنها ،
وجهوهم سراعا الى مدينة أرتاح ، فلما صاروا على مقربة منها أرسلوا
أمامهم ربيثة منهم قوامها ثلاثون فارسا من حملة الأسلحة الخفيفة
وراكبي جياد الحرب الخفيفة ، أما بقية القوة فقد كمنّت في ناحية
من الغابة .

وأما الطليعة التي كانت تقوم بحراسة من في الكمين ، فقد ظلت
على ظهور جيادها ، تروح وتغدو أمام المدينة حتى ليحسبها الرائي
أنها خرجت في طلب بعض الأسلاب والغنائم ، فيغتر اذ ذاك
المسيحيون ، ويدفعهم الطيش الى مهاجمتها دون تبصر .

ولقد أدت سلاطة هذه الطليعة في غدوها ورواحها الى أن فقد
المؤمنون الذين كانوا داخل الأسوار صبرهم ، فهبوا سراعا الى
سلاحهم ، وانطلقوا في أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوغلوا
فطلعت عليهم الكمائن التي وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم
في الحال ، ووثبوا عليهم وقاموا بمحاولات يائسة لقطع طريق العودة
على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح في الوصول الى المدينة
لوجدوا فيها ملجأ يقيهم من القوات الكثيرة التي كانت قادمة في
أعقابهم ، الا أن رجالنا استطاعوا بفضل من الله أن يفسدوا عليهم
حيلتهم ، مما مكنهم من الارتداد بمن معهم سالمين .

حينذاك أدرك العدو أن الاستيلاء على المدينة ليس بالأمر الهين ،
ومن ثم شرع في حصارها ، وظل يواليها بالرمي على مدى يوم كامل
دون أن ينال منها شيئا ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها في
الدفاع المجيد عنها ، ولما جاءت الأخبار باقتراب جيشنا الرئيسي
أدرك العدو ما وراء استمراره في البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة
المثلى ، وعاد الى أنطاكية تاركا طائفة من الجند لحراسة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صان الكونت وأصحابه ببأسهم
المدينة التي وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الجيش
الرئيسي .

وفي خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن
كونون كونت مونتاج الذي تكلمت عنه آنفا مرضا عضالا . أودى
بحياته ، فدفن في ذلك المكان بكل ما يليق به من مظاهر الاحترام .

- ٨ -

ما كاد الترك القادمون من أنطاكية يغادرون أرتاح عند انبلاج
النهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبي قد أصبح على مشارف
المدينة ، وأنه قد نصب مخيمه على مقربة منها ، وانصاع زعماء
الجيش للنصح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح
لمساعدة من في « أرتاح » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعانونه
من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر تتلخص في أنه
إذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينة أمرا ميسورا ، عاد
كونت فلاندرز وبقية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا
حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات
الى تانكريد الذي كان قد رجع لتوه من قيليقيا ، بعد ان صار الاقليم
كله ملك يمينه فعادوا ، وعاد جميع القادة الآخرين الذين كانوا قد
خرجوا الى نواح مختلفة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن
ينقصهم سوى بلدوين الذي كان سلطانه فيما حول الرها يزداد
بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم ، وهكذا تجمعت فرق الجيش المختلفة ،
وتماسكت قواته مرة أخرى ، واذا ذاك نودى في الجميع الا ينفصل
أحد ما عن الجيش الرئيسي الا بأمر يصدر اليه .

حينذاك نقضوا خيامهم ، وأخذوا في الزحف على أنطاكية من أقصر الطرق الموصلة اليها ، واعترضهم في منتصف طريقهم نهر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع التحصين ، فرغب القوم في إزالة كل عقبة في هذه الناحية يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أية صعوبة أفضى بها الى الكتيبة التى خلفه ، وشرح لقادتها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هذه الكتيبة الوجيهان افزار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارغان فى استعمال السلاح ، وقد نشرأ أعلامهما .

ولما انفصل الكونت وأتباعه من الجيش الأصيل تقدموه حتى بلغوا الجسر المشوار اليه وكان بناء حجريا شديدا الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج متين الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمي بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضات النهر ، كما وصل من أنطاكية سبع مائة فارس رابطوا على الشاطئ البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا - تحت أى ظرف من الظروف - بين رجالنا وبين عبور هذا النهر المسمى بنهر العاصى ، ويطلق عليه الناس اسم النهر « القاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر وينزل الى البحر مورا بأنطاكية ، ويظن البعض أنه هو نهر دمشق المعروف باسم « قرقر » ، ولكن تأكد لدينا بما لا يحتمل النقض خطأ أصحاب هذا القول ، ذلك أن نهرى قرقر والبانة ينبعان من جبال لبنان ، وبعد أن يشق الاقليم الذى به مدينة دمشق ويجاوزانها - ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى ليخيل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء .

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين ينبع من اقليم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجتاز شيزر وأنطاكية حيث
يصب في البحر الأبيض المتوسط .



ولما بلغ كونت نورمندی بقواته هذا الجسر تكاتف على الحيلولة
بينه وبين عبوره حراس برجى الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على
الشاطئ الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الضراوة في
هذه الناحية بين الفريقين ، يزيد من عنفه أن رجالنا كانوا مستميتين
في شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها
العدو الذي راح ييذل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم
بعيدا عن المخاضات .

في هذه الأثناء التي كان كل من الجانبين فيها يجهد نفسه
غاية الاجتهاد من أجل غايته كان الجيش الرئيسي يدنو شيئا فشيئا ،
ذلك لأنه لما شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعقابهم
من جزاء القتال عند الجسر ، يادر العسكر [الصليبي] الى الاسراع
لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا ارتداد العدو راودهم الأمل
في فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير .

ولما تكامل وصول جميع الكتائب دقت الطبول ، ونودي
بحمل السلاح ، فاستجاب الجند للنداء بكل ما بهم من بأس ،
وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغموا العدو على الفرار ، أما
الصليبيون الذين لم تسعفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر
يحاربون منه ، فقد أنفوا أن يظلوا في أماكنهم بلا قتال ولكنهم
مضوا فاكشفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا في
زحزحة الأعداء من أماكنهم مما جعلهم لا يصادفون بعد ذلك أية
مقاومة في احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واذا تم عبور كل الجيش

بعرباته الحربية ومركباته وما معهم من شتى صنوف المتاع ، نصبوا معسكرهم فى مراع فسيحة خضراء على بعد خمسة أو ستة أميال من المدينة ، حتى اذا كان اليوم التالى تابعوا زحفهم فى الطريق الرئيسى الكبير الواقع بين النهر والجبال ، فلما صاروا على بعد ميل واحد من أسوار المدينة نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأنطاكية مدينة عظيمة مجيدة ، تتبوا المرتبة الثالثة ان لم تكن الثانية بعد رومة ذاتها (فثم اختلاف كبير تجاه هذه المسألة) ، وهى تقف على رأس الجميع ، ولها الصدارة على كل منطقة الفرق وكانت تدعى فى الأزمنة القديمة «رييلاتا» وهنا كان قد جىء بصدقيا ملك يهوذا مع أبنائه فى حضرة نابخدا نصر ملك بابل الذى أمر بقتل الأبناء أمام أبيهم ، ثم سملت عينا الأب ذاته بعدئذ ، ولما مات الاسكندر المقدونى خلفه فى حكم جزء من هذا الاقليم « انتيوكس » فاحاط المدينة بأبراج على سور شديد الارتفاع ، حتى صارت المدينة بفضل « انتيوكس » فى حال أجسن مما كانت عليه من قبل ، وأمر أن تسمى بأنطاكية اشتقاقا من اسمه ، واتخذها عاصمة لمملكته ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولخلفائه على مدى العصور ، وكان فى هذه المدينة أبرشية كهنوتية لكبير الحواريين الذى كان أول من تبوا وظيفة الأسقف هناك ، لأن الموقر توفيليوس أحد مواطنى أنطاكية وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كنيسة فى بيته ، وهو الذى كتب له لوقا انجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل أنطاكية كما أنه خلف بطرس الطوبانى فى نفس الكنيسة ، وكان ترتيبه السابع فى ثبت من تولوا أسقفيتها .

وقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصطلح على تسميتهم بالمسيحيين ، اشتقاقا من كلمة المسيح . ولقد رحبت هذه المدينة عن طواعية وشوق بتعاليم هذا الحوارى واهتدت كلها مرة واحدة الى العقيدة المسيحية ، وكانت هي أول مدينة راحت تبشر بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح شذاه فعطر جميع الأرجاء ، ما قرب منها وما بعد ، ومن ثم اختير لها اسم جديد فسميت « نويبوليس » وهكذا فان المدينة التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل شرير كافر عادت فمنحها السيد منحة طيبة هي أهل لها ، وأصبحت تعرف بأنها مدينة وموطن الذى دعاها للايمان ، لانه كان لهذه المدينة في أيام خطيئتها السالفة السيطرة على كثير من الأقاليم الخاضعة لها ، حتى اذا تقدم الزمن عاشت حياة طاهرة برة ، متبعة طريق المسيح ، واستبقت نفس الأساقفة .

ويقال انه كان تحت امرة بطرك هذه المدينة - الحبيبة الى الله - عشرون ولاية ، كان لأربع عشرة منها أساقفتها وكهنتها ، أما الست الباقيات فلها أساقفتها المعروفون بالجناليق ، وكان أحدهم يختص بأنى ، والآخر بهيرينوبوليس أو بغداد ولكل منهم قساوسته ، وتندرج كل هذه الولايات تحت اسم واحد هو المشرق الذى ورد في تقرير مجمع القسطنطينية حيث نقرأ فيه « فليكن لأساقفة المشرق ادارة المشرق وحده ، وليكن شرف التقدم لكنيسة أنطاكية حسبما هو وارد في قوانين مجمع نيقية المقدس » .

تمتاز مدينة أنطاكية بموقعها الرائع في ولاية كوليسيريا التي هي جزء من سورية الكبرى ، وهي تمتد عبر واد فريد في بهائه وخصب تربته ومزارعه التي تسقى كلها في الواقع بالروافد والقنوات المائية ، ويقع هذا الوادي وسط جبال تنحدر ناحية المغرب كما يمتد قرابة أربعين ميلا طولا ، وأما عرضه فيتراوح بين أربعة وستة أميال حسب الناحية التي هو بها ، وتوجد في القسم العلوي منه بحيرة تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاورة التي تتجمع كلها هنا ، كما يوجد على مسيرة ميل منها النهر الذي يجري عبر الوادي ثم يجاوز المدينة الى البحر .

وينبثق كذلك من البحيرة جدول صغير يصب في نفس النهر في انحداره قرب المدينة ، وعلى الرغم من شدة ارتفاع الجبال التي تكتنف المدينة من جانبيها ، الا أنه يخرج منها مجرى ماء عذب يسير متعرجا ، كما أن جوانبها المنحدرة حتى القمة صالحة تماما للزراعة ، ويعرف الجبل الواقع في الجنوب باسم العاصي (اورنتس) كاسم النهر الذي يشق المدينة ، ويقول جيروم ان أنطاكية تقع بين العاصي وبين الجبل الذي يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذي يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا وينفرد بتسمية خاصة به ذات دلالة معينة ، اذ يعرف عادة بجبل «بارليبه» ، ويظن بعض الثقات أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود النبع المعروف بنبع «دافني» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو النبع القشتالي المذكور في الأسناطير القديمة ، والذي كان مكرسا لآلهة الفنون والشعر والغناء ، الكثيرة الورد في كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التي تعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينة الموجودة في سفح جبل العاصي ،

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع فى اقليم بوييتيا الذى هو جزء من « تساليا » وقد وصفه «أوفيد» فى القسم الأول من كتابه « ميتامورفيوزس » فقال بأن أرض فوكيس تفصل الحقول البوييتية عن حقول أتيكا ، وهى اقليم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدث أن تدفقت المياه فجأة بغزارة فى ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى عنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسيس والتي تبدو شامخة كأنها تخترق السحاب .

ويسمى سولينوس فى الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هستور » : التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى مقربة من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذى يمكن أن يرى المرء من قيمته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استدار المرء قليلا - حين يبدد الضوء الظلام - أمكنه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .



وحتى لا يقع القارئ فى حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب اخباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاهما هى عاصمة ايسوريا ، وتبعد عن أنطاكية مسيرة تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى فمجاورة لها ، ولا تبعد احدهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهى تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينة الآن بميناء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف بنبع « دافن » أو النبع القشتالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابولو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فيما استغلق عليهم ادراكه ، وحدث أن استقر هنا قرب

أنطاكية - فترة من الوقت - المارق جوليان بعد انفصاله من المسيح وردته عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحملة على الفرس يكثر من التردد على معبد أبولو ، يستشير فيه فيما هو قادم عليه ، ويشير تيودوريس الى هذه الحقيقة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتمس جوابا من الهيكل البيثيني في دافنى حول مدى النجاح المحتمل لحربه ضد الفرس اذا بالكاهن ينهره لأن جثمان الشهيد بايلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واذ ذاك أمر جوليان بنقله » .

وترد الإشارة الى نفس الحادث - ولكن في تفصيل أكثر - فى الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعوثته ، حين راح يسترضى أبولو فى غابة دافنى القريبة من النبع القشتالى بضاحية من ضواحي أنطاكية ، فلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت ، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بايلاس قريب من هناك ، ومن ثم فانه لا يمكن الإجابة على سؤاله .



وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع القشتالى ، الا أنه يجب ألا يختلط فى الأذهان بالنبع القشتالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بينجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانيب ، اذ ان هذا الآخر موجود فى بيوتيا بناء على ما يقوله سولينوس الذى يكتب فيقول : « ويوجد قرب طيبة جبل هليكون وغابة كيترون ونهر اسميناس ، كنا يوجد هنا أيضا ينايع اريتوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها جميعا ينبوع أجانيب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مبتدع الحروف هو أول من عثر على هذه
الينابيع أثناء تجواله فى المنطقة بحثا عن موضع يستقر فيه فان
خيال الشعراء القوى أدى الى ظهور اسطورتين تقول احدهما ان النبع
تدفق من حفر حصانه ، وأن الشرب منه كان ملهمه للفنون .



ويوجد فى الشمال من أنطاكية هضبة تعرف عادة باسم « الجبل
الأسود » تكثر بها الينابيع وتسقى من الروافد ، وكانت مآثره على
سكان المنطقة جمة ، متمثلة فى الغابات والمراعى ، ويقال ان هذه
الناحية كانت تزخر فى قديم الزمان بكثير من الاديرة ، بل تتوفر بها
فى وقتنا الحاضر أماكن طاهرة كثيرة ، مليئة بالمحبة وهى مساكن
أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب .



ويجرى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر ، والذى
ذكرناه آنفا ، وقد شيدت المدينة على أقرب وأعمق منحدر للجبل
ناحية الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفع
ويسير على طول السفح منحدرًا الى النهر ، وتكتنف محيطها أرض
شاسعة الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمتان تناطحان السحاب ، وتقع
قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانة
يعدونه موضعًا لا يمكن اقتحامه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن
بعض هوة ضيقة ينحدر عبرها تيار جارف منسوب من الجبل ، كما
يجرى وسط المدينة هذا النهر الذى له أياد جمة على السكان ، كذلك
توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينة أهمها بالباب الشرقى المعروف بباب

القديس بولس ، أما نبع دافنى الذى يبعد حوالى ثلاثة أو أربعة أميال، فقد تم حفره عن طريق اقامة مجرى فوق القناطر وتفننوا فاحتالوا حتى جعلوا الماء يتدفق الى أماكن مختلفة كثيرة فى أوقات معينة .

وتحيط بالمدينة من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر الأصم ، الشديد الصخامة ، العظيم الارتفاع ، ويطل على كل هذا كثير من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد ، وهى على أبعاد متساوية بعضها من بعض ، ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية السفلى التى هى أحدث جزء من المدينة ، ويقترب مجراه كل الاقتراب من الأسوار ومن الجبل الذى يعتبر تكملة لسور المدينة وبوابتها ، ويقول بعض الثقات ان المدينة تمتد مسافة ميلين طولا ، ويقول غيرهم بل ثلاثة ، وهى تبعد عن البحر مسافة اثنى عشر ميلا .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينة الذائعة الصيت رجلا تركى الأصل يدعى ياغى سيان ، وهو من اتباع عاهل عظيم شديد البأس اسمه ملكشاه هو سلطان فارس الذى أشرنا اليه من قبل ، وقد استطاع الأمير [ملكشاه] بقوة السلاح أن يضم الى سلطانه جميع هذه الولايات وأن يدخلها تحت حكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه بعد ان دانت له كل الشعوب والقبائل ، فعاد ووزع فتوحاته بين أولاد أخيه وأتباعه ، اعتقادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره الجملة عليهم اشتد ارتباطهم به وإخلاصهم له ، فكانت نقيصة وما جاورها من الولايات ، من نصيب قلع ارسلان فى هذا التقسيم ، كما أشرنا آنفا .

• أما دمشق وما يتبعها من المدن التي ندفع لها الجزية وكذلك
الاقليم الذي هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه
دقاق •

ونخلع ملكشاه على هذين العاهلين مرتبة السلطنة ولقبها ، ولما
كانت مملكة قلع ارسلان واقعة على حدود اليونان فقد كانت في
نزاع دائم مع امبراطورية القسطنطينية •

أما دقاق - فكان بسبب مملك - في حروب لا يخدم أوارها
مع المصريين ، والذي راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكثيرة
للزيادة المطردة في قوتهم وبطشهم •

أما التابع الآخر من اتباع السلطان واسمه آق سنقر - وهو
والد [عماد الدين] زنكي ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب
الشهيرة من نصيبه •

وأعقد ملكشاه فيض كرمه أيضا على باغى سيان الذي نتكلم
الآن عنه ، فوصله بمثل ما وصل به هذين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكية
مع اقليم صغير ، وقد حملة على هذا ما كان من احتلال خليفة مصر
كل البلاد حتى اللاذقية بالشام •

ولما علم ياغى سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين في
طريقه اليه أنفذ كثيرا من الرسائل - شفاها وكتابة - الى جميع
أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسيما خليفة بغداد
وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا
لطلبه في يسر ، ولبوا ندائه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك
ما ترامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر جسيم عليهم ، ولما كان ألب أرسلان يعلم بخبرته وكشاهد عيان بما عليه هذه الجيوش الصليبية من كثرة العدد والبطولة التي لا تقهر ، فقد بعث الى هذين العاهلين بتفصيل دقيق عن هذه الجيوش .

وقد أثرت في هذين السلطانين التماسساته الحارة ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بإرسال النجدة اليه ، وكان البساعت لأحدهما على هذه النجدة رغبته في التكفير عن تقصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمة عن رغبته في ضمان سلامة بلاده من غزوات الصليبيين ، وحماية نفسه في الوقت ذاته من بطشهم .

وتعهد الملكان بإرسال القوات المطلوبة اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انهما صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من مجيء الصليبيين مستبدا بباغى سيان ، ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، وإذا كان يتوقع الحصار بين لحظة وأخرى فإنه لم يدخر وسعا في جمع الكثير من الميرة والسلاح ، وفي تشجيع أهل المدن وحثهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى التي لا غنى عنها في العادة في مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالي أنفسهم كانوا متحمسين غاية الحماسة في الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما في طاقتهم لجلب كل ما يعينهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحي الاقليم الا جابوها ونهبوا كل ما جاورهم ، وعادوا محملين بالحبوب والنبيل والزيت وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، حتى امتلأت المدينة بكل ما هو ضروري من الميرة ، ومن ثم استطاعوا

– ببعد نظرهم وبجهودهم الكبيرة – أن يدعموا مركزهم أمام ضراوة الجيش الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجيش الصليبي فقد هرب منها الى انطاكية كثيرون من ذوى المكانة والبناس ، فرارا من وجه قواتنا . دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وانما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم ورأوا في تحصينات مدينة انطاكية وقوتها ما يستحيل معه اقنحامها ، ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظيمة بهؤلاء الوافدين . ويقال انه كان من بين الأهالي وتجمعات المرتزقة حوالى ستة أو سبعة آلاف فارس ، وأكثر من خمسة عشر ألف أو عشرين ألفا من المشاة المدججين بالسلاح تأهبوا للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صباروا قاب قوسين أو أدنى من انطاكية ، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ، واقترح بعض الزعماء – نظرا لقرب دخول الشتاء – أن يؤجلوا حصار المدينة حتى مطلع الربيع وبرروا هذا التأجيل بأنه سيكون من أصعب الأمور تجميع العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتشتت الجند في الوقت الحالي في المدن والقلاع المختلفة ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار ما اعتزمه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من قواته . كما أنه كان في الطريق اليهم كتاب جديد قادمة من البلاد الواقعة فيما وراء الألب ، وأن الحكمة تقتضيهم انتظار وصول هذه الجيوش التي سوف تؤدي الى زيادة العسكر زيادة هائلة تمكنهم – كما قالوا – من تحقيق هدفهم المنشود في يسر أكثر .

أما فى الفترة التى لا تمارس فيها هذه القوات الحرب فإنه يمكن تقسيمها أقساما يذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر لقضاء الشتاء فيما جاوره من المناطق التى هى أقل تعرضا للهجوم ، حتى اذا ما وافى الربيع عاد الجيش وانضم بعضه الى بعض مرة أخرى ، ويكون رجاله قد استردوا نشاطهم ، وتأهبوا للقيام بالأعمال التى لابد لهم من القيام بها ، كما أن الخيول ستكون أوفر قوة بسبب العلف وما نعمت به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن غيرهم رأوا أن هناك ما هو أجدى من ذلك ، ألا وهو الاحداق بالمدينة فى الحال فى حركة مفاجئة وعلى غير توقع منها ، وقالوا إنه اذا أتيح للأهالى فترة من التقاط الأنفاس فسوف يتوفر لهم وقت أطول ينصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم ، وتجميع الكتائب الكثيرة التى استدعوها لمعاونتهم .

ولقد تغلب فى هذا الاجتماع الهام رأى الفريق القائل بوجوب المبادرة إلى حصار المدينة وأن الخطر فى ارجاء القتال ، وأن القوات التى ترسل للاستكشاف لا ينبغي أن ينفصل بعضها عن بعض ، وهكذا اتفقت الآراء جميعا على الزحف على المدينة والبدء فى عمليات الحصار فى التو واللحظة .

ومن ثم فقد قوضوا خيامهم يوم ١٨ أكتوبر وزحفوا شطر مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن القوات الصليبية التى كانت تحسن استعمال السيف كانت تبلغ ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل ، إلا أنه كان من المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطة كاملة ، ذلك لأنه بالإضافة الى قمم الجبال التى قلنا إنها تقع فى منطقة الأسوار والتى لم تبذل أية محاولة لتطويقها ، فإن هذا الجزء من المدينة ممتد من

سفع الجبل الى النهر - وهو جزء أكثر انبساطا - لم يكن في
الامكان الاحداق به بحصار مستمر .

ولقد صعب وصول الجيش الصليبي والعمل في اقامة
المعسكر كثير من الجلبة ، وكان يخيل للسامع أن تفزع الأبواق ،
وصهيل الخيل ، قعقة السلاح ، وهي مختلطة بصيحات الرجال ،
قد بلغت عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق
خلال ذلك اليوم بطوله والأيام التالية لوصول جيشنا ، ولم يتردد
فيها صوت أو تسمع نامة من أى نوع ، حتى لقد كان يخيل للمرء
أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على
حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكثير من الميرة والمتونة .

- ١٣ -

كان في هذا القسم من أنطاكية - الواقع في السهل - خمس
بوابات ، واحدة منها في الموضع الأعلى من الناحية الشرقية - وتعرف
الآن ببوابة القديس بولس ، نسبة الى أنه يوجد في المنحدر
الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم ، كما يوجد
أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها
منطقة تمتد بطول المدينة ، وهي المعروفة الآن ببوابة القديس جورج
والتي هي على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد .

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب تطل جميعها
على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة
جسر يجتاز الممشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق ويبعدان قدر ميل عن النهر ، ويطلق على الثالث اسم باب
الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذى يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر
تلطم الأسوار ولا ترتد عن المدينة فيما بين بوابة الدوق المشار اليها
حالا الواقعة فى المنتصف ، وبين آخر بوابة فى هذا الجانب .

ولما كان من المستحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابة
أو بوابة القديس جورج الا عبر النهر فلم يضرب الحصار على هذين
البابين وان أحيط بالأبواب الآخر العلوية ، فقام بوهيموند ومن
انضموا الى معسكره منذ البداية بمحاصرة أعلى هذه البوابات .

وكان حوله - وان كان أسفل منه - عسكر روبرت دوق
نورماندى ، وروبرت كونت فلاندرز ، وستيفن كونت بلوا ، وهيچ
العظيم ، وقد استمر هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية
والفرنجية والبريطانية فى حصار الناحية الممتدة من معسكر
بوهيموند الى باب الكلب الذى أحرق به ريموند كونت تولوز
وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع
حشد كثيف من الجاسكونيين والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت
جموعهم تشغل كافة المنطقة حتى البوابة الثانية .

وقد أقام الدوق جودفروى معسكره فى تلك الناحية الأخيرة ،
وكان معه أخوه أستاس ، وبلدوين دى هينولت ورينارد دى نول ،
وكونون دى مونتاج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة
المدوية ، بالإضافة الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت راية
الدوق منذ البداية ، فشغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوئارتجبيين
والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافاريين كل ما بقى
من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضعت هذه القوات على
هيئة مثلث ، تمتد رءوسه بين المدينة وبين النهر الذى يغسل

أسوارها ، وبين معسكر القواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه الناحية الأحراج التي اجتثها جيشنا عن آخرها واتخذ مما حصل عليه منها متاريس تحميه وتحمي خيوله .



كان أهل البلد يتطلعون من خلال الفتحات الموجودة في الأبراج والأسوار الى المعسكر ، فأدهشهم بريق أسلحتهم الذي يخطف الأنظار وأذهلهم نشاطهم في عملهم نشاطا لا يعرف الكلل ، وطريقة إسكانهم من معهم ، وترتيبهم خيام المعسكر ، كما امتلأت نفوسهم خوفا مما شاهدوه من كثرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا يقارنون حاضريهم بماضيهم ، والأخطار التي تهددهم حاليا بما كانوا ينعمون به من استتباب الأمن تملكهم الفزع على نساءهم وأولادهم وبيوتهم التي درجوا فيها ، وعلى حريرتهم وهي أغلى ما يملكه الانسان ، ورأوا أن من اختطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الخطر الشديد الذي يكابدونه هم من وجودهم في غمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا يترقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتقادهم الجازم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة والزخم ، لا يمكن أن تسفر نهايته الا عن دمار المدينة وضياع حريرتها

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم والميزة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على القيام بطلعات متعددة وراء النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها الى مسافات قاصية ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سالمين غانمين ، بسبب استمرار بقاء الأهالي داخل المدينة دون أن يجسروا على التجوال فيما حولها ، حتى ألف العسكر العبور عدة مرات في اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المستطاع القيام بهذا العبور الا سباحة . وسرعان ما تجلت هذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم في عبور النهر من فوق الجسر ، تارة جهرا وتارة خلسة ، مما أدى الى قدرتهم في أحيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنا ، أو اثخانهم بالجراح ، لأنهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون أن يأخذوا حذرهم ، وكانوا يخرجون في أفراد قلائل بحثا عما يحتاجونه ، وقد استفاد العدو فائدة قصوى من أن النهر كان يقف حجر عثرة كبرى في طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبة ذاتها هي التي كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم يرونهم يقعون في يد العدو ، وأراد القادة التغلب على هذا الموقف قرأوا الخير في بناء برج من أى مادة تتوفر عندهم ، لأنه ان يبن مثل هذا البرج تكن مساعدتهم أكثر فعالية في القضاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح في العودة الى مجتمعاتهم ، دون أن يتكبدوا الا خسائر طفيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاة اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النزول الى الساحل .



تان هناك عدد من المراكب راسيا في النهر وعلى سطح البحيرة التي فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم بسطوا عليها ألواحا سميكه ، ومواد خشبية أخرى تصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضها الى بعض احكاما كبيرا بحبال مجدولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف تماما لأن يسع

فى المرة الواحدة عدة أشخاص يعبرونه جنباً الى جنب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائماً كل الملاءمة لرجالنا ، وكان منصوباً قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة التى خصصت له للمراقبة ، وعلى مسافة تقرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينة ، ولا تزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها ، اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعة بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك .

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحية البوابة المتصلة به فحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت الثالثة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب ، تعد مصدر خطر جسيم يهدد قواتنا ، لأنه كان فى هذا الموضع - كما قلنا - جسر صخرى يمتد فوق مستنقع ويخرج من المدينة ، وقد تكون هذا المستنقع من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البوابة الشرقية ، أو بوابة القديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى ، وكثيراً ما جاءت عن طريق هذا الجسر غارات جمّة فى منتصف الليل ، وأخرى فجائية بالنهار ، وكلها تستهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراسة تلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن يقتحم البوابة ويصب وابلاً من السهام تتهاوى كالطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثيرين من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان جل اعتماد الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالماً عبر الجسر الى المدينة بعد إتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال التى فقدوها كونت تولوز وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء المرابطين فى تلك الناحية تجاوز كثيراً ما فقدوه عسكر القادة الآخرين .

أدت الخسائر التي وقعت في صفوف المحاربين الناجمة عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونت والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لتحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم زردياتهم ودروعهم ، وقد غطوا رؤوسهم بالمعافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما في طوقهم من قدرة لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واستعصى عليهم ، كما راح الأهالي يعرقلون جهد العسكر اذ يرمونهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والنشاب ، فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم في محاولتهم هذه تخلوا عنها الى أخرى مخلفة لها ، فقرروا اقامة آلة حربية في مواجهة الجسر مع وضع حراسة مستمرة من رجال مسلحين ، ليس لهم من عمل سوى صد الهجمات التي يشنها المحاصرون ، وجمعوا اذ ذاك كل ما تحتاجه هذه الخطة ، كما جاءوا بالعمال ، ولم تكد تنقضى غير أيام قلائل حتى كان العمل قد أنجز تماما على أحسن ما يكون الانجاز ، فقد بذل العمال جهدا شاقا ، وواجهوا الأخطار في جرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح الممرد ، وعهد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآلة منصوبة الى الأسوار ، لم يججموا عن المخاطرة فصوبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف آلتها التي راحوا يصبون عليها وابلا غير مقطوع من قذائفهم الحجرية الضخمة ، كما شربع الذين فوق الأسوار والأبراج يفوقون نبالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا يبغيون بها من هم حول الآلة ليردوهم عن الجسر .

وهكذا استمر المدافعون الواقفون على الأسوار في شن غاراتهم من كل ناحية ، وفي صب وإبل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجز البعض الآخر أملا منهم في رد الصليبيين الى الوراء ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة في كرة عنيفة استولوا فيها على الجسر عنوة ، وشقوا طريقهم الى الآلة يقاتلون من يعترضهم ، وسيوفهم مشرعة في أيديهم ، ومزحزحين من وكلت اليهم حمايتها ، تم أشعلوا النار فيها حتى أحوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم اتبعوا هذه الخطة في مواجهة المتاعب التي تصادفهم عند البرج ، ولذلك فما كاد اليوم التالي يطلع حتى كانوا قد أقاموا ثلاث آلات ، وراحوا يصبون منها وإبلا موصولا من القذائف ، مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسوار والبوابة ليمنعوا الأهالي من شن غاراتهم العدوانية ، وحتى لا يجروا أحد منهم على الخروج من تلك البوابة طالما أن الآلات مستمرة في عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقترب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطة برهنت هي الأخرى على عدم جدواها ، فعند الصليبيون الى اتباع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهي أخذ الأحجار الكبيرة وجذوع الأشجار الضخمة التي يعجز المائة من الرجال عن زحزحتها الا بشق النفس وراحوا يدحرجونها ناحية الإنابة ، وقام بهذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه ، حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كثيرة أمام الإنابة ، فباعت اذ ذاك جميع محاولات الأهالي في دفعها بالفشل الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائي يشنه العدو من هذه البوابة .

وحدث في أحد تلك الأيام أن خرجت طائفة من المشاة والفرسان من جيشنا ، تبلغ الثلاثمائة عدا ، وجاوزت الجسر الى ما وراءه التماسا للعلف ، وتفرقوا جريا على عادتهم في ربوع تلك الناحية بحثا عن الأشياء الضرورية ، وكانت حاجتهم الملحة في التفتيش عن الطعام تضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذي اعتادوه ، وعادوا سالمين من غدواتهم التي خرجوا فيها يبحثون عن الميرة حتى وهم محملون بأحمال ثقال مما يحتاجونه ، ومن ثم اعتقدوا ان الحظ سوف يمشى في ركابهم على الدوام ، ولم يخطر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كتلك الأحداث التي تصاحب الخروج في طلب العلف زمن الحرب ، فجانبوا الحذر والانتباه الواجبين .

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كثيفا لمباغتتها ، حتى اذا ما عبرت الجسر الصخري انطلقوا بكل ما أوتوا من قوة شطر الصليبيين الذين كانوا يجولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فقد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبيون الى الجسر المصنوع من القوارب رجاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بهم سبقوهم اليه ، واذ ذاك حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابتلعهم الموج وكان نصيبهم الموت . بعد أن كان يراودهم الأمل في النجاة ، وأما من سواهم فقد تدافعت حشودهم الكثيفة وتزاحموا فسقطوا من أعلى الجسر في النهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التي فغرت لهم فاهها وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه النكبة هب آلاف من الفرسان الى
أسلحتهم وعبروا النهر ، فاعترضهم العدو وهو عائد بعد قتله
الصليبيين فرحا بما وقع في يده من الغنائم ، فهاجمه رجالنا في
الحال ، وراحوا يقصون آثاره في عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة
المدينة ، وكان الخطب جسيما . وحين رأى أهل البلد اخوانهم
الموطنين في هذا الخطر الباعث على الأسى وهم يروحون ما بين قتيل
وجريح تحركت قلوبهم عطفًا عليهم ففتحوا الباب ، وتجمعوا عبر
الجسر الحجري ، في جموع كثيفة لم يد المعونة الى أصدقائهم ، وشنوا
هجومًا شديدًا - لم يؤلف منهم من قبل - على قواتنا التي قاومت
في بداية الأمر مقاومة شديدة ، لكن ما لبثت ان تغلبت عليها الجموع
الكثيفة ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الحصوم في اثرهم حتى
بلغوا الجسر المصنوع من القوارب ، ومات في هذا القتال كثير من
مقاتلنا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كما
اضطربت صفوف الفرسان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم
يزاحم بعضًا ، فسقطوا هم أيضا في النهر ، وقد أثقلتهم الدروع
والزرديات والخوذات التي عليهم ، فابتلعهم اليم هم وخيولهم ، ولم
يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابد رجالنا من الحصار أهوالا لا تقل عما كان يكابده
من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفي في خروجهم
الى النواحي التي حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفًا لأهل البلد الذين
بذلوا من جانبهم كل محاولة لصددهم ، وحدث في نفس الوقت ان
أخذت قوات معادية أخرى تتربص بهم في الغابات وتترصدهم في
الحقول ، وتنصب لتصيدهم الكمائن التي كثيرا ما صادفت النجاح ،
وترتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ،
أو الذهاب بعيدا في طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكاتا

آمنا لأن الجميع صاروا فى فزع من ان تباغتهم على غرة القوة الضخمة - التى قيل ان العدو قد أخذ فى جمعها من نواح متعددة .

هنا قد يتساءل الرجل العاقل : أى الحالين كانت أحسن من غيرها ، وأيها كانت مبعث فزع : « حالة الجيش المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » .

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالتفصيل الأحوال التى كانت تقع غالباً كل يوم فى الأماكن المختلفة بسبب هذا الحصار العنيف الطويل الأمد لكان أمراً يطول شرحه وليس موضعه فى هذا الموجز التاريخى الذى أحاول أن أنجزه بكل الدقة ، فلنتجاوز الأحداث الخاصة ونتابع مجرى الحوادث العامة .

حينما دخل الحصار شهره الثالث مع تقلب الخطوط فى هذه الحرب المستمرة أخذ الطعام فى التناقص فى المعسكر وعانى الجيش الأمرين من قلة المئونة .

فى البدء كانت هناك وفرة بالغة الضخامة فى كل شىء تمس الحاجة إليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، وتوهم الناس - جرياً على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى ، غير متوقعين أى عناء قد يلهم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما بين أيديهم من خيرات ، مما ترتب عليه ان أتوا فى وقت وجيز على ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن يكفيهم أياماً طويلاً لو أنهم التزموا الاعتدال فى استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلتزموا القصد الذى هو سمة العقلاء ، بل كان ثم بذخ
سفيه فى كل ناحية ، تعدى ضرورات عيش الانسان الى علف الجياد
ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شىء مما نجم عنه أن أصبح
الجيش بأجمعه موشكا على الفناء ، وذلك بسبب ما ترتب على انتشار
المجاعة من تضائل عدد المحاربين ، وحينذاك نودى فى الناس بعقد
مجلس عام يضمهم جميعا ، وقرروا تقسيم كل الغنائم التى تقع فى
أيديهم قسمة عادلة ، وأكدوا قرارهم هذا باليمين قطعوها على
أنفسهم ، وكونت لذلك عدة كتائب قوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائة
رجل ، خرجوا معا وراحوا يذرعون الناحية بأكملها فى محاولة منهم
للحصول على الطعام بأى وسيلة يقدرون عليها .

واعتماد هؤلاء الباحثون عن الطعام ان يعودوا وقد فاضت أيديهم
بالأسلاب الكثيرة ، والغنائم الوفيرة ، والمثونة الضخمة ، وكان ذلك
قبل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمة هذه الجماعات ووضع
الكمان لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم
لا يزال غاصا بقطعان الماشية والأغنام وأحمال الحبوب والشراب
وغير ذلك من الغلات ، وكان هذا هو السبب فيما أشرنا اليه من
قبل من وفرة المثونة فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى
المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت
شوكتهم قد ضعفت من جراء ما استولى عليهم من خوف أذل نفوسهم
عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح
العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدي ، وكثيرا ما كان يحدث
أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما
كان مصيرهم .

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم
يعد من اليسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

فى يوم واحد ، وأصبح ثمن البقرة أو العجلة ماركين بعد أن كانت تباع من قبل بخمسة شلنات ، ولا تكاد الثمانية شلنات تكفى لشراء علف وجبة واحدة للحصان فى ليلة واحدة ، وكان الجيش قد جلب معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يبق منها فى المعسكر سوى ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلكت بردا ، ونفقت جوعا ، أما مالا زال منها حيا فقد أخذ عدده فى التناقص شيئا فشيئا ، وأصابها الهزال بسبب الجوع والبرد المهلك .

يضاف الى ذلك تسرب الرطوبة والعفن الى الفساطيط والخيم حتى لقد هلك الكثيرون ممن كانت لا تزال عندهم الاطعمة ، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء يدفع عنهم زمهريره ، وهطلت الأمطار الغزيرة فأفسدت الطعام ، وتعفنت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه .

وقد ترتب على هذه الظروف ان تفشى الوباء فى كتائب العسكر ، وكان وباء قاتلا لم يجدوا معه مكانا يوارون فيه جيف موتاهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الجنائزية لهم .

أما الذين كانت دلائل الصحة لا تزال باقية عليهم فقد فروا خفية حتى لا يقعوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى لورد بلدوين فى الرها ، وبعضهم الآخر الى قيليقيا عند حكام مدنها ، ومضى آخرون غير هؤلاء وهؤلاء الى النواحي التى كانت قد آلت الى حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قتله الجوع وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان تضاعف الجيش الى الحد الذى قل معه عدد الأحياء منهم عن نصف ما كانوا عليه .

تدبر قادة الرب المخلصون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التى ألت بهم ، ففاضت نفوسهم حسرة ، وتشققت أكبادهم أسى على هذا الجيش المنكوب . فاجتمعوا كدأبهم للتشاور فى ايجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واستعرضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأى بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملة على أرض العدو ، يستولون فيها على الماشية ، وينهبون ما يقدرون عليه من الطعام اللازم ، على أن تقيم البقية الباقية من الرجال فى المعسكر أثناء غياب هؤلاء الرجال ، وان تبذل هذه البقية الباقية غاية الجهد فى حماية الجيش ، واتفقوا على أن يكلوا مهمة جلب المئونة الى بوهيموند وكونت فلاندرز ، وأن يبقى كونت تولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبا اذ ذاك ، كما كان جود فروى دوق اللورين ملازما للفراش لاصابته بمرض شديد ، فاستصحب القائدان معهما طائفة كافية من الفرسان والجنود المشاة بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبت فيهم الشجاعة على غير عاداتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يقينا منهم جميعا بأن تغيب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن تفلت من أيديهم ، فاستدعوا من المدينة حشدا كثيفا من شتى صنوف الناس واجتمعوا كلهم عند الجسر وكان مدخله مفتوحا ، فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويتدافعون فى اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السفلى فى محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكتيبة من الفرسان ، فاضطروهم الى الارتداد الى المدينة وقد فقدوا رجلين من رجالهم .

وحدث في أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرساننا الاستيلاء على جواد كبا براكبه فسقط عنه ، فلما رأى الجند التعيس - الذى لم يعد يحسن التفكير - هذا المنظر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد فروا خوفاً ، ومن ثم فقد لاذوا هم أيضاً بأذيال الفرار ، وزاحم بعضهم بعضاً عن كثب ، فكان في ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفعهم أحد ، فاندفعوا مرة أخرى فوق الجسر ، وهاجموا الهاربين بسيوفهم ، وتلاحموا واياهم ، ففروا منهم فتعقبوهم من الجسر الصخري حتى بلغوا جسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيماً ، فقد اندفع رجالنا وزاحم بعضهم بعضاً حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم خمسة عشر فارساً وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم السيوف فماتوا بعدها ، وغرق البعض الآخر في النهر ، فماتت الفرحة الكبرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينة قد أسكرهم النصر .

- ١٩ -

في هذه الأثناء خرج بوهيموند وكونت فلاندرز بموافقة الجميع على رأس طائفة من الجند ، في حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن يعودوا بوفرة ضخمة من المثونة حتى يبددوا ما نزل بالمعسكر من الضيق ، وقد أدت غدواتهم الحسنة الطالع في أرض العدو لتقليل نكباتنا ، لأنهم استولوا على منزل للعدو زاحر تماماً بكل ما هو نافع .

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافة الى مختلف النواحي ،
لتقصي أخبار الناحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور
على غنيمة ، فلما رجعوا اليه أنبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأتراك
قد نصبوا خيامهم في تلك الضاحية ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادر
فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى
هو ذاته في أثرهم على رأس الجيش الأصلي لمساعدتهم ان كانت
ثمة حاجة الى مثل هذه المساعدة ، ولكن لما كان الكونت رجلا شجاعا
ومحارباً عظيماً ، فقد استبسل في مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى
بوهيموند حتى كان قد أفنى من الكفار مائة ، فلاذت بقيتهم بأذيال
الفرار ، وبينما كان راجعاً الى الجيش الكبير مجللاً بالنصر ، جاءه
الكشافة الآخرون وأخبروه أن قوة من العدو تزيد عن سابقتها في
لتقصي أخبار الناحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور على
العدد والبأس تتقدم من ناحية أخرى ، فبعث لصددهم طائفة مع
الكونت ، ثم مضى هو ببقية عسكره ورائه ليكون على أهبة لنجدته
ان استلزم الأمر النجدة ، وشاهدت رحمة الرب التي كانت هدى
لقواتنا - أن يتردى العدو في بعض الشعاب الضيقة فانكفاً راجعاً
هارباً ، اذ أدرك ان لن تجدى الأقواس ولا السهام نفعا في هذا
القتال ، ولكن سيكون السيف هو الفصيل في هذا الصراع وجهاً
لوجه ، وهو نوع من القتال ليس بالمألوف عند العدو الذي ولى حينذاك
على ادباره فاراً فجده الصليبيون في تعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا
الكثيرين من رجاله حتفهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين
غانمين ، وجاءوا معهم - كرمز لانتصارهم - بالكثير من الجبال والبغال
وغيرها من الأسلاب ، ومجمل القول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم
التي استولوا عليها من شتى نواحي الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى في نفوس اخوانهم الحجاج ،
وأتاح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيرة يستريحون فيها من

تعبهم ، على أن الغنيمة - مع هذا كله لم تكن ضخمة جدا - بيد أنها كانت على أية حال كافية لتموين جموعهم ولو لبضعة أيام قلائل ، ومن ثم فانه لم يتهيا للجيش أن يتخلص تماما من متاعبه .

- ٢٠ -

وجاء في هذا الوقت من أرض رومانيا (١) خبر مخزن ملؤه الشجور والفزع ، فبث الذعر في أفئدة الجميع وزاد من قسوة وضعهم الباعث على اليأس .

لقد كان الخبر الذي ثبتت صحته كما يلي : -

كان هناك رجل شديد السطوة رفيع المكانة في قومه يدعى زفين (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن الخلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا الحج ، فأسرع ليساعد في حصار أنطاكية على رأس ألف وخمسمائة شاب من نفس الأمة خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت مغادرته مملكة أبينه بعد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يتمكن هو ومن تبعه من الانضمام الى الكتائب التي سبقته ، غير أنه انشغل بأمور خاصة به عاقت خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أملاه ان يتغلب عليها فتأخر ، فسار وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أى أحد من القادة الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينية التي رحب

(١) لفظ يقصد به جغرافيا آسيا الصغرى .

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ نيقية سالما ،
ثم أغذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع
خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حذره - بين مدينتى «فيليو ميليام»
و «تيرما» ، فخرجت عليه قوة كبيرة من الأتراك ليلا وباغتته فجأة ،
وأخذته على غرة فقتلته فى فسطاطه ، واستيقظ جماعته للأسف
متأخرين على جلبه العدو المقرب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كان
الوقت قد فات اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم تماما لصدده
وفتك بهم جميعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومة بطولية طويلة ،
وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضح
رجال [زفين] بأرواحهم هباء .

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنا من قبل عين تاتيكيوس نائبا عنه ،
ومرشدا للحجاج أثناء زحفهم ، فظل حتى هذه اللحظة مصاحبا
للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقد
ساوره الخوف - لجبن طبع عليه - ألا يستمر القادة فى حجهم .

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم
جاء الى مجلس اجتمع فيه القادة ، واجتهد غاية الاجتهاد ليحماهم
على التخلل عن الحصار ، وتوجيه الجيش كله الى المدن والقلاع القريبة
منهم لأنهم واجدون فيها المثونة بوفرة زائدة كما انهم يستطيعون
هنا ان يستمروا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد
جمع لمساعدتهم حشودا من أهم شتى بلغت آلاف لا يحصىها العد
وأعدها كى تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكيوس الى ذلك

أنه لما كان قد عزم منذ البداية على أن يشاطرهم متاعبهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر فإنه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد القيام بها ، وتستهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لحظته الى الامبراطور لحث الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المئونة اللازمة من الطعام ليحملها معه من الناحية التى على هذا الجانب من المدينة فلم يعارضه أحد من قادتنا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى مكر تاتيكيوس وخيائته التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى تحميلهم على تصديقه ذلك أنه ترك معسكره وجانباً غير ضئيل من أتباعه لم يستصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن يعبأ بما فيه سلامتهم أو ربما لأنه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وجعل بينه وبينهم موعداً يوماً يلقاهم فيه عند مكان حدده لهم .

ورحل تاتيكيوس مدعياً أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبداً ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخبث طويته ، ونكثه لعده وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لقد كان رحيله سابقة مؤذية فلم يعد القادرون على التسلسل خلصة من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الأيمان ولا يكثرثون بالعهود القوية التى أخذوها على أنفسهم منذ البداية .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشاً وتفشياً ، وعجز القادة عن ايجاد حل بات ينقذهم من هذا الشر المستطير ، فتخبروا من بينهم جماعة اتفقوا على أن يخرج منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بقوات كبيرة الى أرض العدو ، وغالباً كانوا يعودون الى قومهم منتصرين ، وان لم يغنموا شيئاً وليس معهم شئ من الميرة التى كانت حاجتهم اليها ملحة بل يعودون صفر الأيدي ، ذلك أنه كان قد تردد

بين العدو نبأ اعتياد خروج الصليبيين وشتهم الهجمات ، فبادر الأعداء لنقل قطعانهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صنوف الحيوان الى الجبال التى لم يكن ثم سبلية لاقتحامها ، ولم يكن الصليبيون قادرين على التوغل فى تلك النوحى البعيدة التى اعتصم خصومهم بها ، وحتى لو قدر لهم أن ينجحوا فى الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن يغنموا شيئاً .

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تفشيا وشدة فى الجيش يوما بعد يوم مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ، ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الخبرة الواسعة هذه الأحوال الى خطايا الناس ، وان الرب استشاط غضبا منهم ، وحق له أن يغضب ، فصب سوط عذابه على أطفاله المارقين لذلك اجتمعوا فيما بينهم للتشاور فيما يفعلون ، وخافوا الله كأنه أمامهم يروونه رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا بالتكفير عن آثامهم واعلان توبتهم الصدوق ، ولارجوع عن أخطاء الماضى ، وتجنب الوقوع فى مثلها فى المستقبل ، مؤملين من وراء ذلك أن يفتأوا غضب الرب . واذ ذاك قام صاحب الشرع فيهم أسقف بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب الرب ، وأجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمرائه العلمانيين بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شدة عزائهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الاعداد عقوبة للفحشاء والفجور بشتى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب القمار والقسم
بالأيمان الكاذبة والتطفيف فى الكيل والغش فى المقاييس ، وكل
ضروب الاحتيال من سرقة الغير ، ونهبهم ، وسلبهم .

ولما تقررت هذه القواعد ووفق عليها بالاجماع عينوا قضاة
وكلوا اليهم مراقبة هذه الآثام ، ومنحوهم كل السلطة فى الكشف
عن أصحابها ، وانزال العقاب بهم فما لبثوا أن وجدوا بعد قليل
جماعة شجبت هذه القوانين ، فلما قامت البيئة على هؤلاء الخطاة
شهر بهم تشهيرا قاسيا ، وأدانهم القضاة ، وحكموا عليهم بأقصى
ما يقضى به القانون تبعا لنوع الجريمة التى ارتكبها الواحد منهم ،
فارتدع سواهم وكفوا عن اقتراف جرائم كهذه الجرائم .

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمته يجنون ثمار الحياة
الطاهرة وهذا غضب الرب عليهم ، وتبلى هذا فى أن أخذ اللورد
جود فروى - الذى كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله - فى النقاها
واسترداد صحته تماما ، وتعافى من وعكته الحادة التى آذته طويلا
بسبب الجرح الذى أصابه من الدب فى بيسيديا من ضواحي
أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين فى محنتهم .

- ٢٣ -

ترددت فى هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا فى
كافة أنحاء المشرق ، وجاوزته حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب
الأخرى الخارجية مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحفت حتى
بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة فى حصارهم إياها ،

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يتسللون الى جيشنا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقة حول أسلوب هذا مزودين بالتقارير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس الغرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أبدا لأنهم كانوا يتقنون عدة لغات ، فيزعم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم في يسر وسهولة ما لهذه الامم من خصائص في لهجتها وعاداتها وزيتها .

لذلك اجتمع القادة للنظر فيما ينبغي عليهم اتخاذه لتأمين السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا - الا نادرا - عن أهل هذه الأمم التي ذكرناها : لغة وعادات وتقاليده ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد قلائل فقط ، حتى يتفقوا تماما على الاجراءات التي يتم اتخاذاها ضدهم جميعا .

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى التخوف من مغبة معرفة الكثيرين بأخبارنا ، والى ما يتخذونه حيال هؤلاء الناس فيتسامح بما اتخذوا من ينقلونه الى العدو رغبة في الأضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا باتا فقد قام بوهيموند - ذو الذهن الثاقب والفكر الوقاد خطيبا في الزعماء قائلا لهم : -

« سادتي وأخوتي : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقي ، وكلوها الى فاني بعون الله واجد لها العلاج الناجع » .

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لأعداد العشاء ، حتى قام بوهيموند - وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد - وأمر بإحضار بعض الأسرى من الترك الى مجلسه هذا ، وأسلمهم الى الجلاد أمرا اياه بشنقهم ، ثم أوقد نارا عظيمة كما لو كان يهيب العشاء ، وأمر بغسل هذه الأجساد ثم شيها على النار ، وألقى بتعليماته الى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء قرروا من الآن فصاعدا أن تزود موائد القسادة بلحوم جميع الأعداء والجواسيس ، بعد طهيها على هذه الصورة .

وانتشرت فى جميع أرجاء الجيش أخبار هذه الاجراءات التى اتخذها بوهيموند فى معسكره فتسابق الجميع الى فسطاطه فى فى دهشة ليشاهدوا هذه الخطة الجديدة ، وتملك الفزع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيقنوا أن ما ظنوه أشاعة صار واقعا ، وأدركوا ما سوف يؤول اليه مصيرهم فغادروا المعسكر فى لحظتهم هذه ، وعادوا الى بلادهم من حيث أتوا وأخبروا ساداتهم الذين كانوا قد بعثوا بهم ان ليس لأمة [الفرنجة] مثل فى الوحشية بين الأمم ، بل ولا بين الحيوانات المفترسة ، فهم قوم لا يقنعون باحتلال مدن عدوهم وقلاعهم ، ولا يكفيهم أن يغنموا شتى أنواع المتاع والرمم بخصومهم فى السجون أو تعذيبهم أو قتلهم ، بل ان هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك لملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولعق شحمه .

وانتشرت هذه الشائعات وأمثالها ، وتوغلت حتى أقصى بلاد المشرق ، فذب الذعر فى نفوس جميع الأمم ، يستوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعا من وحشية هذه الاجراءات ، وهكذا أدت اجراءات بوهيموند الى التخلص من شر الجواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قل أن يعرف العدو شيئا عنها .

يضاف الى ذلك أن خليفة مصر - وهو أقوى السلاطين المارقين بسبب كثرة ما لديه من المال والرجال - كان قد أرسل زسله الى قاتنا ، وتتلخص أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداتهم الدينية بعضها عن بعض ، ومباينة مذهب الواحد منهم لمذهب الآخر ، وظلت هذه الكراهية دون انقطاع حتى يومنا هذا ، ومن ثم ظلت هاتان المملكتان تحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وظلت المنافسة بينهما موصولة فكانت كل منهما تسعى الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بينا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، وتأرجحت السيادة بينهما على مدى الأيام ، فتكون تارة لهذه وتارة لتلك ، وتكون النتيجة أن ما يزداد فى رقعة أهلاك واحدة منهما ينقص مثله من أراضى الأخرى .

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاذقية الشام (وتقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحت حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس - كما ذكرنا آنفا - واستولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المتاخمة لحدود المملكة المصرية - كما احتل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نيقية من يد قلعج أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأتراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم تعمل على استقرار أمنه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال الحصار الى قتل

رجالنا ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى زعمائنا ، يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة ، كما حاول هؤلاء السفراء أيضا كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا الى المعسكر الصليبي ، وهم أحرص ما يكونون على أداء المهمة التى حملوها ، فتلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل ، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليتيحوا لهم الفرصة لإبلاغ رسالتهم .

وأعجب المبعوثون بما رأوه من رجالنا وكثرة عددهم ووفرة سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد ، كما امتلأت قلوبهم خوفا من هذا الجيش ذى القوة المتين ، لما أحسوه فى قرارة أنفسهم بما يمكن أن يحدث فى المستقبل مما قد يتعرض له مولاهم من تجربة مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير من فتح أنطاكية ، وردّها الى العقيدة المسيحية وحريتها الأولى ، أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القريبة من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد أصبحت الآن فى أيدي الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

- ١ - أهل أنطاكية يطلبون من جيرانهم مساعدتهم
فيستجيبون لندائهم ويعسكرون حول حارم .
- ٢ - قادة جيشنا يتركون الرجالة وراءهم لحماية
المعسكر ويزحفون بالخيلة ضد العدو
ويعودون منتصرين .
- ٣ - الفرع الأكبر يستولى على المواطنين لسماعهم
بنكبة حلفائهم .
- ٤ - زعمائنا يشيدون حصنا لهم ، وتصل الى
الميناء سفن من جنوة ، فيسرع الناس الى

الشياطين فيقع بعضهم فى كمين من الكمائن
فيهلكون .

٥ - خطة رائعة للدوق ثارا لهذه النكبة الفادحة .

٦ - العسكرو يعود مكللا بالنصر ولكن سسيوف
الصلبيين تنوشه عند مدخل المدينة فيهلك
ألفان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ - رجالنا يقيمون متراسا على رأس الجسر
ويرسلون الى السفن [الجنوبية] ما يدل على
انتصارهم .

٨ - احاطة المدينة بقلعة جديدة أقيمت فى مواجهة
الباب الغربى .

٩ - العسكر الذين كانوا قد تشرّدوا هنا وهناك
يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا
من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ - عندما ينتشر فى المعسكر خبر اقتراب جيش
العدو يدعى ستيفن كونت بلوا المرض ويمضى
الى الميناء معتزما عدم العودة .

١١ - وصف حال أنطاكية ، ووصف الصداقة التى
قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحد
مسيحيى المدينة .

١٢ - المؤامرة التى تمت على يد الرسل بين بوهيموند
وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ - بوهيموند يبذل جهودا شاقة ليتسلم وحده المدينة حين استسلامها فيوافق الزعماء باستثناء كونت تولوز .

١٤ - الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اثناء زحفهم لنجدة أنطاكية لكنهم يضطرون ازاء مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عبر الفلوات دون ان يكتب لهم النجاح .

١٥ - المسيحيون يشعرون بالفزع الشديد بسبب اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع .

١٦ - الزعماء يجتمعون لتبادل الراى فيما بينهم ، وبوهيموند يعلن السر الذى استودعه اياه صديقه فيروز .

١٧ - الزعماء يتنازلون عن المدينة لبوهيموند عن طيب خاطر فيقوم بمفاوضة صديقه [فيروز] فى السر بشأن تسليمها اليه .

١٨ - الاهالى يشكون فى فيروز فيعلن براءة ساحته أمام والى المدينة .

١٩ - وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكية من الارهاب فى القيام بأعمال كثيرة ينوء بها كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التى دبست للقضاء عليهم .

٢٠ - الجنود [الصليبيون] يغادر معسكرهم تنفيذا لخطية فيروز مع عزمهم على العودة ليلا .

٢١ - بوهيموند يتوسل الى صديقه كى يتم ما بدأه
فيعمد فيروز الى قتل أخيه لمخالفته اياه ويدخل
الصليبيين الى المدينة بواسطة سلم من الجبال .

٢٢ - المهاجمون يستولون على أحد المداخل ويفتحون
الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا فى
هذه الخطة الى داخل المدينة ، ويتم الاستيلاء
على أنطاكية عنوة .

٢٣ - الأهالى يرتدون الى القلعة اما ياغى سيان فيلاقى
مصرعه خارج الأسوار أثناء محاولته الهرب
وهلاك الكثيرين لسقوطهم من الجبل .

هنا يبدأ الكتاب الخامس حصار أنطاكية واحتلالها

- ١ -

فى نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكية وواليتهم فى أقصى حالات الذعر بسبب الظروف التى يعيشون فيها ، ولم يفتهم شدة ضجر الحجاج من المشقة التى تحملوها ، مع مثابرتهم على ما بيدهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مشروعاتهم رغم وطأة الظروف القاسية من الجوع والبرد القارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك اذ ظل هؤلاء الصليبيون - رغم متاعبهم البجمة - مثابرين على السير قدما بعزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذى وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشدة - يبحثون بالكتب والرسائل ، واحدة تلو الأخرى الى من جاورهم من الأمراء ، يسألونهم المبادرة الى نجدة اخوانهم ، ويدلونهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهى أن يدعوا حلفاءهم يتوجهون الى المدينة ويستخفون هم فى كمين حتى يشتبك المواطنون - كعادتهم - فى قتال العدو عند الجسر ثم يتركونهم منصرفين الى القتال فى هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مستغرقين تماما فى تلك المواجهة ، يخرج أهل الكمان من كمانتهم ويباغتون الصليبيين الذين يكونون من غير حرس يحرسهم ، فيقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والخلف فى آن واحد ، فلا يتسنى لأحد منهم
النجاة من الموت .

ولبى هذه الاستغاثة جيش كثيف من أهل حلب وشيزر
وحماة وحمص ومنبج وغيرها من المدن المجاورة ، وخرجوا
فى سكون بالغ وصمت مطبق - حسب الأوامر التى صدرت اليهم -
حتى قاربوا مدينة « حارم » التى لا تبعد عن أنطاكية بأكثر من
أربعة عشر ميلا وضربوا معسكراتهم أثناء انشغالهم بالهجوم على
المدينة ، غير أن المخلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا
شعبنا ، أخبروا القادة باقتراب هذا العسكر ، وشرحوا لهم
أوضاعه ، فلما بلغهم النذير اجتمعوا للتشاور فيما يفعلون فى هذا
الوضع ، فاتفق الرأى منهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل
فينطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة
للخدمة ، ويرتبون صفوفهم للقتال خلف أعلام قادتهم ، على أن
يبقى الرجال فى الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤساوهم
الذين خرجوا امثالا لأمر الرب .

- ٢ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينة
حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من القوارب ، ومعهم
سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان يبعد ميلا من هنا ، وهو
واقع بين نهر العاص والبحيرة التى أشرت إليها فى وصفى المدينة ،
فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجمين ، دون أن يعلم العدو بخبر
تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا فى نفس الليلة عن
طريق الجسر الأعلى .

على أنه لم تكد طلّات نهار الیوم التالی تظهر فی الأفق حتی أعد الصلیبیون أسلحتهم وقسموا کتابهم ست فرق جعلوا كل واحدة منها تحت قیادة رئیس معین كانوا قد اتفقوا علیه من قبل ، وأما الترك فقد اتخذوا مكانهم فی ناحية من الضاحية ، لأنهم علموا من كشافتهم أن جماعتنا زاحفة علیهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرقتین من العسكر حرسا للجیش الرئیسى الذى كان یتبعهم .

لم یكن مع الصلیبیین - كما قلنا - الا قرابة سبعمائة رجل وشاءت الارادة الالهية أن یقسم هؤلاء أنفسهم الى كتاب حسب ما تقتضیه أصول الحرب ، فكان یخیل لرائیهم أنهم آلاف مؤلفة من قوات اضافية قد بعثتها لهم السماء .

ولما أخذ عسكر العدو فی التقدم والزحف: جماعة تلو جماعة ، شرع من كانوا فی الصفوف الامامية فی شن هجوم عنیف على خطوطنا ، وراحوا یرمونها بوابل هتان من السهام ، ثم یرتدون فی الحال ، فلم یعبأ جنودنا بهجومهم . بل زحفوا علیهم ، واقتربوا منهم كل الاقتراب ، وكروا علیهم مستعینین بسیوفهم وشجاعتهم ، فشقوا لأنفسهم طريقا الى العدو عقیدتهم ، والسیوف مشرعة فی أیدیهم ، فاضطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضا ، واختلط حابلهم بنابلهم وأحیط بهم فی بقعة كانت البحيرة فیها على أحد جانبیهم ، والنهر على الجانب الآخر ، وفقد الترك حرية التحرك فعجزوا عن استعمال فنونهم المألوفة من الرشق بالسهام فالارتداد ، لكنهم تجمعوا خوفا من أن تنوشهم السیوف ولم یعودوا قادرین على تحمل الضغط الذى مارسه الصلیبیون علیهم ، وسرعان ما أیقنوا أن أملهم الوحید فی السلامة انما یكون فی فرارهم ، فانقلبوا على أعقابهم هاربین ، فجد رجالنا فی تعقبهم وقد تملكتم الحماسة ، حتى بلغوا مدينة « حارم » التى كانت تبعد عن ساحة المعركة عشرة أمیال ، واستمر القتل فی العدو أثناء ارتداده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمه بسيف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقاء فى القلعة بعد هذه النكبة التى ألمت بأصدقائهم ، فأشعلوا النار فى المكان ، ولاذوا فرارا .

غير أن الأرمن سكان هذه المنطقة ، وغيرهم من النصارى الذين كان الكثيرون منهم يقطنون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى قادتنا قبل عودتهم الى المعسكر . ولقد هلك فى هذا اليوم قرابة ألفين من رجال العدو ، فكانت نشوة الصليبيين عظيمة بما جرى ، وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بث فيهم الشجاعة ، وحمدوا الله على ما أتاهاهم من فضله ، ثم عادوا الى مخيماتهم حاملين معهم خمسمائة رأس من قتلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجياد القوية ، كانت ذات جدوى عظيمة لنا .

- ٣ -

ظل أهالى أنطاكية ذلك الليل فى انتظار الساعة المرتقبة ، وراحوا يستعجلون فى لهفة شروق الفجر تطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على نصارى المدينة ، فان تم ذلك خرجوا هم من المدينة متلصصين وباغتوا الصليبيين على غفلة منهم ، وكانوا يؤملون أن يؤدى عنصر المباغتة التى لم يستعد لها الصليبيون الى دمارهم .

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت السماء تشرق بضوء دون أن يظهر أى شئ يدل على تقدم حلفائهم ، ومع ذلك

فقد ذكر كشافتهم أن بعض الزعماء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا
ماضين لمواجهةهم ، ومن ثم جمع المواطنون قواتهم ، واندفعوا
اندفاعا عنيفا من الأبواب ، وظلوا معظم هذا اليوم في مصادمات
شديدة مع هؤلاء الصليبيين وأخيرا أفادهم حراسهم الذين كانوا
في مواضع عالية بالمدينة أن هناك جيشا آخذ في الاقتراب ، ومن
ثم ارتدوا الى ما وراء الأسوار ، ورابطوا في الأبراج خلف المتاريس
في النواحي المرتفعة من البلد في انتظار الجماعات القادمة ، لأنهم
كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ،
فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربية وما معهم من
الغنائم والاسلاب فعرفوا حقيقتهم ، فاستبد بهم الفرع منهم فقد
أدركوا أنها القوات الصليبية عائدة بعد انتصارها على الحلفاء
الذين كان المحاصرون يترقبون حضورهم في لهفة ، فأسلموا
أنفسهم للبكاء ، فقد تلاشت آمالهم الجسام . وتقدم جنودنا من
المدينة ، وانطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من
الأتراك قيل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينة ، لكي تكون
شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، ولتزيد في مضاعفة آلام العدو
المبرحة .

أما بقية رؤوس القتلى فقد رفعت على ساريات نصبوها أمام
المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفجعة قذى في
عيون المحصورين فتتضاعف همومهم الثقيلة ، وعرف من رواية
الأسرى الدقيقة أن الحلفاء الذين كانوا يزعمون الحضور
لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد جرى هذا الأمر في اليوم السابع من فبراير عام ١٠٩٧

من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم قادتنا على تشييد حصن منيع ، أقاموه على رابية مشرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء ذلك أن يقف هذا الحصن الجديد سدا أمام الترك لو راودتهم نفوسهم بالانغارة على قواتنا متى شاءوا ، فلما فرغ زعمائنا من تشييده أقاموا به حامية يقظة تمام اليقظة ، فاطمأنت جوانح المعسكر كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منيعة ، ذات قلعة تكفل أسوارها لهم الحماية ، وتقيهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يقع شرقى القلعة التى شيدت منذ أمد قريب . كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مستنقع ، على حين كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى متعرجا حول أنطاكية .

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخلت مصب النهر من ناحية البحر سفن قادمة من جنوب ، محملة بالحجاج والمثونة ، فلما أرسيت حيث وصلت أقامت ، ثم بعثت جماعة منها الى المعسكر ، تسأل مجيء بعض الزعماء الى الجنوية ليقودوهم فى أمان الى المعسكر .

وكان العدو يعرف أن قومنا اعتادوا الخروج الى الشاطئ غير حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفة شديدة للذهاب الى المعسكر ، فسد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا الكمائن لتصيد السابلة الذين لم يحتاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى مصرغ الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء فى هذا الوقت ذاته على اقامة حصن عند رأس
الجسر ، مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن يسد هذا الحصن
الطريق فى وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الجسر .

وحدث أن أعدادا كبيرة من الصليبيين كانوا قد نزلوا ناحية
الشاطئ لانجاز بعض الأعمال التى كانت لهم هناك ، فلما فرغوا
منها عادوا الى مواضعهم .

وكان الاختيار قد وقع على كل من بوهيموند وكونت تولوز
ومعهما لورد ايفراردى بويسيه وكونت جارنييه دى جراى من
الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حتى الساحل ، على أن يقوموا فى
عودتهم بحراسة الحجاج (١) الذين وفدوا منذ قريب ، والحفاظ على من
خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراة
من القوم الى الشاطئ بعثوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدججين
بالأسلحة الخفيفة وعهدوا اليهم بنصب الكمائن ، فاذا خاطر
الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاحتياطات اللازمة كر عليهم هؤلاء
الفرسان كرة ضارية .

وحدث فى اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مستصحبين
معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى
أنواع الذخيرة دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو
يباغتهم فى بعض الشجاع الضيقة ويسلدها عليهم ، وكان
كونت تولوز يسير فى المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد
وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند .

(١) المتصوره هؤلاء الحجاج « الجنوية » .

وعلى الرغم من بسالة هؤلاء القادة الجديرين بكل احترام ،
الا أنهم لم يستطيعوا - كما أرادوا - السيطرة على من معهم من
جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم :
لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحماية
لرفاقهم ، فلما تبين لهم أخيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى
هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا - بدافع
من حرصهم على سلامتهم - عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين غير
متكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن استطاع اللحاق بهم ، واذ ذاك
تخلى الناس عن دوابهم ومتاعهم وفروا على وجوههم الى نواح
مختلفة ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى
التلال أما من لم يسعفهم الفرار فقد تناوشتهم سيوف
العدو ، فكانت النكبة التى حلت بقواتنا فى هذا الموضع جسيمة ،
وقد وصلتني معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ،
وان قالت الأغلبية انهم كانوا قرابة ثلاثمائة من الجنسين ومن
مختلف الأعمار .

- ٥ -

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن القوم الذين كانوا
راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ،
وأنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم فى هجمة لم يكونوا يتوقعونها ،
ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان القادة مازلوا أحياء أم أنهم
صاروا فى عداد الهلكى .

واذ كان الدوق جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة
الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفًا على شعب الرب ،

وتفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الزعماء والجنود وأمرهم بحمل السلاح في لحظتهم هذه ، ثم بعث المنادى ينادى في الناس ألا يغيب أحد عن هذا الموقف الخطير والا استحق الموت ، بل يتحتم على الجميع أن يهبوا لأسلحتهم انتقاما لدماء اخوانهم ، فتجمع كافة الجنود وكأنهم رجل واحد ، ولم يتوانوا عن عبور الجسر المصنوع من القوارب ، ثم قسمهم الدوق الى مجموعات ، ورأس عليهم جميعا روبرت كونت نورماندى وكونت فلاندرز ، وهيج الكبير ، وأخاه اسناس ، وحدد لكل طائفة مكانا لا يشاركها فيه غيرها ، ولا تتعداه هي الى سواء ، وأمر أن تقف كل جماعة بقيادة قائدها .

ثم أخذ الدوق يشرح لهم الوضع باعتبارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حميتهم بكلماته الملهمة إذ قال لهم : « لو صح ما نقل الينا من أن أعداء النصرانية : اسما وعقيدا ، قد أظهرهم الرب على ساداتنا واخوتنا بسبب آثامنا ، فالراى عندى أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى الحقوه بسيدنا المسيح ، أو نهلك مع من هلكوا ، وصدقونى أن ليست الحياة ولا السلامة أحلى مذاقا من الموت أو أى ألم من الآلام ان يذهب دم هؤلاء السادة هدرًا فى الثرى ، ومحال أن تمر هذه المذبحة المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن تواجه بانتقام عاجل ، ويبدو لى أن أعداء الملة سوف يبطرهم انتصارهم فلا يحتاطون لأنفسهم كما جرت عادتهم ، لذلك فإنهم لن يترددوا بـ اعتمادا منهم على بأسهم - فى أن يشقوا طريقهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالأسلاب والغنائم » . واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزون دام حزين بأن يحملنا على مزيد من الحذر ، أما التكاثر فى غيرى صاحبه بالاهمال .

« فان رايتم الصواب فيما أقول فيها بنا نستعد لهم ، وطالما
كنا على حق فانتنا نطمح أن نحرز النصر بواسطة الواحد القوى الذى
نؤمن به ، ونحارب فى سبيله ، فاذا تراءى للعدو أن يعود فيقتحم
صفوفنا فلنتقابل به سيطبى سيوفنا ، ولتكن ذكرى ما صبه علينا من
المصائب مذكية فينا ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » .



ووقعت خطبة [الدوق جودفروى] هذه موقع الرضا من
نفوسهم واستصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا
ببوهيموند يطالعهم عائدا من الشطاطىء الى معسكره ، وفى اثره
الكونت لم يغيب دونه الا قليلا .

ورحب الناس بزعميهم ترحيبا صادقا لم يستطيعوا معه أن
يحبسوا دموعهم من الانهمار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن
يفقدوا هؤلاء القادة ، ولم يكذ الزعماء يعلمون بخطة الدوق حتى
وافقوه على فكرته وصرحوا بوجوب تنفيذها .



كان ياغى سيان فى هذه الأثناء - رغم علمه بانتصار قواته -
مشغول الخاطر ، قلق البال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن
عرف أن الجند الذين تركوا المعسكر كانوا أكثر عددا مما جرت
العادة به ، ومن ثم نودى فى الناس جميعا أن يخرج فى الحال من
فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ،
وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الجسر لنجدة أهل البلد
العائدين ، ان دعت الضرورة الى مثل هذه النجدة .

كما أن قوادنا بعثوا من ناحيتهم كشافة تتفقد الطريق الذى
يحتمل أن يسلكه العدو فى اياه ، ايماننا من هؤلاء القواد بأن الرب
لا بد أن يمنحهم النصر .

- ٦ -

لم يتوان الصليبيون لحظة فى تنظيم صفوفهم ورفع أعلامهم ،
وبينما هم يترقبون طلائع الجيش التركى اذا برسلمهم قد جاءوهم
مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على مقربة منهم ، فتعالت
صرخاتهم المجنونة تحت ناسنا على حمل السلاح والزحف لصدده ،
ومن ثم تقدمت الكتائب ما وسعها التقدم ضارعة الى السماء أن
تعينها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصليبيون - وفى
ذهنهم شهرة بطولتهم - يهزون الرماح فى أيديهم ، وكروا على
خصمهم كرة رجل واحد وكشفوا ضغطهم عليه - كمألوف عادتهم -
يقاتلونه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يدعوا له فرصة يلتفظ
فيها أنفاسه انتقاما للمصائب التى أنزلها بهم والتى لا زالت عالقة
بأذهانهم ، فما لبث العدو أن فارقت شجاعته ، وطار قلبه شعاعا ،
وأدبر موليا وجهه شطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد
من رجاله الآخر فى الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كثيرا من أمثال هذه الأزمات ،
وكان عسكريه قد احتلوا موقعا أمام الجسر تقوم تجاهه ربوة عالية
بعض الشئ ، وكان الترك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد
رجلين : اما رجل يتعثر فيسقط وهو يحاول بلوغ الجسر التماسا
لملجأ له هناك ، واما رجل لامحيص له من العودة الى موت مؤكد
يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا .

واذ كان كونت فلاندرز محاربا صنديدا ، بارعا كل البراعة
فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مقتفيا أثر الأعداء فى عزم
لاتفل شباته ، ففرق صفوفهم ، وأنزل بهم من الأهوال مثل الذى
أنزلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل شجاعة من
آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعة .

وكان هنا كونت تولوز المتحمس لربه ، والى جانبه هيج
العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن
نسب أسرته العريق بأى شين ، وكذلك كونت اوستاس أخو
الدوق ، وبلدوين كونت هينولت ، وهيج كونت مسنت بول ،
وغيرهم من أهل المكانة . فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ،
وأظهروا من أعمال البطولة ما أرهق قوة المعادين ، فذبحوهم ذبح
الخراف ، وكان باغى سيان لما أرسل قواته للحرب أمر باغلاق
أبواب المدينة من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا
من وراء ذلك الى مضاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من الشدة
فى القتال ، معتقدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ،
غير أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يرجوه ، فقد هلك رجاله
الذين لما رأوا احداقنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومنا ،
أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى
لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم
المرصاد ، فتناوشت سيوفنا الفارين منهم ، وفرقتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر قرع الأسلحة ، وقعقة السيوف
البراقة ، وصهيل الخيل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالنابل ،
ولولا اختلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتفه غلطة مؤدية
الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

وتجمع على أسوار أنطاكية وفوق أبراجها ، نساء المدينة
وبناتهن وصغارهن وشيوخ البلد ، وكل من ليس عنده قدرة على
الدفاع عن نفسه ، يشاهدون - من مكانهم الذى يقفون فيه -
المذبحة التى تجرى من تحتهم ، وعلا بكأؤهم وزاحوا يندبون مصارع
أصحابهم ولسان حالهم يقول : « ما أسعد من ترفق بهم الموت فقبض
أرواحهم قبل أن تمسهم هذه الخطوب » .

أما الآلهات اللاتى كن يتفاخرن بكثرة أولادهن ، فقد أصبحن
موضع الرثاء وصارت العاقر منهن أسعد من كل ذات ولد ، .

ولما رأى ياغى سيمان أن الدائرة قد دارت على قومه ، وأن
البقية الباقية منهم لأبد هالكة فى هذه المذبحة التى تجرى على
قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يتمكن الباقون من جيشه
من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تزاحموا على الأبواب التى أزيلت
متاريسها تزاحما شديدا ، وتعالى ضجيجهم وصراخهم ، ذلك لأن
الفارين الذين كان الخصم يتعقبهم حاولوا عبور الجسر ، فتكاثرت
جموعهم ، وتدافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط
الكثيرين منهم فى النهر فغرقوا فى لجته .

ولقد صال دوق اللورتن أبداع صولة فى هذا الاشتباك ،
فبرهن على أنه مسعر حرب وخواض غمرات ، وشاهده المساء
اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جاء بالدليل البين على
باسه الذى ميزه عن سواه ، وكان ما قام به من العمل أمرا باهرا
خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا فى نظر الجيش كله ، اذ اندفع بما
طبع عليه من جرأة فكان يضرب الضربة الواحدة يقطع بها رؤوس
أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه
ما عليه من زرد الحديد من أن يصيبه بضربة قطته نصفين ،
فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دفعوا به الى المدينة

محمولا على فرسه ، فبث هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهده ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب خافيا على أحد ما ، وتناقلته الألسن ، فشرق وغرب .

ويقال ان خسارة العدو يومذاك قاربت ألفى رجل : ولولا دخول الليل الذي حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكية من غير شك في هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واضحة كل الوضوح حول الجسر والنهر الذي تبدل لون مائه ، وراح يصب في البحر سيلا جارفا من الدماء . ولقد قيل ان اثني عشر من الحكام الأتراك لقوا مصرعهم في هذا القتال ، فكانوا خسارة للمدينة لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيدا قاطعا المواطنون المسيحيون الذين قدموا من أنطاكية الى معسكرنا .

- ٧ -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، شاكرين الله القدير على ما آتاهم من النصر ، ثم عقلوا - فيما بينهم - مجلسا لمناقشة الوضع فاتفقوا بلا استثناء على تنفيذ خطتهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، ولييسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى التجوال هنا وهناك .

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسجد يودى الترك فيه شعائرهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موضعا لدفن موتاهم : فلما كانت الليلة السالفة ، وصدر من اليوم التالى ظلوا ينقلون

جثث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأمل فى العثور به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى ، فنبشوا القبور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصروا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأقمشة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الجثث ذاتها فعبثوا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجميع مدى ما أصاب العدو من خسائر كانت فى بادئ الأمر موضع شك ، لأن القتال انتهى ليلا ، فاغتبط الصليبيون بهذا النباء غبطة جاوزت غبطتهم بالنصر الذى أحرزوه فى يومهم السابق ، ولقد وجدوا فى تلك المقبرة ألفا وخمسمائة جثة سوى من ابتلعهم النهر فى مرات كثيرة حاقت فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا فى المدينة اضافة الى من أثقلتهم جراحاتهم القاتلة فصاروا معها على شفا الموت ، وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالميناء ، فتضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون فى الميناء ولم يغادروه .



كان الصليبيون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين فى كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا فى الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاءت ارادة الرب أن يعود الى الجيش كثير من الجند الذين اعتقد الناس أنهم هلكوا فى المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكف يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مختلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار التى حملوها من

المقابر ، وأخذ القوم يتبارون في مساعدة بعضهم البعض ومعاونة كل منهم زميله في تشييد المعقل الذي حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق .

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك في التشاور عن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كهذه المسئولية ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت تولوز - وهو المرضى عنه من الله - تطوع لحمل المسئولية ، وتعهد من أجل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد تماما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فقدته مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفعالية على مدى الصيف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففي الوقت الذى كان بقية القادة أبانه يتحملون مسئولية الجيش بعزيمة لا تقهر كان هو ذونهم كأنما لا يعنيه من الأمر شيء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تجاه كائن من كان ، وتجلي هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين ، فعزوا ذلك الى أنه كان أكثر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة يتوقعون معها أن تحمله على بذل الكثير من أجلهم ، ولقد أراد أن يعرض ما كان من تراخيه وعدم اكترائه فقام من تلقاء ذاته وتحمل عبء هذه المهمة ، وقيل أيضا انه وضع تحت تصرف أسقف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضة وزنا ، تعويضا لأصحابها عن الخيل التى هلكت لهم فى هذه المعركة .

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جياذهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنى فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهذأت حدة الشعور ضد الكونت ، وسماه الجميع بأبى الجيش وراعيه .

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديدة التي أقام بها الكونت خمسمائة من الرجال الأشداء ، مما جعل مرور المواطنين من خلالها لا يتسنى الا بشق النفس وبالتعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحية أخرى جعلت قومنا أكثر قدرة على الخروج من أجل قضاء مصالحهم الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر ، ويظهر أن تمتع العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يعرض قواتنا لكثير من الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الجانب الآخر من النهر ، ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا يتمتعون بكثير من الحرية في التجوال ، لأن حاجات المدينة الضرورية كانت لا تزال تمر بهذا الطريق ، لذلك عقد القادة الشجعان الخالدو الذكر مرة أخرى مؤتمرا من بينهم للتداول في شأن هذه المشكلة التي رأوا مواجهتها بإقامة بعض التحصينات في موضع ملائم على الجانب الآخر من النهر ، وقرروا أن يقيم بها بعض هؤلاء الزعماء ، ليرصدوا العدو ان أراد الخروج منها أو الدخول اليها فيحولون بينه وبين ما يريد ، وعلى الرغم من انعقاد اجماعهم على وجوب تشييد ذلك الحصن ، الا انه لم يتقدم قط أحد منهم فيتطوع وينهض بحراسته ، وترددوا كلهم تجاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال تردددهم ، ثم استقر الرأي منهم في النهاية على اختيار تانكريد الجرم النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنها لقلّة ما بيده من المال ، لولا أن نهض كونت تولوز وقدم اليه مائة مارك من القضة لتشييد الحصن ، يضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون ماركا شهريا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعملون مع تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لتلك البوابة يقوم على أحد التلال ، حيث كان موضعه في السابق أحد الأديرة ، وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقى هذا الحصن سليما حتى نهاية الحصار بفضل جهود تانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أنطاكية ، وعلى امتداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وبين النهر ، حيث كانت قطعان الأغنام تسرح هناك فى المراعى الخضراء الغنية ، التى كان العدو قد نقل اليها معظم جياده لقلة ما فى المدينة من العلف ، فما كاد الصليبيون يتبينون هذه الحقيقة حتى جمعوا فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ، وسلكوا اليها طرقا هيجورة حتى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراسة الماشية ، وقتلوهم ، واستولوا على ألفى حصان من الخيل الصافنات ، ناهيك عما أخذوه من البغال وائاثها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم يكن ثم غنائم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليبيين فى ذلك الحين ، لأن جميع جيادهم كانت قد هلكت تقريبا فى المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجز سكانها عن مجاوزة أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أهدقت بهم الصعاب البجمة من كل ناحية ، كما بدأت تهددهم أيضا مشكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واجههم فجأة وأصبح شبحه يخيفهم بصورة بعثت الهلع الشديد في قلوب المواطنين ، كما أصبح العلف نادرا ندرة بالغة ، فهزلت الخيول ، وعجزت عن القيام بما كانت تقوم به من قبل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكثر حرية في الذهاب الى شاطئ البحر ، أو حيثما تدعوهم الضرورة الملحة ، وزال الى حد بعيد ما كان يكابده الجيش كله خلال الشتاء من هم مقيم بسبب قلة المئونة ، فقد ولى الشتاء ، وجاء الربيع الطلق ، وهذا البحر ، ولم يعد الأسطول الراسى بالميناء يلقي مشقة في الدخول أو الخروج متى شاء ، هذا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بفضل الدفء المتزايد ، فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحته من غير عسر .

كذلك رجع الى الجيش الصليبيون الذين كانوا مضوا لقضاء وقتهم في القلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شظف الحياة وقسوتها في المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عدتهم للقتال .



على أنه في هذا الوقت بالذات جاءت الأخبار الى بلدوين - أخى الدوق - بأن الجيش فى صراع مرير ضد المجاعة ، فتفطر قلبه بالأسى الصادق ، وعزم على إمدادهم بضرورات العيش من فائض أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياه سخية من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والجياد الصافنات وغير ذلك من كل غال وثمان بلسنا داوى ظروف كل زعيم ، ولم يقتصر كرمه على كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فإن سخاءه لم يقل

عن هذا تجاه مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن تحول الى جودفروى جميع ما تغله أملاكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات حول تل باشر والاقليم المجاور له ، فأمدته بالحبوب والشعير والزيت والتبنيذ ، الى جانب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .



كان هناك عظيم من عظماء الأرمن شديد البأس اسمه « نيكوسسيوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصداقة ، وقد قام من تلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بإرسال طائفة من رجاله يحملون الى الدوق فسطاطا كبير الحجم ، بديع الصنع هدية منه اليه ، الا أن باكراد نصب كميناً لاصطياد الخدم الموكل اليهم حراسة هذه الهدية ، وأمر باغتصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى بوهيموند ، كأنه هدية منه هو ذاته اليه ، فوصل الى سمع الدوق نبأ هذا الفعل الشنيع مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم نيكوسسيوس ، وحينذاك خرج جودفروى مستصحبا معه كونت فلاندرز الذى توثقت بينه وبينه وشائج الصداقة العميقة طوال الرحلة وذهب الى بوهيموند طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى كانت مرسلة اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن بوهيموند ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن من حقه الشرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خيف أخيرا من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين القادة ، استجاب [بوهيموند] لالتماسات الزعماء ورد الى [جودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المياه الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويخيل الى أنه من المستغرب جدا أن يصر رجل كالدوق يمتاز بمائة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشئ .

تافه غير هنام كهذا الشيء ، ولا أستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء
فى المثل « ومن ذا الذى ترضيك سجاياه كلها » وما جاء فى مثل
آخر « لكل جواد كبوة » ، كما أن هناك مثلا غير هذين يقول « يجوز
للمرء فى المهمة الشاقة أن يغفو لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما نرى
فى أنفسنا انحرافا عن جادة الصواب تقضى به قوانين الطبيعة
البشرية .

- ١٠ -

سرت فى هذه الآونة شائعة عمت كل النواحي تقول أن أحد
أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأنطاكيين الخاصة - ولالحاح
قومه المستمر ، فأمر بحشد العسكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم
نجدة الى المدينة ، وقد أذاع مرسوما عاليا يأمر فيه بزحف جيش
تركى قوى على بلاد الشام ، اصطفى لقيادته جماعة خاصة من الأمراء
وكل اليهم هذه المهمة ، ولم تسر هذه الشائعة فى العالم الخارجى
وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحدث بها أيضا جميع
اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذى
أخذ يزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب
المدينة ، فاستبد الدعر بجيشنا واستولى عليه الفرع .

فى هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نبيل
واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه
منزلة الوالد لرجاحة عقله التى لا تجارى ، وحسن حكمه على
الأمور ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعلل
بالمرض - أن يفارقهم ليذهب الى الساحل ، مستصحبا معه خدمه
وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أجده معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم فهو رغبته فى الإقامة بعض الوقت فى الاسكندرونة حتى يسترد صحته وينقه نقاهة تعينه على العودة اليهم .

وتقع الاسكندرونة على شاطئ البحر ، ولا تبعد كثيرا عن الميناء ، وتعتبر المدخل الى قيليقيا .

وصحب [سنيفن] فى مغادرته هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرونة فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم خطته على أن يعود الى الجيش ان أحرزت قواتنا النصر الذى تنشده بحجة أنه نقه تماما من وعكته، أما ان جرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعته الخاصة فى السفن التى كان قد جهزها لتكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقيم وضياع هيئته الى الأبد .

ولقد أزعج فعله المشين هذا القادة الذين خلفهم فى المعسكر ، ورأوا - وكان حقا ما رأوا - أن ما فعله ان هو الا سبة لا يمضى عارها ، ولا يذهب شئناها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تتفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا شرف بيته وحط من شهرته ، فراحوا يتناقشون - وكلهم فزع - كيف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن متوقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقتفى خطاه سواء ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجروون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم اتفقوا أخيرا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم ألا وهو أن يعيشوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلسة من غير إذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظيفته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالعار الأبدى ، كما لو كان قد قتل نفسا من غير ذنب ، أو أفحش فدنس مقدسا ، هذا الى جانب انزال أقسى أنواع العقاب به ، وترتب على هذا القرار بما تضمنه من الزجر والخوف من العقوبة أن امتنع الكل منذ ذلك الحين عن ترك المعسكر ، حتى ولو لفترة وجيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد ديريا يستجيب للأمر طواعية ومن غير معارضة .

- ١١ -

اعتنقت أنطاكية - مدينة الله الحبيبة - ملة المسيح زمن الحوارين ، حين بشر بها أميرهم - كما قلنا - وظلت وفيه لها ملتزمة بها حتى وقتنا الحاضر .

وبينما كانت أقاليم الشرق كله تدخل تحت حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن تسيطر عليها أية أمة تعتنق غير ما تعتنقه هي ، وعلى الرغم من بسط سيطرة [المسلمين] على جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسي حتى البسفور ، وعن الهند الى أرض الأسبان الا أن مدينة أنطاكية هذه انفردت دون غيرها من المدن بالمحافظة على إيمانها سليما غير مغموز ، وحرصت على حريتها وهي تعيش وسط أمم مخالفة لها .

غير أن ما كابده [المدينة] من كثرة الحصار على مدى أزمنة طويلة فل في ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرهقتهم هجمات العدو التي لم تعد محتملة ، فما لبثوا - قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذي نتكلم عنه الآن - أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكية إلى عدوهم ، وحدث أنه لما بلغت جيوشنا أسوارها كان جل
سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة
فى المدينة ، وقد احترق معظمهم التجارة ، واشتغلوا بالحرف
اليديوية أجزاء عند غيرهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل الملل
الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف
الهامة .

وحرم على الصليبيين احرار السلاح ، أو ممارسة أى شىء
يتم بأى صلة لشئون الحرب ، لذلك ما كاد الخبر باقتراب الحجاج
القادسين من الغرب يصل إلى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى
ازدادت ريبتهم فى المؤمنين (١) عن ذى قبل ، ومنعوهم - لاسيما بعد
حصار المدينة - من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى
ساعات فرضوها لهم .



كان بين أهل المدينة بعض أسرات معينة شريفة الأصل كريمة
المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة
بسبب أصلها العريق تدعى ببني «زردة» ، التى تعنى فى اللغة اللاتينية
أبناء صنّاع الزرديات ، ولهذا سمي بنوها بهذا الاسم ، وربما كان
ذلك نسبة إلى اشتغال جدهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم
أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة
كانوا لا يزالون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل
على مدى أجيال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورثهم هذا اللقب .

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأختين يقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومجاورا للبوابة التى تعرف اليوم باسم سنت جورج ، وقد خصص هذا البرج لتلك العائلة حتى يمكنهم مزاولة عملهم فى طمانينة فى هذه الحرفة التى كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة ووالىها .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفىروز ، وهو رجل قوى النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عشيرته وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة متينة العرى بوالى انطاكية [ياغى سيان المسلم] الذى أعاد عليه نعمة كثيرة شرفه بها ، فكان فىروز كاتم السر فى القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية .

وسمع فىروز بأن « بوهيموند » أمير كبير ذائع الصيت ، وله ضلع بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فىروز فى كسب ود بوهيموند بواسطة الخدمات المترادفة بينهما ، كما ظل فىروز طوال استمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا ينقضى يوم حتى يوافى بوهيموند بتفصيل ما يجرى بالمدينة ، ويبعث اليه بخطط ياغى سيان ، واذا كان فىروز رجلا ذاهية ، فطنا ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل خبر اتصاله ببوهيموند سرا مكتوما بينهما ، ونجح فى ذلك غاية النجاح ، لانه كان يخاف أن يحدق الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشئ قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خلفهما وأهل بيتهما .

استمر التفاهم السرى بين هذين الرجلين - والذي أشرنا اليه حالا - قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالاتصال الودى بينهما بشأن الطريقة التى يمكن أن يتم بها إعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسألة حتى انتهى الأمر أخيرا بفيزوز - كما قيل - بأن بعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحياة ذاتها ، أننى قد أحببتك حبا خالصا منذ اللحظة التى شامت فيها ارادة الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أذكرك أكثر من هذا أننى وجدت فى كلماتك صادق العزم الذى لا يتوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فان حبك أخذ يزداد رسوخا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندي . أما عن الأمر الذى كثر تذكرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنيت ببعثه مرارا ، وقلبتة على شتى جوانبه ، فأيقنت يقينا جازما أننى اذا استطعت أن أعيد بلدى الى حرية السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعاني تحكمها فينا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فلن يضيع أجرى يوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسين الباركن الى الأبد .

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكتب لى النجاح فيها ، فلن يشك أحد فى أن سيكون ذلك نهاية بيتى وانهيأر سمعة عشيرتى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فأننى مستعد للنهوض بهذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

هذه المدينة حين استسلامها بفضل جهودى القوية ، ويعون الرب الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وسأقوم بالمهمة مهما كانت صعوبتها ، وسيكون قيامى بها بسبب حتى لصغارى الذين أرجو لهم ولك كل الخير » .

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج الشديد الحصانة ، الذى تعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك تستطيع أنت ومن معك دخول المدينة آمنين سالمين » .

« أما ان رأيت انكم جميعا متساوون فيما بينكم ورأيت أنت أن تقسموا اياهم المدينة حين تؤخذ على هذه الصورة فأننى لن أزج بنفسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى فيهم » .

« وانه ليتجتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجميع - أن تبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الخبر اليقين بأنكم وفيتم بهذا العهد ، فلن أتوانى فى فتح باب المدينة لكم لتدخلوها ، وهذه هى الغاية التى تلح على من أجلها » .

« وأزيدك علما بأنك ان لم تتحرك بأسرع ما يمكن ، فلن تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ، وتتوالى عليه الكتب كل يوم ، مشيرة الى أن الاعدادات التى تتجمع من كافة أرجاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وجدتكم هذه الجيوش لا زلتم خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى وجيوش حلفائهم القادمة » .

شرع بوهيموند منذ تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاستكناه مشاعر كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطة المتوقعة اتخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة في اخفاء مشروعه ، الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رغباته ، وكان اذا رأى الأمل ضعيفا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون أكثر ملاءمة ، ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوق جودفروي ، وكونت نورماندى ، وكونت فلاندرز ، وهيج العظيم ، وصارحوه بتأييدهم لما يريد ، واستصوبوا سر الرجل النبيل [فيروز] واثنوا على فطنته ، وكتبوا عزمه في صدورهم كتمانهم لأمر لا ينبغى أن يعلم به أحد قط .

أما كونت تولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع ، وترتب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحميم [أعنى فيروز] ، كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فيه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه فى عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه استمر مع ذلك فى الحفاظ على مودته الصداقة مع فيروز فحافظ على الدوام بهداياه وبملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومتراصة بينهما ، وأخذ كل منهما يربى ما بينه وبين صاحبه من الصداقة وينميها .

عاد في هذه الأثناء الى أنطاكية المبعوثون الذين كان يأغى سيان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية استجداء العون ، وقد نجحوا في انجاز سفارتهم ، وتحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلقاه أنطاكية من الأهوال فتحرك قلبه عطفاً عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على شل قوتهم حتى لا يتطلعوا لفتح بعض أجزاء من مملكته بحد السيف . ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشوداً لا يحصيها العد من الفرس والترك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع أن يعتمد على شجاعته وإخلاصه وهمته كل الاعتماد ، وألقى إليه بالقيادة ، وجعل تحت امرته أمراء ستين وقواداً وأمراء خمسين وضباطاً آخرين دونهم مرتبة ، يطيعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما زوده بكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاية جميع الأقاليم التابعة له ، والخاضعة لسلطانته متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم والقبائل والشعوب على اختلاف ألسنتها ، أن يتبعوا - من غير تردد - ابنه المحبوب «كربوغا» الذي وكل إليه قيادة جيوشه بسبب خدماته ، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، وألزمهم بطاعته في كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كربوغا - بأمر مولاه - الجيوش التي ذكرناها حالا ، وزادها عدداً بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه في البلاد ، فدخل العراق بمائتي ألف رجل ، وعسكر في ناحية الرها ، حيث جاءت الأخبار المختلفة وهو بها بوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها في قبضة أحد قادة الفرنجة الذي كان زاحفاً ضده فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة - قبل عبوره الفرات - وعزم على الاستيلاء عليها قسراً .

بيد أن بلدوين كان قد علم بتقدم [ياغي سيان] فجلب أناسا شجعانا من كل النواحي التي حول [الرها] لمساعدته ، كما عني بتوفير كل ما تحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعجه كثيرا تهديدات كربوغا الشديدة له ، حين أمر الأخير أن ينادى المنادون بأن العيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوة ، ولكن المدينة قاومتها في عناد ، وسرعان ما تجلى للعيان أنه لن يجنى كثيرا من هذه المحاولة ، ولن يكون تقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل في النهاية جماعة من أهل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر الى نيل هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغي سيان اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التي تتلخص في عبور الفرات والاسراع لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذي جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسرهم بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك في طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .



ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثة أسابيع (١) ، أضعاف فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر قواته بعد ذلك بعبور النهر فأمرها فاجتازته فصار خلفها محثا الخطى في همة كبيرة الى هدفه الذي خرج من أجله ، وكان توقف جيش الأعداء أمام الرها ، هو السبب في عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب في خلاص قوما الذين كان لابد أن يتخرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهيموند - لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل استيلاء الصليبيين عليها ولكن شاءت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارقين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا في طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية أنها من ٤ نحتي ٢٥ مايو .

عمت الشائعة أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتقديم هذه الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الخبر ، فأيقن المعسكر أن العدو قد وصل إلى أطراف أنطاكية ، فاستبد الذعر بهم استبدادا كبيرا ، واذ ذاك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مختلفة رجالا من ذوى الخبرة لا يشك أحد أبدا في إخلاصهم ونشاطهم ، وطلبوا اليهم أن يقاتلوا وجهها لوجه أناسا لا يغمز ولاؤهم حتى يمكن الحكم الصحيح عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اختير لهذه المهمة محاربون شجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروجو دي نيزل » و « كلاريبولد دي قنديل » و « جيرارد دي شيريزي » ، و « رينالد كونت تول » وغيرهم ممن غابت عنا أسماؤهم فانتشروا مع أتباعهم في نواح مختلفة ، وبذلوا همتهم في التقصي الدقيق فأرسلوا من قبلهم وبنوورهم الكشف إلى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطريقة أخبار موثوق بها تؤكد تجميع المعسكر [الاسلامي] من شتى النواحي وانضمامهم بعضهم إلى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار تتجمع لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للقادة الذين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء التي بلغتهم ، وبذلك أخذ كبار قادة الجيش الصليبي حذرهم قبل سبعة أيام من وصول كربوغا بقواته أمام أنطاكية ، فأوصوا الجواسيس أن يعملوا جهدهم على بقاء هذا الخبر طي الكتمان ، فلا يسمع به أحد من الناس ، خوفا من إستيلاء الذعر على جموع العامة التي أضناها الجوع ، وأرهقتها الشدائد التي استمرت طويلا مما قد يدفعها إلى تدبير خطة للهرب الذي كان طريقا سلكه في الواقع منذ وقت قريب بعض الزعماء الكبار .

وحينذاك تجمع الزعماء لتبادل الرأي حول الموقف الذى أصبح يكرث الحملة بأجمعها ، ويهدد بمأزق يذهب ريحها ، فشرعوا بروح متواضعة وقلوب خشعة يتدبرون الاجراءات التى ينبغى عليهم اتخاذها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فاقترح بعضهم أن تخرج كل القوة المشتركة فى الحصار ، فتتصدى للجموع القادمة على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهناك - بعد رفعهم أكف الضراعة الى السماء أن تمدهم بالعون - يحاولون مقاتلة ذلك القائد المتغطرس ، المنتفخ أوداجه نيهما بمن معه من الألوف المؤلفة .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلفوا وراءهم فى المعسكر قسما من الجيش ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى المعسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبي الذى يشأ هؤلاء قوة وكان أخبر منهم بفن الحرب فعليه - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد ميلين ، فان رضى الله القدير بما فعلوا قاتلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشة دقيقة ، ويتبادلون الرأي فيما بينهم تبادلًا حرا ، تسلل بوهيموند فى هدوء وانتحى جانبا بطائفة من كبار القادة هم : جودفروى ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وريموند كونت تولوز ، حتى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعدة من الآخرين خاطبهم قائلا :

« اننى أرى أبوا الاخوة الأحباء العاملين فى خدمة الرب ، انكم قد انزعجتم فزعا من دنو هذا الزعيم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كان لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

منذ قليل - رايه الذى يخالف رأى سواه ، والذى يصدر عن رغباته الخاصة ، ومع ذلك فليس ثم اقتراح مس الموضوع من جذوره ، فسواء خرجنا جميعا معا كما اقترح بعضكم ، أو أقام فريق من الجنود فى المعسكر ، فالواضح أن جهودنا الكبيرة مهما طال استمرارها ، لن تجدى فتىلا ولن تؤتى ثمرتها ، ذلك لأن فى خروجنا جميعا معا نهاية للحصار ، وقضاء على أهدافنا ، اذ يعود المواطنون أحرارا ليس عليهم رقيب ، وحينذاك قد ينضمون الى العدو أو يدخلون عسكر حلفائهم الى المدينة .

« كما أنه لا محيص من حدوث نفس النتيجة لو بقى قسم من الجنود فى المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق ينبعث على اليأس ، ورغم أنهم لا يأملون قط فى نجدة تأتيهم فتعينهم ، فكيف يتسنى اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لى انهم اذ ذاك سيفعلون واحدا من اثنين : اما أن ينضموا الى حلفائهم وحينذاك تشتد شوكة قواتهم المتحدة فى الهجوم علينا بأعداد تفوق أعدادنا ، واما أن يحتالوا بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع بذلهم الجهد فى تزويد أنطاكية بالسلاح والميرة مما يشد من ساعدها ، وفى هذه الحالة لن يكون عندنا ما يؤكد لنا التغلب على المدينة ، حتى ولو أعاننا الله فهزمنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لى أيها السادة العظام الموقرون أن الواجب يفرض علينا أن نسعى السعى كله للاستيلاء على أنطاكية قبل وصول هذا القائد الكبير ، فان سألتهمونى وما وسيلتك الى ذلك ، وكيف يمكن تطبيق خطة كهذه الخطة ، فانى أقرر لكم - حتى لا أبدو وكأنى أقترح عليكم مشروعا يستحيل انجازه - أننى قادر على أن أفتح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق هدفنا المنشود تحقيقا سريعا وسهلا ، ذلك أن لى بأنطاكية صديقا

صدوقا ، عاقلا كل العقل ، بقدر ما ترى عين الانسان العقل ، واعتقد
أننى قد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امره هذا الرجل برجا
منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسلمه
لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمسست منه مرارا أن يفعل ذلك.
فاستجاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له - ردا لهذا الجميل -
أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أضمن له ولذريته من بعده أملاكا
شاسعة ، وامتيازات شتى ثمننا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور
وفق ما نهوى .

« فان رضيتم أيها السادة الأعزاء أن تصبح مدينة أنطاكية
تحت حكمى - ان تم الاستيلاء عليها بجهودى الكبيرة - وقبلتم أن
تكون وراثية فى بيتى الى الأبد ، فأننى مستعد حينذاك أن أخرج
الى حيز الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبيتم
ذلك ، فليحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكرته ،
يمكنه من الاستيلاء على المدينة بنفسه ، فان نجح فى ذلك كانت
ملكه خالصا له لا يشاققه فيها أحد ولا ينازعه ملكيتها منازع ،
وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مستعد لأن أتنازل له
عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا لكلمات بوهيموند هذه بقلوب تغمرها
الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم
سوى كونت تولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يتخلى عن نصحه.

(١) المصنوع به « ليروز » .

لكائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد أن يمنحوا المدينة بملحقاتها لبوهيموند ، لتكون وراثية في بيته الى الابد ، واقسم كل رجل منهم - وقد بسط يمينه - أن يبقى الأمر سرا مكتوما لا يخبر به أحدا قط . ثم أخذوا كلهم في الوقت ذاته يلحون على الأمير بوهيموند أن يبادر لحسم هذا الموضوع بما عهد فيه من النشاط ، حتى لا يؤدي الإبطاء الى حدوث خطر ما ، ثم انفض الاجتماع ، فقام بوهيموند بما أثر عنه من طبع لا يعرف الإبطاء وهو يتحرق لتنفيذ مشروعه ، فاتصل في لحظته بصديقه فيروز بواسطة الرسول الذي اعتادا أن يكون الواسطة بينهما ، وأخبره أن الزعماء سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وزاح يلح على فيروز ، ويستحلفه بما بينهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في الليلة التالية بعون الله بتنفيذ الخطة التي اتفقا عليها ، فاثلج ذلك الخبر نفس سامعه الوفي ، وغلبت عليه نشوة السرور فوق كل ما يتصور .



على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت شدت من عزم [فيروز] على السير قدما في المؤامرة التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مشغولا أشد الانشغال بأداء ما تفرضه عليه واجباته الكثيرة التي يقتضيها وضعه في بيت مولاه ، بل وفي البلد كله ، اذا بأمر عاجل لا ندرية يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اذا ما كان الفتى يبلغها حتى طالع منظرا مشينا فاضحا ، حين شاهد أمه بين ذراعي أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسخطه غاية السخط ، وارتعدت منه أوصاله فزعا ، وتقززت له نفسه ، فانكفا سريعا الى أبيه وأخبره بالفضيحة ، فحنق فيروز حنق الزوج المثلوم في شرفه ، المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم يكف هذه الكلاب القذرة أنها تفرض علينا رقها الظالم ، وتنهب أملاكنا بما تبتزّه منا

يوما بعد يوم حتى تستهين بالتقديد الأسرية ، وتقطع الروابط الزوجية ؟ ٠٠٠٠ والله لأضعن - ان عشت - نهاية لهذا الفجور ، ولأجازينهم بعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له .

قال فيروز هذه الكلمات وقد كتم جوانحه على ما يحسه من شعور بالاهانة التى لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند - كما جرت العادة - ولده الذى يشاركه أسرارته ، والذى كان هذا الاثم الذى نزل بأمه قد استورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه - اذ بعثه الى القائد بوهيموند - أن يطلب اليه أن يستعد لكل شيء يستلزمه العمل الذى بين أيديهم استعدادا دقيقا ، وان يخبره أنه لن يقصر فى شيء من جانبه ، بلى انه موف بما عاهده به ، وموعدهما .
الليلة التالية .

كما أشار عليه أن يغادر الزعماء جميعا المعسكر . ووراء كل منهم أتباعه ، وأن تكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة التاسعة ، حتى ليحسبهم الرائي وكأنهم قاصدون الزحف على عدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفى سكون مطبق ، وتهيأوا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ، فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمين بخبر المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة الرجل وصادق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه حسبما رتب .

غير أنه كثيرا ما يجد حدث من الأحداث لم يكن متوقعا فيعترض مشاريع لها مثل هذه الخطورة ، اذ ساورت الريبة - التي يعوزها البرهان - نفوس مواطنى أنطاكية ، لاسيما من تقع على أكتافهم المسئولية المباشرة عن أمن المدينة ، واحتك الشك فى نفوسهم أكثر من اليقين بأن هناك مفاوضات تجرى فى الخفاء ترمى الى تسليم أنطاكية ، وما لبث هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما تلوكه جميع الألسنة ، مما دفع كبار المواطنين للاجتماع ، وساروا الى الوالى للتشاور معه فى خبر هذا الخالج الذى تضطرب به نفوسهم ، والذي بدى محتملا كل الاحتمال ، وتقوم الدلائل الكثيرة على ترجيحه .

وكان بأنطاكية - كما قلنا - رجيل كبير من المسيحيين تحوم حولهم الريب رغم براءتهم براءة تامة من هذه المؤامرة ، وكان من بينهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذي رغم اعتماد ياغى سيان على اخلاصه الصادق اعتمادا كبيرا ، الا أن الرجال البارزين الآخرين كانوا يرتابون فيه أكثر من غيره ريبة لم تجعله موضع ثقتهم .

لذلك عقد اجتماع مثير بشأن هذا الموضوع فى حضرة ياغى سيان ، تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بضعة أفراد آخرين كانوا مشار التشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب التى تحمل على عدم تصديق ما اتهم به ، لأنه كان رجلا جهم النشاط وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواه من المسيحيين ، وأخيرا رضخ ياغى سيان لالجاج مستشاريه فأمر باحضار فيروز ، فأحضروه ، وتعمد الموجودون إثارة نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون قوله ، ليكونوا قادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فيروز كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهة فأدرك في لحظة ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم في اخفاء سره ، واطهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لتقصي أمره بقوله : « ان تشككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجالات هذه المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم الثناء ، ولا يتوفر مثله الا عند ذوى الفطنة ، لأنه من الحكمة الحدس بما يمكن وقوعه ، كما أن شدة الحذر في الأمر الجليل ليست بضارة ، لذلك يخيل الى انكم قد صدرتم عن واقع ليس بالثافه في أمر يتعلق بحياتكم وحریتكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم نصيحتي فان هناك طريقة عادلة عاجلة تؤدي الى العلاج الناجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذي يهددكم ، فالخيانة الملعونة التي يبعثكم بعد نظركم على التخوف منها لا يقدر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والقوامين على حفظ الأبواب ، فان ظننتم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة استبدالهم بغيرهم ، حتى لا يظل الواحد منهم أمدا طويلا في مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وشائج صداقة مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامرة من هذا القبيل في سرعة ، بل تحتاج في الواقع الى زمن طويل ، كما انه لا يتسنى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطيرا كهذا العمل الذي لابد أن يساهم فيه معه مواطنون يشغلون مناصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوة حتى صاروا شركاء في الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغييرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضيتم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا القبيل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من القول ، وكان للملاحظات وقعها الطيب في نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلي على براءته ، وانه قضى الى جد بعيد على ما خامرهم من الشك في أمره .

وكان من الممكن أن يبادروا فى لحظتهم هذه بتنفيذ ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الانصرام ، والليل موشكا على الدخول ، مما يستحيل معه القيام - فى ساعة متأخرة كهذه الساعة - بإجراء مثل هذا التغيير الرئيسى فى حراسة المدينة ، لكن الذى استطاعوا عمله هو إصدارهم الأوامر بتشديد الحراسة ، تشديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الخفاء ، واذ كان على بينة من أن الموقف سيتبدل حالا تبديلا كبيرا ، فقد بذل غاية جهده فى السير قدما بمؤامراته ، وفى عجلة قبل وقوع أى شىء يحول دون تنفيذها .

- ١٩ -

ما كاد جيشنا يقف أمام أسوار مدينة أنطاكية ، ويفرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاغريق والبربر والأرمن وغيرهم من معتنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى ينتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع العجزة ، ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عبئا يثقل كاهل المدينة التى لم يؤذن للبقاء فيها الا الأنرياء ، ومن امتلأت مخازنهم بالمثونة ووسائل العيش الكثيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم ، وأن كان هؤلاء لم يسلموا من ازغامهم على أداء خدمات كثيرة فرضت عليهم فرضا ، الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العادة على تكليفهم بها ، وكان ذلك شيئا ثقيلا يدا معه أن المنفيين الذين أخرجوا من المدينة كانوا أسعد طالعا بمن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد طوعت عليهم الغرامات النقدية التى أخذت منهم اغتصانا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال
الشدة فى ابتزازه منهم .

ولم يكثرث أولو الأمر باحتجاجات هؤلاء ، اذ فرضوا عليهم
القيام بارذل الأعمال واشقها فى المدينة ، فاذا أريد تشييد الآلات ،
أو نقل جذوع الشجر الضخمة الثقيلة ، كلفوهم بذلك فى لحظتهم ،
كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد
البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما
وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطها بالحبال التى تشد بها .
وما كان لهؤلاء الناس الا الامتنال وطاعة رؤساء الفعلة الذين لم
يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة الفظيعة
ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سرى قبل ثمانية أيام من
الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وقرروا فى
هذا الاجتماع الفتك سرا - وتحت جنح الظلام - بجميع المسيحيين
الذين يعيشون فى أنطاكية . على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى
النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ،
فسعى سعيًا حثيثًا حتى تمكن - بعد لآلى ورغم معارضة الآخرين
له - من أن يؤجل تنفيذ القرار القاضى بقتلهم مدة ثمانية أيام ،
ولولا منحهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارسال الجلادين لتنفيذ
هذا الحكم الفظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى
تلك الليلة ذاتها .

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم
باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ،
فان تأكد لديهم عزم رجالنا على الاستمرار فى الحصار فتكوا
بالمسيحيين ذبحا ، أما ان ثبت عكس ذلك منوا بالحياة على الأهالى
الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت .

فلما انتهت فترة تأجيل الحكم ، وحانت الليلة الأخيرة منه ، صدر الأمر سرا بتنفيذ ما قضوا به ، وكانت المذبحة على وشك أن تتم في نفس الليلة التي حددها زعمائنا لتنفيذ الخطة التي رتبها بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل ، والتي تمت بعون الرب . لذلك ففي اللحظة التي شرع الصليبيون فيها في احتلال المدينة لم يشعر كبارها بالخوف من الضجة التي سمعوها ، فقد ذهب بهم الظن الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون الشروع في تطبيق الأوامر التي قضوا بتنفيذها في مواطنهم النصارى .

لذلك فانه حين تم لرجالنا الاستيلاء على المدينة بتلك الطريقة ، عثروا في دور نصاراها على كثير من خصوم ملتهم الذين كانوا قد جاءوها مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعة سمع صوت المنادى ينادى في شتى أرجاء المعسكر بخروج جميع كتائب الفرسان في كامل عدتهم وراء قوادهم ، وألا يتوانوا عن تنفيذ الأوامر التي سوف تلقى اليهم ، ولم تكن العامة هي وحدها التي تجهل جهلا تاما بما دبر في الخفاء ، اذ الواقع أنه لم يكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الزعماء .

ومن ثم فانه تبعا لترتيبات فيروز الحكيمة ، غادرت كتائب الفرسان بأجمعها المعسكر ، ومشت كل كتيبة منها وراء علم قائدها وساروا حتى ليظنهم الناظر اليهم أنهم ماضون لجهة بعيدة ، لكن

الحقيقة هي أنهم كانوا ينتظرون أن يسدل الليل سدوله على الكون
وتظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر في صمت تام .



كان لفيروز - رجل الرب هذا - الذي أدى للمسيحيين هذه
الخدمة الجلي الجليلة - أقول كان له أخ يختلف عنه كل الاختلاف ،
سواء في مشاعره أو غرضه ، ومن ثم لم يكن فيروز يثق في اخلاص
هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائتمانه عليه ، بل انه
بذل غاية جهده لإخفاء خططه عنه إخفاء تاما .

وحدث في الساعة التاسعة من نفس ذلك اليوم ، وقد أخذت
كتائبنا في مغادرة المعسكر أن وقف الشقيقتان معا على إحدى شرفات
البرج ، يطلان على المعسكر ، فشاهدا التجند يغادرونه .

وأراد الأخ الأكبر أن يسبر غور أخيه ، ويعرف ما يدور في
باله ، فخاطبه قائلا : -

« لكم أبرئى يا أخى لهذا الشعب الذى يدين بنفسه العقيدة
التي ندين بها أنا وأنت ، وكم تجزئنى الميتة التي سوف يلقاها
عاجلا ، فها هم مسبكون يغادرون مخيماتهم في ثقة وسكينة ،
لا يخافون شيئا كان أوضاعهم آمنة ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم
من الشراك وما ينتظرهم من الدمار الشامل ، فلربما اتخذوا اجراءات
أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحق منك أن تحمل نفسك هما لا مبرر له ،
فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا ليتهم جميعا هلكوا بسيوف الترك
منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض ... اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءاً ، وما كان من المستطاع أن تتكافأ الفوائد التي
نجنيها من جهودهم مع المشاق التي تحملناها بسببهم » .



لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد قرر ما إذا كان يفضي
بهدفه إلى أخيه أم يكتمه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التي
فاه بها شقيقه ، فزع فزع الشخص من الطاعون ، وراح يلعنه في
سره ، ويدبر خطة للقضاء عليه حتى لا تقف أعماله عقبة في طريق
طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز نسلالة المسيحيين فوق عاطفة
الأخوة .

- ٢١ -

في هذه الأثناء راح بوليموند يبذل غاية وسعه لانجاز
مشروعه ، وبلوغ غايته التي يسعى إليها سعياً حثيثاً ، وكذلك خوفه
من أن يؤخرها أي تراخ من جانبه . . . أقول دفعه ذلك إلى زيارة
الزعماء : فرداً فرداً ، راجياً منهم أن يكونوا متأهبين للعمل .

وكان يحمل في يده سنبلاً مجدولاً على أحسن ما تكون الصنعة
من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبتته من أدناه
بكلايب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانتصاف حتى كان جميع سكان المدينة
قد هجعوا للراحة وغطوا في سبات عميق بسبب سهرهم المستمر ،

ومواصلتهم العمل ، وحينذاك بعث بوهيموند الى فيروز بواحد من
أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا
المرجم أن يستوثق من فيروز تمام الاستيثاق عما اذا كان الوقت
ملائما ليتقدم رفاق موله .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوة صغيرة فى
ال سور ، يرقب منها ما يجرى وراءه ، فأفضى اليه فى صوت خافت
برسالة سيده ، فقال له فيروز : اجلس مكانك ساكنا ، ولذ
بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذى هو فى جولاته المعتادة
وفى صحبته طائفة كبيرة من أتباعه ، وفى أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن تقاليد المدينة جرت - بالاضافة الى الحرس الموجودين
فى كل برج - أن يدور كبير الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعاً
بالسور ، ويدور معه فى كل دورة ثلة كبيرة من العسس يحملون
المشاعل المضيئة ، فان صادف أحداً قد غلبه النوم ، أو متراخيا فى
أداء واجبه ، أنزل به القصاص **مليح الجدير به** .

وسرعان ما وصل الضابط المكلف بهذه المهمة ، فألقى فيروز
يراقب الأمور ويؤدى واجبه تمام الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف
مطمئن البال هادئ الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلت اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء
الى رسول بوهيموند الذى كان متواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد
وقال له : « هيا عجل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برجاله
المختارين على جناح السرعة » ، فانكفا الرسول عجلان الى سيده ،
فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهيموند اليه القادة الآخرين سرا ،
فاستجابوا له سراعاً ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن يتبعه
من رجاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين أسفل البرج وقفة رجل واحد ، دون أن يسمع
أحد لقدمهم صوتا ، أو يحدثوا جلبة .



فى خلال تلك الفترة القصيرة كان فيروز قد دخل البرج ،
فوجد أخاه يغط فى نومه ، ولما كان قد تأكد لديه حقيقة مشاعره
وانها ضد المشروع الذى دبره واستعد لتنفيذه ، فقد خشى أن يقوم
شقيقه هكذا بما من شأنه عرقلة تحقيقه ، بعد أن أوشك على
إخراجه ، ومن ثم طعنه بسيفه طعنة نافذة ، فكانت ضربة طيبة
ودنيئة فى الوقت ذاته ، ثم عاد فأطل من الكوة الموجودة بالأسوار ،
فطالع تحتها حلفاءه ، فحيا كل منهما الآخر تحية فيها الرجاء بسلامة
كل جانب ، ثم دلى فيروز حبالا جذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم من رفع السلم وتثبيتته تثبيتا محكما من ناحيتى
القمة والقاع الا أن الجرأة لم توات أحدا على تسلقه ، ولم يوجد
من يخاطر بحياته فيتسلقه . نزولا على أمر رئيسه ، أو حتى
انصياعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكن يتبين ذلك الاحجام منهم
حتى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هباب ولا وجل ،
فلما بلغ القمة وتعلق بجدار الشرفة امتدت يد فيروز من الداخل
وأمسكت باليد المتعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند
نفسه ، قيل انه هتف « عشت يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرتفع قدره فى نظر بوهيموند وفى عيون
المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما جرى من اغتياله شقيقه الذى
لن يقبل مشاركتة فى عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ بيد
بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جثة أخيه
الهامة غارقة فى دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هذا الرجل الصادق في اخلاصه ، والتأبّت على عهده ، وقد قاضى قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفه مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله فى صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اذ لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون فى شك فيما سمعوه من الشرفه ، فلما أدرك يوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامته ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وقعت فى أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كونت فلاندرز ولورد تانكريد ، اقتفى غيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأشداء الى شرفات الأسوار فى أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكثر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الإشارة باقتحام المدينة حين يرسلها لهم رفاقهم الموجودون بها ، وأحس الذين تسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج فى ضواحيها ، بعد أن فتكوا بحراسها ، وقد تم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان فى ناحية السور الذى صعد منه الصليبيون باب سرى
فنزلوا اليه ، وحطموا قضبانه ، وفضوا أقفاله ، وفتحوه وأدخلوا
من خلاله العسكر المنتظر فى الخارج ، فازداد عدد المهاجمين خلف
الأسوار زيادة ضخمة ، واندفع هؤلاء وهؤلاء جميعا الى المكان المعروف
بباب الجسر ، وأعملوا الذبح فى الحراس فى هجوم شرس عليهم ،
ففتحوا هذا المدخل أيضا .

فى هذه الأثناء حمل بعض أتباع بوهيموند رايته الى قل
مشرف على المدينة ، وركزوها فى مكان بارز للعيان على مرتفع قرب
القلعة العليا .

ثم تلات السماء مؤذنة بطلوع الشمس . فنفخ فى الأبواق
لتكون اشارة لرجالنا الذين أحدثوا ضجة صاخبة عند مدخل المدينة ،
وليحملوا الجند الذين لا زالوا فى المعسكر على التحرك ، فلما فهم
الزعماء معنى هذه الاشارة - التى كان متفقا عليها من قبل - هبوا
الى سيوفهم وأسرعوا يأخذون فرقهم كلها ، وانطلقوا على عجل الى
المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحينذاك تحرك العامة [اللاتين] الذين ظلموا حتى هذه الساعة
على جهل بما دبر من خطط فى الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر
شبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا فى أعقاب
الآخرين وشقوا طريقهم - وقد تملكتهم الحماسة - الى داخل المدينة
التى استيقظ أهلها على الضجة العالية ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا
بإدب ذى بدء حقيقة هذا الصياح العالى الذى لم يالفوه من قبل ،
لكنهم طالعوا منظر الفرسان العجيب وهم فى دروعهم وزردياتهم
يتدافعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار فى كل ركن وناحية
فى الشوارع والميادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من
بيوتهم وهاموا على وجوههم ، محاولين الهرب بنسائهم وأبنائهم ،

وانطلقوا على غير هدى قد ضل صوابهم ، فى محاولات مجنونة للنخلص من عصابات الجند المسلحين ، بحثا عن مكان آمن يلوذون به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أين يمشون فوقعوا فى طريق المحاربين الآخرين .

أما من كان يسكن المدينة من المسيحيين والسريان والأرمن ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاوزت فرحتهم كل فرحة لما جرى ، وبادروا الى امتشاق السلاح وانضموا الى الجيش ، واذ كانوا على دراية تامة بكل ركن فى المدينة فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت مغلقة وثبوا على حراسها وفتكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ، ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هذا التغير المدهش قد جاء من الرب .



أما أولئك الذين كانوا يقاسون شدة نير الرق من تلك الكلاب النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والتعذيب دون أن يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينة بعد أن استولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ، وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للجميع تخفق من أعلى الأماكن رمزا للنصر الذى أحرزوه ، فأنى ألفت فتى مذبة وآلام مبرحة وعويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القتل هم وأهلهم ، وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات المنزلية ، وصارت جميع حاجيات العدو نهبا مستباحا لأول من يسعفه حظه أن يتسلل اليها ، وجاس المنتصرون حيثما شاءوا .

فاقتحموا الأماكن التي كان دخولهم اليها محرما عليهم ، وطفى عليهم جنون القتل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنثى ، ولم يوقروا كبيرا لسنه ، ثم راحوا يستفسرون من كل عابر لشوارع المدينة وميادينها أين تكون بيوت سراة الأهالي وأين يسكن أثراهم ، وكونوا من بينهم المخادع ، وتعمل السيوف في الأمهات وأطفال النبلاء ، ثم راحوا يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب وفضة وثياب غالية .

ويقال انه قتل ذبحا في هذا اليوم ما يربو على عشرة آلاف من الأهالي ، واكتظت الشوارع في كل مكان بجيف القتلى التي لم تجد أحدا يوارئها ، فبقيت حيث هي .

- ٢٣ -

حين رأى ياغى سيان أن المدينة قد استسلمت لخصمه الذي تملك جميع أبراجها وحصونها ، وحين شاهد الناجين من الهلاك يرتدون إلى القلعة على عجل ، بدأ الخوف يتسرب إلى نفسه من أن يتعقبه المسيحيون إلى حيث هو واقف ، ويحددوا به هو أيضا ، فاندفع - كأنما قد أصابه مس من الجنون - نحو بوابة خلفية ، وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنيه سوى الإبقاء على مهجته . وبينما كان يتخبط هنا وهناك في جزع قاتل ويهيم على وجهه من غير هدف واضح إذا بطائفة من الأرمن يصادفونه فعرفوه في لحظتهم ، فاقتربوا منه حتى لكانهم يهمون بتعظيمه ، فأذن لهم بالذنو منه وهو جزع ، فلما تبينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعتهم أن المدينة قد سقطت فوثبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ، وقدموها هدية الى القادة وعلى مرأى من الناس جميعا .

ووجدوا أيضا بمدينة أنطاكية جماعة من الأشراف كانوا قد وفدوا اليها من أماكن قاصية لتجديتها ولاظهار جرأتهم ، فلما تبينوا سقوطها فى أيدي المسيحيين أجمعوا العزم على الارتداد الى القلعة العليا دون معرفتهم بالناحية ، واستبد بهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائمين على وجوههم ، لاثنين بأذيال الفرار ، لكنهم وجدوا أنفسهم وقد أحرق بهم فى مكان شديد الضيق أعجزهم النزول فيه لشدة انحدار التل تحتهم ، و لا يستطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يتلمسون فى يأس أى سبيل للنجاة اذا بثلاثمائة واحد منهم على جيادهم يسقطون من أعلى التل معهم رنوكهم التى تميز الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم ، وتهشمت عظامهم ، حتى لم يكذببقى منهم شيء يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينة وما جاورها ويلمون بدروبها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سقوط أنطاكية حتى تجمعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى التلال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد . لكن قواتنا تعقبتهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدهم بالسلاسل ، أما من أسعفتهم جيادهم بالوصول الى التلال فقد اتخذوا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما تجمع كل من كانوا قد انتشروا فى المدينة أجرى استقصاء دقيق دل على أنه لم يعد بها شيء من المؤونة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن الحصار ظل مستمرًا بغير انقطاع ما يقرب من تسعة شهور متتالية .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر والأواني الثمينة والبسط والأقمشة الحريرية فاستولى عليها الناس ، وفاضت بها أيدي من كانوا حتى الآن جياعا متسولين قأثروا فجأة وصارت لديهم وفرة من كل شيء .

على أنه لم يوجد في كافة أرجاء المدينة أكثر من خمسمائة حصان من جياد الحرب ، ولكنها كانت خيولا ضامرة هزيلة تكاد تموت جوعا .

وكان الاستيلاء على مدينة أنطاكية في اليوم الثالث من شهر يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

هنا ينتهى الكتاب الخامس

هنا يبدأ الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

- ١ - وصف الجبل المشرف على المدينة والذي لا يزال بعضه في يد العدو الذي أقام حراسا هناك ، وارسال رسل الى الساحل الشامى وتحصين المدينة تحصينا قويا .
- ٢ - مقدمة من جيش كربوغا قوامها ثلاثمائة رجل تخطر أمام المدينة ويخرج لقتالها روجردى بار نفيل غير أنه يلقى مصرعه مذبوحا .
- ٣ - الأمير الكبير يتقدم الى الامام ويضرب معسكره على

المرتفعات المشرفة على القلعة ، والتغلب على الدوق
عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ - الصليبيون يحفرون خندقا داخل المدينة يمتد
على طول سفح التل ، وهناك تنشب معركة تدور
الدائرة فيها على العدو الذي ينزل قائده من الجبل
ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ - الصليبيون بأنطاكية يكابدون مرارة الجوع
فيتسلل بعض النبلاء خلسة ، وتوضع القيادة
العليا في يد بوهيموند .

٦ - كونت فلاندرز يضرم النار من تلقاء ذاته في
الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه
عاجزا عن استخلاصه ثم يغادره ، كما أن القائد
العام لقوات العدو يبعث إلى فارس رهطا من
أسراه الصليبيين .

٧ - اضطراب الشعب لأكل الطعام القذر - وإن كان
على مضض - أمام استفحال المجاعة .

٨ - العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ،
لكن هنري ديش يقاومه مقاومة بأسية وينجح
بعد قتله لكثير من الأتراك - في الاستحواذ على
البرج بقوة السلاح .

٩ - العدو ينزل إلى الساحل ويحرق المراكب ويقتل
الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ - ستيقن كـونت شارترز يزور امبراطور
القسطنطينية .

١١ - حديث ستيقن الكاذب الى الامبراطور مما يعود
بأوخم العواقب على الصليبيين .

١٢ - الامبراطور يعود الى بلاده ثقة منه في كلام الكونت
ثقة حملته على وقف الحملة التي كان قد أعدها
لمساعدتنا .

١٣ - أنباء انسحاب الامبراطور تشجع العدو على
تكثيف ضغطه على الصليبيين الذين يحملهم اليأس
على رفض القيام بإجبيهم ، فيضرم بوهيمونه النار
في المدينة ليحملهم على الخروج من مخائبهم
ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد
عليهم خطتهم .

١٤ - الرؤيا التي رآها شخص اسمه بطرس [بارتلميو]
والكشف عن حرية المسيح وعودة السكينة الى
نفوس الناس من جديد .

١٥ - الزعماء يجمعون الرأي على بعث بطرس الناسك
رسولا من قبلهم الى العدو فيمضي ويؤدي
السفارة بشجاعة .

١٦ - بطرس الناسك يعود الى الزعماء ويفصل لهم
الخبر عن وجهة نظر العدو المتعجرفة ، فتعلن
الحرب .

١٧ - الصليبيون يغادرون أنطاكية بعد اعداد صفوفهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ - كريبوغا يستعد المنح الصليبيين من سفادرة المدينة ، ولكن رجالنا يشقون لهم طريقا بالقوة .

١٩ - بينما الصليبيون يتقدمون أخذت السماء تساقط عليهم الندى فنزلت السكنة عليهم جميعا .

٢٠ - كريبوغا يرتب عسكره للحرب ويشب القتال في الأحياء المجاورة ، كما يشن قلع أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين في المؤخرة ويكشف الضغط على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء الآخرون لنجدته ويغلبون الترك الذين يضرمون النار لتكوين سائر دخاني .

٢١ - قائد قوات العدو يفر ويهلك عسكره ، أما اللتين قدوت لهم النجاة فيلوذون بأذيال الفرار .

٢٢ - بعد أن يفرغ رجالنا من فتكهم في العدو يعودون الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ - الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكية ، ويأخذ الصليبيون في تنظيف الكنائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للإشراف عليها .

هنا يبدأ
الكتاب السادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

- ١ -

هدأت الجلبة أخيرا ، واستعادت المدينة هدوءها ، وكلت سيوف
الغالبين التي ارتوت بالدماء من المذابح التي لا نهاية لها ، وأذ ذاك
التقى الزعماء للتشاور فيما بينهم ، أدركا منهم أنه لا زال هنالك
عمل كبير أمامهم حتى يكتمل الفتح ، لذلك أقاموا حراسا على الأبواب
والأسوار وعزموا على ارتقاء الجبل ومهاجمة القلعة ، وبعثوا المنادى
يأمر جميع الفيالق العسكرية بصعود التل المشار إليه ، فلما صاروا
على المرتفعات اتضح لهم صعوبة اقتحام القلعة بسبب حصانتها ،
وأنه لا سبيل إلى الاستيلاء عليها إلا أن أجاعوها ، وأذ كان هذا
الأمر يتطلب أياما طويلة فقد أدرك الزعماء ضياع كل ما يبذلونه
من الجهود ، وأنه لا بد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه . . .

كان الجبل المشرف على المدينة يشقه من وسطه واد عميق ،
له جانبان شديدا الانحدار ، وكان انحداره المواجه للشرق أعجب
المنحدرين ولكنه ينبسط من أعلاه لينتهي إلى سهل فسيح زاخر
ببساتين العنب وبالمزارع ، وكانت المسافة بين شقي هذا الوادي
العميق شديدة الاتساع حتى ليخيل للناظر أن هناك جبلين وليتل
جبل واحد مشطورا إلى شطرين . . .

أما المنحدر المواجه للغرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يضرب
بقمته فى العلا حتى تكاد الجوزاء ، كما تقوم القلعة على أعلى نقطة
فيه ، وهى محصنة بالأسوار القوية والأبراج الضخمة .

وبعد من الشرق الى الغرب هوة سحيقة العمق مما يستحيل
معها تصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصول الى
القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما يوجد الى الغرب تل أقل ارتفاعا ، ويفصل بينه وبين
القلعة واد متوسط الاتساع ، وان كان أميل الى الضيق ، وتحفه
منحدرات يسيرة ، ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى
المدينة ، وهو طريق يمثل فى ذاته خطورة حتى ولو لم يكن هناك من
يهاجمها ، ويرأى قوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا التل ،
حتى لا تتاح للعدو فرصة الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة
لمهاجمة قواتنا ، ولذلك تم وضع طائفة من الرجال الشجعان فى ذلك
المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والفسلاح ، كما تم بناء طور
به متاريس حجرية ، ثم نصبت فوق هذا كله الآلات وأعدت فى
وضع استراتيجى لرد العدو على أعقابهم .



ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينة للتشاور فى أمور أهم مما
سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغون
من بحثها ، وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا - ما عدا الدوق - فى
هذه الناحية حتى يتم الاستيلاء على القلعة .

كما اتفق اجمعهم على أن يقوم جودفروى بحراسة الباب الشرقى
والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهدوه فيه من علو الهمة ،
وكانت هذه الطابية فى أول انشائها موكولة الى بوهيموند .

وجاءت الأخبار إلى القيادة أن كربوغا الزعيم الكبير المشار إليه سابقاً سوف يصل قريباً جداً ، إذ أنه دخل أرض أنطاكية وبعث بالآلوف المؤلفة من عسكره في البلاد ، فكان خير ما ينبغي عمله في هذا الطرف هو إرسال أحد زعمائنا إلى جهة الساحل ، لاستدعاء الأخوة الذين ذهبوا إلى هناك لجلب المثلثة اللازمة التي يمكن العثور عليها هناك .

وفي خلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوغا الكبير ، لم يترك الصليبيون شبراً من الأرض المحيطة بالبلد إلا ذرعوه وفتشوه تفتيشاً دقيقاً ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعليف لئلا يكان مصدره ، وبذلوا جهوداً مفضية لتموين المدينة ، كما أن الأهالي والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه من طعام حين أدركوا استسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل ما جرى به من شتى النواحي لم يكن شيئاً مذكوراً ، لأن لم يكن شيئاً أبداً يكفي ما ترتب على الحصار الطويل الذي استنزف في مدى شهوره التسعة المتتالية موارد الإقليم بأكملها . ولم يخلف شيئاً يمكن الاعتماد به لمساعدة رجالنا حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم التالي للاستيلاء على أنطاكية وبينمنا كان الصليبيون باذلين غاية الهمة في خراصة المدينة وتزويدها بالمثلثة ، إذا بثلاثمائة من فارس لجيش كربوغا مدججين بالسلاح من قمة

رؤوسهم الى اخمص اقدامهم قد امتطوا الجياد الصافنات واختفوا في
 كمين قريب من المدينة ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل هو
 القبض على أى جماعة من رجالنا تكون قد غادرت موضع حراستها
 خارج الأسوار ثم بعد بها السير دون أن تتخذ الحيطة لحماية نفسها ،
 وكان ثلاثون من هؤلاء الثلاثمائة على خيول سريعة الركض قد أخذوا
 يروحون ويحيثون أمام المدينة متظاهرين بعدم الاكتراث بأى خطر
 يدهمهم ، فلما رأهم المسيحيون الذين وراء الأسوار يخبون بهذه
 الصورة تفجر مرجل غضبهم عليهم ، أو لعلمهم أحسوا العار الشديد
 ان هم كفوا عن مهاجمتهم ، واذا ذاك تحرك « روجر دى بارنفيل » وهو
 من أتباع روبرت كونت نورماندى ، وكان محارباً باسلاً أنجز كثيراً
 من الأعمال الباهرة فى هذه الحملة ، وأسرع بامتطاء فرسه وخرج
 من البوابة وانطلق يبعثى مهاجمتهم ، واستصحب معه ثلثة قوافله
 خمسة عشر رجلاً من أتباعه ، وعزم على أن ينجز - كذا به - عملاً
 من أعمال البطولة ، وعدا عدواً سريعاً مهاجماً هؤلاء القوم بشجاعة
 عظيمة ، فتظاهروا بالفرار هرباً منه ، وظلوا مبعثين فى التراجع
 حتى بلغوا الموضع الذى يختفى فيه رفاقهم الذين برزوا من مكنهم ،
 وتزايدت أعدادهم بكثرة ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمة
 « بارنفيل » ورهطه هجوماً عنيفاً لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب ، ولم
 يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه ،
 لذلك حاولوا الرجوع الى المدينة ، غير أنه حال بينهم وبين ما ينشدونه
 سرعة عدو جياد الحصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ،
 فأوقعه من على ظهر جواده وأرداه قتيلاً ، فحزن عليه رفاقه أشد
 الحزن ، لأنه كان قد أخلص النية ، فأنجز أهداف الحجاج
 الصليبيين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينة ، أما هو - وهو الرجل
 البارز - فقد حز الأعداء رأسه على مبرأى جميع من على الأسوار

والأبراج العاجزين - وأسفاه - عن أسعافه ، ورجع العدو لم يلحقه أذى .

لم يكد [المهاجمون] يعودون من حيث جاءوا حتى خرج الصليبيون يذرفون الدمع السخين على روجر ويكونه ، وحملوا جثمانه الى المدينة في احتفال يليق به ، ثم أقاموا المراسم الأخيرة للमित الراحل في حضرة القادة والناس أجمعين ، ووسدوه الثرى في احتفال رائع أقيم في ظلة كنيسة أمير الرسل [القديس بطرس] .

- ٢ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالي ، وهو الثالث بعد استخلاص المدينة ، ثم ما كادت الشمس تدرق قرنها على كفى كان أقوى الأمراء الذي أشرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن تراه عين المطل من القسم الأعلى بالمدينة ، واستطاع بجموعه الصغيرة - التي تزيد زيادة أكبر - مما تذكره الأخبار - أن يعبر الجسر العلوي ، ويضرب مخيمه فيما بين البحيرة والنهر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تشغل مساحة كبيرة وعسكره كثيرين جدا حتى هناق بهم السهل القبيح الذي تقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت التلال المجاورة .

٢١٩

ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية تبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله ، وبيّن لهم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، ليستطيع نجاتهم ان

٣٧١

٢١٩

دعت الضرورة إلى النجدة ، كما أنه أراد أن يدخل قواته إلى أنطاكية عبر البوابة الموجودة أسفل القلعة ، ومن ثم قوض معسكره ، وارتقى المرتفعات ، وأحرق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة ، محتلاً المنطقة الواصلة بين البوابتين الشرقية والغربية .

كانت هناك طابئة أقيمت في البداية لحماية القلعة ، وهي وافقة على كل مرتفع بعض الشيء قرب الباب الشرقي ، وقد عهدت بهذا المكان أولاً إلى رعاية يوهيموند الذي شرع - بعد أن تم الاستيلاء على أنطاكية - في تصريف الإدارة العامة للمدينة ، كما عهد بالطابئة المشار إليها والبوابة القريبة منها إلى الدوق ليقوم بحراستها ، وكان الأعداء قد ضربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطابئة ، ودأبوا من هناك على شن هجماتهم الموضوعة على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق ذرعاً بعربدتهم التي استحالت عليه تحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم بكر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصن ، الذين كانوا على وشك الاستسلام ، كما راوده الأمل في أن يتمكن من التغلب على المعسكر المضروب أمام البوابة ، لكنه بينما كان ماضياً للنجدة رجاله ، إذا بعسكر من الاتراك يهاجمونه ، وكانوا أشد منه بأساً وأكثر عدداً ، فأدرك عجزه التام عن الصمود أمامهم ، ونجح بعد لأي في النجاة من سيوفهم ، فانقلب على عقبيه مرتداً إلى المدينة ، ومضى الترك في أثره يطاردونه بهزم كبير ، غير أن الغوغاء من الحجاج الذين لا يعرفون النظام تكاثروا وراح بعضهم يزاحجون بعضاً في هروبهم اليائس ، فسئل المدخل وحال كل واحد منهم بين صاحبه وبين الدخول ، مما أدى إلى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأثخنت بعضهم جراحهم ، وأسر سنواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتي قتيل هلكوا عن بكرة أبيهم .

كان الأتراك يعدون الدوق الزعيم الأكبر للجيش الصليبي ، وقد أدرجته هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى أنهم طمعوا في القيام بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا إلى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ، سالكن طرقا جانبية معروفة لهم تمام المعرفة ، وباغتوا رجالنا بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسة ، ففتكوا بالكثيرين منهم ضربا بالسيوف ورميا بالسهم ، ومع ذلك فانه لما حاول الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعا إلى النواحي المرتفعة ، واستولوا على القلعة هناك ، لأنه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي كانت يالتل ، والتي كان رجالنا قد استولوا عليها وأحسنوا تحصينها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينة من جراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدت بالزعماء إلى اجتماعهم الأمر على وجوب إيجاد علاج لهذا الشر المستطير ، فاتفقوا برضاء تام على قيام بوهيموند وكونت تولوز بحفر خندق عميق عظيم الاتساع ، يكون عند سفح اثنى بأسفل المدينة ، مما لابد أن يؤدي إلى الحد من غارات الترك المتتالية في نزولهم من أعلى المدينة ، ولقد ترتب على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بفترة من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشيدوا هناك أيضا طابية لتزداد فعالية هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطابية جميع القوات مشاركة صادقة مخلصه ، كأنما يقيمونها من أجل سلامتهم هم أنفسهم . أما الترك - سواء من كان منهم بالقلعة في تلك الناحية أو من كان منهم يحاصر المدينة من الخارج - فقد استثمروا ينزلون من خلال البوابة العليا ، عن طريق ممرات سرية ،

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بغية تدميره ، متخذين من أجل ذلك شتى الوسائل المتاحة لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر مما جرت العادة به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم اندفعوا نحو هذه القلعة الحديثة البناء ، وشرعوا يهاجمون من بداخلها هجوما عنيفا ، مما كان لابد أن يؤدي الى وقوع من كانوا في تلك الطابية أسرى في أيدي الترك ، لولا أن هب لنجدهم القادة الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة الى جانب كل نسهم المبعثرين في أنطاكية ، وكان هؤلاء القادة هم : بوهيموند ، وايفرار دي بويسيه ، ورالف دي فونتى ، ورينالد كريتون ، وبطرس بن جيسنلا ، والبريكوس ، وايفو .

ولقد كر الدوق وكونت فلاندرز وأمير نورماندى كرة صداقة على تلك الناحية مما أدى الى فشل محاولات العدو ، وبهلاك الكثيرين من الاتراك ذبحا ، ووقوع بعضهم فى الأسر ، أما البقية فقد حملها فزعها على الهرب ، ليس من الطابية وحدها ، بل من المدينة كلها .

وانقلب هؤلاء الفارون الى مولاهم وهم معجبون بشدة بأس الصليبيين ، والسنتهم تشيد بشجاعتهم العجيبة ، كأنما قد تمت فيهم النبوة القائلة : « ارجع لكى تصبغ رجلك بالدم . السن كلابك من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع - حتى من اضطهدوهم - كانوا لسان مدح وثناء على هذا الشعب المخلص .

أقام كربوغا أربعة أيام فى الجبال كما قلنا ، حتى اذا فقد كل أمل له فى النجاح ، وأدرك أيضا أن غلف تحيولة قد نفذ أو كاد قوض معسكره ، ونزل الى السهل مرة أخرى بكل جيشه عابرا بهم النهر من مخاضة عند قناة موجوده هناك ، وعهد الى قواده بجنته

الذين رتبهم على شكل دائرة وجعلهم على مسافات متساوية ، ثم راح يحاصر أنطاكية .

فلما كان اليوم التالي انفصل بعض الأتراك عن بقية الجيش ، وراحوا يتحدون رجالنا للقتال ، وترجلوا عن جيادهم ، واشتدت جراتهم في الهجوم على المدافعين الموجودين على السور جراءة أفضت الى هلاك بعضهم ، ذلك لأن تانكريد قام بهجوم فجائي عند الباب الشرقي وباغت الترك وهم على هذا الوضع الذي لم يستطيعوا معه معاودة إمتطاء جيادهم ، فقتل منهم ستة ، ولاذ الباقون بأذيال الفرار ثم أمر يقطع رؤوس ضحاياهم وحملها الى المدينة عزاء لأهلها وسلوى لهم ، ومسحا للحزن المبس الذي كان يقطع نياط قلوب المؤمنين لمصرع * روجر دى بارنقيل ، الذي قتل هناك .



في هذه الأثناء كان الشعب الصليبي الذي قام بحصار أنطاكية والاستيلاء عليها عنوة وبقوة السلاح قبل ذلك بوقت قصير قد أصبح الآن يعاني بشدة الحصار ، وهو تغير كثير الحدوث في حياة الإنسان ، وزيادة على ذلك فقد أنهكت الصعاب الصليبيين انهاكا لم يعد معه في مقدورهم احتمال ما يكتنوا كإثباته واشتد العيش بسبب المجاعة التي جاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا بين خطبين : السيف في الخارج ، والفرع في الداخل ، ثم انه كان من الطبيعي أن يستبد بهم الخوف من حشود العسكر الكثيرين المحاصرين للمدينة من الخارج ، هذا بالإضافة الى أن الأتراك كانوا لا يزالون يحكمون قبضتهم على القلعة ، حتى راحوا يشنون منها - كما قلنا - هجماتهم الآخذ بعضها

بحجز البعض الآخر ، فلم يعد المؤمنون يعرفون معنى للراحة ، وتملك
الناس الكثيرين منهم عقبا لهم على خطاياهم ، حتى أن معظمهم
تناسوا مهمتهم والعهود الجمة التي قطعوها على أنفسهم فأنفصلوا عن
رفاقهم ، ونزلوا نجلسه من الأسوار مستعينين بالسلاسل والحبال ،
متجمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء في أيدي
العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا في الوصول الى
البحر فقد أرغموا أهل السفن الراسية هناك على قطع حبالها والابحار
في لحظة هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوغا]
الذى جاء بعسكره الذين لا يحصينهم العد ، قد استولى بالقوة على
المدينة التى كانت منذ قليل فى أيدينا ، ولم ينبج من فتكه أحد من
رجالنا ، وذبح قوادنا ، ولكن شاءت إرادة الرب أن ننجو وحدنا
ذوئهم . . . فهما أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوغا]
ويلحق بنا عند الشاطئ ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعتلوا سطح السفن مع من كانوا عليها ، ولاذوا بأذيال
الفرار المشين ، الذى لم يقتصر على الغوغاء وحدهم ، ولا على طغام
الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من ذوى
المراتب السامية ، وظهرهم « وليم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه
أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أخت بوهيموند ، وأخوه « ألبريكرسن »
ووليم النجار ، وجى دى تروسييل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن
لا نذكر اسماءهم التى لا ينبغى أن يتضمنها هذا الكتاب ، أمثلة أن
محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير فى
الأخطار الجسيمة ، وعجزت عن تحمل المجاعة والمصائب ، فلجأتهم
الى العدو ، وكان ذلك من جانبهم أكبر ما ارتكبه من الموبقات ، لأنهم
بذلك أنكروا فى لؤم تعاليم المسيح وعقيدته ، فكان هؤلاء المرتدون

ينقلون الى الترك احوال الجيش الصليبي ، مما أدى الى وضع الصليبيين في أشد المآزق خطورة ، كما أن الكثيرين ممن ظلوا مقيمين بالمدينة كانت تراؤفهم سرا الآمال في أن يفروا هم أيضا ، وتوقع أسقف بوى الموقن والقائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من بجانب هؤلاء ، ومن ثم جاءوا الى رجال من أهل الفطنة الذين دلت التجربة على إخلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد إليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسة الأبراج الى زعماء لم يقصروا في رعايتها بلا كلل : ليلا أو نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما - بارعا كان أم مراوغا - يقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس - صغيرهم وكبيرهم على السواء - حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون اليمين على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصديق والوفاء حتى ينتهى حصار أنطاكية ، وحتى تقع المعركة التى كانوا فى انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا باتباعه وحواشيه وأصدقائه ، وكل من له ثقة تامة فيهم أخذ غاية الحذر ، فلم يحظ قط - ليلا أو نهارا - بقسط من الراحة ، اذ كان يشغل وقته بالتجول فى الشوارع والميادين ، والتفتيش على الأبراج والحصون ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد متهاونا فى مهمته ، وليتأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينة عن طريق الخيانة .

وكانت هناك أربع قلاع تتطلب حراستها رعاية خاصة تلك هى الطابية العليا التى شيدت فى مواجهة القلعة العليا مباشرة ، ثم تليها ثانية تقع دونها داخل المدينة ووزاء الخندق الذى حفر للصدد الهجمات التى تأتى من بوابة المعسكر العالى .

وأما ثالثها فكانت خارج الباب الشرقى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احتلال المدينة .

وأما رابع هذه الطوابق فتقع على رأس الجسر وهي التي تمكن الصليبيون بفضلها منذ قريب من مهاجمة بوابة الجسر ، وقد عهد في بداية الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كونت تولوز ، لكنه تخلى عن هذه الحراسة حين تم الاستيلاء على أنطاكية ، ودخل المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاستيلاء على أنطاكية أن قام كونت فلاندرز مع خمسمائة من الأبطال الأشاوس بحراسة هذه القلعة وكثف من استعداداتها الدفاعية ، مخافة ألا يستطيع شعبنا الرواح والمجىء عن طريق الجسر ان سقطت القلعة في يد العدو ، الأمر الذي لا بد ان يؤدي الى وضع أشد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كربوغا أن رجالنا أصبحوا الآن أكثر حرية في القدرة على الخروج والرجوع دون عائق ، كما رأى أن الحصن القائم عند الجسر يمثل عقبة كأداء أمام خططه ، لذلك أصدر أمره - في يوم من الأيام - الى كتيبة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن تحمل السلاح وتشن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فاطاعوه في لحظتهم ، وتخبروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التي أشرنا اليها حالا ، وقسموا أنفسهم جماعات راحت تتناوب فيما بينها قذف الطابية بسيل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهار ، حتى الحادية عشرة منه ، ولكن الكونت ورجاله استبسلوا في صدقهم ، ولم يدخروا وسعا في الدفاع عن المكان الذي عهد الى الكونت بحمايته ،

ولما قاربت الشمس الغروب ، وأخذ الليل ينشر غلائله على الكون ، تبين للمهاجمين أنهم لم يتقدموا الا قليلا ، فتخلوا عن هجومهم وعادوا الى معسكرهم ، غير أن الكونت خشي أن يعاود الأعداء الكرة في اليوم التالي بقوات أضخم من قواته التي تحت يده الآن ، فلا يعسود في استطاعته أبدا حماية القلعة ضد حشود العدو الكثيفة ، لذلك قام في سكون الليل وأضرم النار في هذا الموضع وتركها ترعى كل ما به ، ثم انكفأ الى المدينة بمن خرجوا معه سعيا وراء هذا الأمل الضائع .

ولما أشرق الصباح رجع عسكر الأمس المهاجمون يعاودون هجومهم مرة أخرى ، وقد انضم اليهم ألفان ، فبا بلغوا هذه الناحية حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد تهدم أكثرها ، فاضطروا للعودة من حيث جاءوا دون أن ينجزوا مهمتهم .

وفي خلال هذه الأيام التي كانت قوات العدو فيها تهاجمنا خلصة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من الفقراء المعدمين الذين خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم ، فأمسكوا بهم الى أميرهم ، هدية منهم اليه كأول غنيمة أسفرت عنها نجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى الضعيف ، وما عليهم من رث الثياب أثار استمزاز الأمير ، إذ لم يكن معهم سوى أقواس خشبية ، وسيوف بالية غلاها الصدأ ، كما تستر أجسامهم ملابس ممزقة من جراء عملهم الدائم . وبسبب قدم هذه الثياب لأنه لم يكن لدى فقراء الحجاج ما يتدثرون به غير هذه الأسمال ، ويفال انه ما كاد هذا الأمير يتفرسهم حتى صاح قائلا : « أبمثل هؤلاء الناس يدب الذعر في قلوب الأمم الأجنبية ؟ وهل يحق لقوم كهؤلاء أن يعتبروا أنفسهم أثرياء وما هم الا كأفقر المرتزقة يجود الناس عليهم بلقمة الخبز ؟ .. ألا فانظروا الى ما يمين أشراف أهل الشرق من سلاح ... أما هؤلاء فان الضربة من سلاحهم ظل أن

تؤذى عصفورا أو تسقطه على الأرض ، وعلكيم أن توثقوا هؤلاء
الرجال ، وتسوقوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم
ثيابهم المهلهلة ، وتقخذوهم إلى مولاي الذي أرسلنى فيعرف من مظهر
هؤلاء الأشقياء أن الغلبة على رجال هؤلاء الرجال لا تستغرق من
الوقت إلا قليلا . . . ودعوه يفكر : أى صنيت لمثل هذا الشعب
التعس فى تفاخره بما يفتح !! واطلبوا إليه أن ينام قرير العين
ويلقى بالتبعة على أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وقت قصير حتى
لا يكون ثم وجود لهذه الكلاب القدرة ، ولن يحسب لهم حساب
بعد ذلك بين الأمم .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم إلى رجال عينتهم لهم ، كي
يسوقوهم إلى السلطان بفارس ، وأن يفضوا إليه بما قاله هو الآن ،
ذلك لأنه كان على ثقة تامة من قدرته فى يسر على قهر رجال هؤلاء
الرجال وإن لم يجرب بأسنهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن
أنه يحط بها من قبح هذا الشعب عند مولاه ، وأنها تجلب له المجد ،
سوف تكون فى النهاية سببا لنكبته ، ولأنه حين تحقيق به الهزيمة
النكراء ، ويغوص فى حما الفوضى على يد هذا الشعب البقير ، فإن
العار الذى يلحق به إذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لأن القاعدة
العامة هى إن الهزيمة تكون أسير احتمالا إن لقيها المغلوب من رجال
شجعان أقوياء ، أما إذا أحرز النصر عليه قوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة
لهم فإن شبنار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصرة من كل جانب، وقد ثقتهم وضع
الصلبيين سوءاً لأنهم أصبحوا عاجزين عن مباحثتها لقضاء مطالبهم، فمضى
أعمالها خارجها، كما سددت المسالك أمامهم، فمضى الجوع بها، مما سخرتهم
عليه لعدم قدرتهم على جلب الطعام إليها، فمضى الجوع بها، مما سخرتهم
واحدت المشونة في التنافس وانعدم توفر مطالب الحياة الضرورية، مما
حمل الجوع على سلوك سبل مخجلة لسد هذا النقص، ولم
يعد ثم مجال لاختيار نوع الطعام حتى عند أكثر القوم تأقيا في
أمورهم، ولم يعودوا يأبهون بظافة اللحم الذي يجدونه أو قدرته،
ولا كيف جيء به، سواء أكان مشترى أم مشروقا، ذلك لأن المعدة
الخاوية تصرخ عاليا في طلب أي نوع من الطعام يسد جوعها.

كذلك فارق النبلاء وقارهم، ولم يتردد الأحرار في عرض
أنفسهم على مؤائدي من لا يعرفونهم، من غير دغوة تكون قد وجهت
اليهم، وتلفوا على الصدقة يهود غيرهم بها عليهم، ولم يكفروا
عن الإلحاح في استجدائها من أيدي غريباء لا يعرفونهم، وكان هذا
الفعل أمرا مرفوضا عندهم من قبل.

كما تخلت العقائل عما كن عليه من المشمة التي كن قد طبعن
عليها، أما العذارى فمعدن يابهن، بالهجل الذي كان يسيمة لهن،
وتشبهن أنوثتهن، وطلعن بوجوه عليها غبرة، وأصوات حزينة
تحرك أقبى القلوب، وورحن بلبسهن الطعام أنى وجدته لا يودعن
خوفهن أن يراهن أحد.

لكن كان هناك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التخلي عن
وقارهم، فانكفؤوا بوجوه حامدة إلى جهات قاصية، يمشهم الأسى.

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على المشى بين الناس يسألونهم لقمة تقيم
أودهم .

أما الرجال الذين كانوا من قبل أشداء العزم . أصحاب البنية ،
ذوي بأس شديد ، والذين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم
أنصاف موتى ، يتوكأون في ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم
في الشوارع والميادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرخوا بكلمة
إلا أن وجوههم المكتئبة كانت تفصح عن أنهم يلتمسون إحسانا وجود
به عليهم العابرون .

كما أن الأطفال الباكين ، والرضع على أئداء أمهاتهم كنت تراهم
في كل مكان وفي مفرق الطرق ، يلتمسون اللقمة تسد رمقهم ورمق
من جاءوا بهم إلى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على القدر اليسير
من الطعام لأنفسهم ولا نقول لامهاتهم .

وفي خضم هذا الزخام الكبير قل أن وجده أحد عنده من
الطعام بما يتمكن أن يكفيه هو وحده ، إذ نضبت في الواقع جميع
الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يستجدي الآخرين ، وإذا شاءت الصدفة
أن يكون هناك قرة كان قد بلغ من الثراء مبلغا كبيرا وبقي عنده
من هذا المال الخاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه قليلا ،
إذ لم يعد يكفيه لشراء ضرورات الحياة التي لم تعد متوفرة .

كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسخى الناس بدأ
وأكرمهم ضيافة ، أصبحوا الآن يلتمسون الأمان النائية التي قل
أن يغشاهما أحد فيلتقطون منها ما يقيمون به أودهم ، ويتكالبون في
نهم على الطعام - أيا كان هذا الطعام - الذي اهتموا بالحصول
عليه من مصادر مختلفة ، ثم يأبون أن يكون لهم فيه شريك .

أترى من الضروري أن أقول أكثر من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمر والحيل والبغال وغيرها من الحيوانات
الدنيا وكأنها أشهى ما تكون ان وجدوها ، وانه لمن المؤسى ان نقول
انهم كانوا ينبشون الأرض ويخرجون منها جيف الحيوانات المخلوقة
أو التي ماتت بالطاعون ويقبلون على التهامها .

هكذا كانت أنواع الاطعمة التي راحوا يدرءون بها عن أنفسهم
غائلة الجوع الممض ويطيلون حياتهم التعسه قدر طاقتهم .

لم تصب هذه الكثرة الرهيبة - وأعنى بها المجاعة - العامة
وصغار الناس وخدمهم فحصب ، بل جاوزتهم أهوالها لمست كبار
الزعماء الذين عدوها خطيئة لا يمكنهم احتمالها ، اذ كانوا أكثر من
سواهم اعالة للكثيرين من الناس ، ولا يستطيعون أن يكفوا رءسهم
عن جاءهم يلتمسه منهم .

وان أنباء هذه الحقبة من الزمن لا تزال محفورة في أذهان
الشيوخ والكهول وتحتاج الى مؤلف خاص يروي ما جرى لكل واحد
من هؤلاء الزعماء ، ويتضمن أخبار الغمة والصعاب التي عمل فيها
هؤلاء القادة الانقياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول
ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيشا كبيرا كهذا الجيش ، انما
تحمّلوا ذلك كله بضارين غير متدمرين .



كان من جرأه ما أبداه كروثوما وشعبة من حماسه قوية ان
أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يستطع الصليبيون
المحصرون داخل أسوارها مقاديرتها ، كما أعجزت من كان خارجها

عن دخولها والوصول اليهم ، أضنف الى ذلك أن الاشتباكات
الموضولة - داخلها وخارجها - قد أنهكت قوى الصليبيين أنها كما فاق
كل احتمال ، هذا الى جانب أن المصائب النجدة التي نزلت بشعبنا ،
وما ابتلى به من شدة المجاعة قد حملت كلها على فل عزيمة ، فأظهر
إلتراخى فى حراسته .

أما الذين لم يعد يشغل بالهم سوى البحث عن كسرة الخبز
يمسكون بها رمقهم فقد كانوا أكثر تهاونا بالنسبة للأمور الأخرى ،
مما نتج عنه نيجاج العيون فى دخول المدينة فى أحد الأيام ، وذلك
بسبب عدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذى اقتحم منه
الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا فى امتلاك هذا البرج ، مغتتمين
تكون الليل - فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا فى النزول بعدئذ
الى المدينة كما فعلنا نحن قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكنت كل
ثامة فى الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وتسلقوا السلم واعتلوا
الضور - مستهدفين الأسشيلة على البرج الذى وجذوه خاليا من كل
مدافع عنه ، وبينما كانوا منهمكين فى عملهم هذا اذا برئيس العسس
يصل الى المكان الذى كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اذ
ذاك بما اعتاده من المرور حول السور ، فاكتشف المؤامرة ، فأخذ
يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى
بالخديعة على البرج ، فابقظ صياحه جميع الحراس فى تلك الناحية
من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه
الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، همبا « فرانكو » وزيجمار ،
وكانا من ذوى قرباء ومن أهل البلدة المسماة « بالين » الواقعة على نهر
« الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشوة قد استغوت البغض
فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك هب لمساعدته جماعات من الابراج المجاورة ، فهاجم بهم العدو فتو عنت كدأيه النشط ، فأبدى الترك مقاومة شديدة ، لكن هنرى دى ما ثبت الا قليلا حتى نجح فى طردهم من البرج ، وقتل منهم أربعة أنفس ، أما البقية - وكانوا ستة وعشرين رجلا - فقد ألقى بهم من الاسوار ، فسبقوا على أم رأسهم ، قدقت عظامهم ، وتناثروا أشلاء ممزقة .

وكان هؤلاء الرجال الثلاثون الذين صنعوا البرج قد عزموا على إدخال بقية رفاقهم .

ولقد نكب الزعيم البطل [هنرى دىش] فى هذا الصدام بفقد صديقه « أزيجمار » الذى اخترطه السيوف فهلك ، كما أصيب « فرآنكو » بجرح قاتل حمولة معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

- ٩ -

تزايدت الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، وتزايدت معها مضايقة المحصورين ، كما ضاعفت المجاعة آلام الصليبيين ، فضعفوا من هذه الأمور العسيرة والاهوال التى تنزل بهم كل يوم ، فداخلهم اليأس حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامتهم ، فانسلوا من المدينة لا يعلم بهم أحد ، وثم يكتننوا بها ، كان يكتنفهم من آلاف الأخطار ، فراحوا يشقون طريقهم وسط صفوف العدو كى يتيسر لهم الوصول الى الشنطاطى حيث كانت ترسو هناك بعض السفن اليونانية واللاتينية ، وكانوا ييغزون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المدينة ، غير أن العلم فى النجاة من هذه الأخطار الجسيمة حمل بعضهم على

ارحيل . عافدين العزم على الا يرجعوا ابدا ، ولم يتوقعوا ان قد
ربما يحسن موقف من حلفوهم ورائهم ، أو أن تتاح لهم فرصة
النجاة من سيوف العدو .

فى هذه الاثناء تكشف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون
خلسة تحت جناح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك قسرب
المدينة سعيا وراء الطعام ، فبعثوا فى الحال بعضا من رجالهم العارفين
بدروب تلك النواحي وشعابها لينصبوا الكمائن لهؤلاء الناس
ويقتلوهم كما قتلوا اخوة لهم من قبل ، فحالف النجاح الترك فى
كثير من هذه المحاولات محالفة جراتهم أخيرا على ارسال ألفين من
فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامساك البحارة والتجار وحرق
السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من التجارة
واذ ذاك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع المثونه ويفقدون كل
امل فى السلامة .

وصبح ما توقعه الترك ، اذ نفذ فرسانهم الأوامر الصادرة اليهم
تنفيذا دقيقا ، فأضرموا النار فى بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من
ملاحبها الذين خرجوا من غير حراسة ، ففتكوا بالجانب الأكبر منهم ،
مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر النكبة وشاع نبؤها وتجاوز هذه الناحية الى
ما وراءها تلبلت خواطر التجار الذين كانوا يحضرون الى هنا فى
رحلات تجارية من قبرص ورودس وغيرها من الجزر ، كذلك من
سلوقية وايسوريا وبامفيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم
الفرع من هذه الأحوال السائدة حتى أنهم خافوا أن يعودوا الى هنا
أو يجلبوا سلعهم ، ولم يجرؤوا على الاقتراب من تلك الناحية ،
وترتب على ذلك أن الم الشلل الكامل بالتجارة وتوقف الاستبضاع ،
وتدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذى قبل ،

وعلى الرغم من ضآلة كمية السلع التى أحضرها التجار ضآلة لا تكفى
أبدا لسد احتياجات الناس العديدين ، إلا أن بقاء الاتصال البحرى.
موصولا أعطى بصيصا من الانقاذ للصليبيين .

ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفة
من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف إلا شردمة قليلين غاية القلة
تمكنوا من التسلل عبر الغابات ، والأدغال ، ولجأوا الى الكهوف.
فاستخفوا بها .

ولقد أدى خبر هذه الطامة الكبرى والمصيبة الفادحة الى حزن
قومنا حزنا لا يقل عما أنزلته بهم المجاعة القاسية ، وتجدد بهمهم اذ
طرق سمعهم خبر النكبة التى حلت برفاقهم وما يتعرض له أصحابهم
كل يوم من هلاك ، فتسرب لنفوسهم اليأس حتى من الحياة ذاتها
ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وقل احتياطهم على أنفسهم ،
وتضاءلت طاعتهم لزعمائهم .

- ١٠ -

فى هذه الأثناء وصل الى الإسكندرونة « وليم دى جرانده ميزنيل »
ومن فروا معه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شارترز وبلوا الذى كان
القادة وكل الناس يرجون عودته بين يوم وآخر ، لكنه كان مقيما
هناك متذرعا بالمرض ، فأخبره ذلك الرهط بكل ما جرى بأنطاكية ،
وخملتهم الرغبة فى الا يظهرُوا أنهم فارقوا رفاقهم جينا بسبب تافه
غير ذى موضوع ، فأنهم راحوا يبالغون فى وصف الأهوال والشقاء

المنتشرين هناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يفوق الوصف ، غير أنهم بالغوا أشد المبالغة فأظهروه بصورة أشد اسودادا وقتامة وزادوا في ذكر الظروف السيئة السائدة ، ولم يكن «ستيفن» في حاجة الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يضاعف جبنه ، لانه لم يهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لنفس هذه الأسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان قلبوا الأمر فيما بينهم على شتى وجوهه ركبوا السفن التى كانت فى الميناء معدة لهم ، وظلوا مبحرين حتى أرسوا أخيرا بعد رحلة استغرقت بضعة أيام عند إحدى المدن الساحلية ، حيث راجوا يتقصون أين يكون الامبراطور وما ينوى أن يفعله ، وتلقوا عديدا من الأخبار عن ذلك الأمر - يختلف بعضها عن بعض فى المضمون المضمون والصدق مفادها أنه شد الرجال إلى أنطاكية على رأس طائفة كبيرة من العسكر اللاتين والاغريق لمد يد المعونة إلى الصليبيين وفاء منه باتفاقه معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه فى « فيلو مينيوم » .

وكان قد انضم الى الامبراطور ما يقرب من أربعين ألف من اللاتين ، زيادة عن الجيوش التى جمعها من شتى الشعوب وكان رأيهم أن ي خلفهم وراءه فى بلاده مع الكتائب التى عنده ، وما كان تركه اياهم الا لفقرهم المدفع أو لتفشى المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذاك من الأسباب القوية ، اما الآن فقد زال عنهم ما يشكونه من وصب ، واشتدت عزائمهم بحضور الاميراطور وحشوده الكثيفة ، واستردوا ثقتهم فى الزحف ، وأصبحوا يتلهفون قلبا وروحاً على الانضمام الى رفاقهم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين فى صحبته بأن الامبراطور مرابط فى تلك الناحية فى انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

بمعمل «استعدادات» إضافية للزحف ، أقول انه حين علم بذلك ، بأثر
 فحسنتك أقصر الطرق المؤدية الى الجيش الامبراطوري ، فلما وصل
 الى هناك قوبل بأعظم آيات الترحيب الممزوجة بالدهشة البالغنة ،
 وكان الامبراطور قد عقد أواصر الصداقة منذ بداية الحملة مع المستيقن
 حين جاء مع بقية الزعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر
 منه استفساراً دقيقاً عن احوال القادة الآخرين وسلامتهم وأوضاعهم ،
 وعملاً دعاهم لتركهم وراءه ، أجابه مستيقن بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذي يسير الظفر في ركابه أنني سبّار :
 أن رعاياك المخلصين الذين أذنت لهم بالمرور عبر امبراطوريتك منذ
 أمد قصير ، وشملتهم بفيض جودك ، قد استولوا - أول ما استولوا -
 على نيقية ، ثم وضلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكية فحاصروها
 تسعة أشهر سؤياً ، حصاراً لم يرفعوه عنها حتى أخذوها عنوة بتوفيق
 من الرب ، ولم يعز عليهم سوى قلعتها التي كان اقتحامها ضرباً من
 المحال ، فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق ، وبفضل
 أبراجها المشرفة على المدينة التي تبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الظن
 عند شعبنا أن قد انتهى الحصار ، وأنهم تخلصوا من كل خطر بعد
 استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد تردوا الآن في خطر أبلس
 هولا من سابقه ، وأنهم وقعوا في صعوبة تفوق كل صعوبة واجهوها
 من قبل » .

« ذلك انه لم تكد تنقضي غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حتى
 جاء قائم فارسى شديد المراس اسمه « كربوشا » على رأس جحافل من

النسرق يجاوز عددها كل تقدير ، فأحرق بالمدينة من كل جانب ، ولم يدع مدخلا من مداخلها أو مخرجا من مخرجها الا سده ، وحاقت المهن بالقادة والعامة على السواء بصورة أياستهم من كل شيء حتى من حياتهم .

« وقل أن يتمكن العقل من تصور ما عليه هذا الجنس المحاصر من كسرة هائلة في العدد ، وموجز القول ان عامة عسكريهم غطوا كل ما حول المدينة ، وانتشروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رجالنا فكان أمرهم على النقيض من ذلك ، اذ أخذوا يتناقصون تناقصا مفرعا بسبب الجوع الذي نزل بهم ، ومن جراء البرد والحر اللذين قاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت ، حتى أن كل ما تبقى بعد ذلك من الجيش في أنطاكية لم يبلغ كافيها للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعونة التي كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب القادمة من الجزر والمدن الساحلية قد انقطع ورودها نهائيا - كما تعلمون - بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلم يدعوا شبرا من الأرض بين أنطاكية والبحر الا احتلوه ، كما دهمروا الاسطول تدميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف في البحارة والتجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل في شراء الطعام .

« ولقد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن في أنطاكية لا يكفي الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف متاعبهم خلو المدينة من مكان أمين يلجأون اليه لكثرة تسلل الترك الى المدينة عبر القلعة التي تشرف عليها ، فينسون هجماتهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والبيادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليهم بها العدو من الخارج .

« لذلك فأننى ومن معى الآن من القادة وسراة القوم - قد
أيقننا تمام اليقين أن ما يقوم به اخواننا إنما هو جهد ضائع ، وطالما
سندسنا اليهم بدلت الامر وأنسدينا النصيح الأخوى للعمل على ما فيه
سلامتهم ، وأن لايتشبثوا بأمر يستحيل تحقيقه ، لاسيما وقد تخلت
عنهم العناية الربانية ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن زحزحتهم عن
هدفهم رحنا نلتمس الوسيلة لما فيه نجاتنا حتى لا يؤدى بنا الطيش
الى القاء أنفسنا بأيدينا الى التهلكة ، فنفعل مثلما فعلوا .

« والآن فلعل جلالتكم ترون - انتم ومن حولكم من النبلاء
المبجلين - أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعتزتموه من
الزحف الى البطاكية ، حتى لا تحقيق نفس الاخطار بمن تقودونهم من
عسكركم المظفر ... وإن العقل ليناشدكم أن تعودوا من حيث جئتم
دون أن تلتحم قواتكم بالقوات الكثيفة التى بعث بها الشرق ، وذلك
أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رؤية لتجريب قوتكم مع هذه
الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت النتيجة غير مؤكدة
تماما .

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموجودين الآن بحضرتكم قد نالهم
نفس هذا النصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول ،
كما يعرف ذلك أيضا « تاتيكبوس » الألمى الحصيف الذى أرسلته
بجلالتكم معنا ، لأنه رأى بعينى رأسه مدى ضعف رجالنا ، فسار
على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لقادر أن يجلى الموقف
أمام جلالتكم » .



وكان فى جيش الامبراطور أخ للورد بوهيموند من أبيه -
اسمه «جيدو» ، فلما سمع ما قاله « ستيفن كونت شارترز » جن
جنونه ، واستخرط فى البكاء حزنا على مصير أخيه ورفاقه ، ورغب

فى بادىء الأمر أن يعارض رواية الكونت ، وربما بالجبن ، لثهوره فى
الانسحاب من صفوف هؤلاء الزعماء الإجلال ، ولكن أحدهم واسمه
وليم دى جراند سينزل - وكان شريف المولد لا الخلق - وهو صهر
يوهيموند تمكن من اسكات « جيدو » .

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات ، استدعى اليه جميع
نبلائه للتشاور فيما اذا كان يجب عليه الترحف الى انطاكية ، أو
التوقف والرجوع الى مملكته ، وبعد أن قلبوا الأمر على شتى وجوهه
انتهوا الى أن الحكمة تقتضى العودة بالجيش سالما ، بدلا من إثارة
ممالك الشرق كله والتعرض لتقلبات الحرب .

★★★

لقد وثق الامبراطور كل الثقة بكلمات ستيفن ، فاعتقد أن
كل شئ سيجرى كما قال اعتقادا جعل الخوف يملك قلبه من كربوغا
الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخشى الكسسيوس من قيام كربوغا
بمهاجمة الامبراطورية بما تحت يده من الجيوش الكثيفة التى آكدت
الأخبار أنه يقودها فى زحفه ، واذ ذاك تضيع من يد الامبراطور مرة
ثانية نيقية وجميع بيثينيا التى استردتها جهود القادة الصليبيين
النشيطة ، ورأى - تجنباً منه لهذا الخطر - أن يأمر بحرق
ونهب جميع الأراضى الواقعة على طول خط ارتداده ، سواء
ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءاً من قونية وانتهاء بنيقية ،
وكان يطمح أن تقف هذه الأراضى بعد تخريبها - وقد هجرها أهلها

ونضبت موارد العيش فيها - عائقا في طريق الأعداء ان حملتهم
الظروف على التفكير في توجيه قواتهم ضد مملكته .



ولقد أدى مسلك ستيغن هذا الى حرمان الصليبيين من
المساعدة التي كانوا في ميسس الحاجة اليها ، والتي كان
الإمبراطور يتأهب لامدادهم بها وفاء بعهد معهم .

واذا تمعن المرء تمعنا دقيقا في كلمة الكونت هذه وفي حقائقها
الجوهرية ، تبين له أنها عمل لا يمكن غفرانه أبدا ، وأنه صادر عن
نزعة شريرة ياباها الشرف .

غير ان رعاية الله القادر - ولا قادر سواه - والحكيم ولا حكيم
غيره - أقضت ألا أن تجنى أحسن الثمار من أكثر الأمور شرا ،
وأفضت الى ما فيه مجد شعب الله وقادته ، وفاء بحق أولئك الذين
تحملوا حمارة القيظ ، وتركوا نساءهم وأطفالهم ، كي يخاربوا
كخجاج للسيد ، رجاء أن تكلل جهودهم بالمجد الدائم مما كان لابد
أن يجرموا منه حرمانا تاما لو كان الإمبراطور حاضرا ، إذ أن وجوده
هو وجنده حينذاك في هذا الموضع كان لابد أن يؤدي - بلا مشاحة -
الى أن يصدر أمره برفع الحصار بناء على سلطانه الأعلى وقواته
الضخمة ، ويكون له الشرف كل الشرف له وحده دون غيره .

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السيد نفسه هو الذي جاء
بهذا الشرف ، وجاد به على من أخلصوا النية في العمل وأدوه بأمانة
وصمدوا تحت الظروف القاسية التي لا يحصيها العد ، حتى يجنوا
ثمارا ثمينهم ، وتنبه لهم راية النصر .

انطلقت الألسن في هذه الأثناء بشائعة عمت أرجاء المدينة ،
نقول برجوع الامبراطور الى بلاده ، فضاغف هذا النبا من فظاعة
الاهوال التي يعانيها الصليبيون ، وملا قلوبهم بأسسا وتقزرت
نفوسهم اشمئزا من مجرد ذكرهم كونت سستيفن ، ووصموه
بالفجور الأبدى . كما راحوا يلعنون وليم دى جراندينزل
وكافة من شاركوا في هذه الحياثة الملعونة ، وراحوا يبتهلون الى
الرب أن يزج في النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من
هذه الأهوال الطامة ، والذين خدعوا شعب الرب فحرموه من
المساعدة الكبرى التي كان الله قد أعدها لهم .



ولما علم كربوغا وكبار قواده - عن طريق جواسيسهم - أن
الامبراطور زاحف عليهم اشتد اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق
لهم أن يفزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين في امبراطوريته ،
فلما جاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانية بخبر تراجع
الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وتعنتا
وخيل اليه أنه قد ضمن النصر وحازه ، فبالغ في التضيق على
رجالنا مبالغة شرسة ، واشتد في الاحداق بهم مما ترتب عليه أن
اكتنفت التعاسة كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل
أمل لهم في النجاة ، كما فقدوا الرجاء في أن تصلهم أي نجدة من
أي جهة كانت ، ولف اليأس المطلق الناس اجمعين ، وراح الشعور به
يزداد يوما بعد يوم .

وألقيت المسئولية العامة لكل الجيش على عاتق بوهموند ،
الذي نبين له - وهو يدور حول المدينة - أنه يستحيل عليه باللبن

أو الشدة - أن يحمل ولو فردا واحدا من الناس على الخروج من حيث يختبئ ، ولم يعد يوجد ثم رجل واحد يقوم بالحراسة أو يقاتل العدو داخل البلد أو خارجه ، على الرغم من أن الجميع كانوا يضجون نعت الأهلوال التي أنزلها بهم الأعداء .

ثم جاء يوم عاد فيه المنادون والعمال منهوكى القوى من محاولاتهم هذه الفاشلة فى استدعاء الناس ، فلما شاهد بوهيموند ذلك المنظر أيقن الأعدوى من بذل محاولات جديدة لارغامهم على الخروج من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونه بأضرام النار فى أماكن متعددة من المدينة ، عسى أن تخيف النيران هؤلاء الذين غلظت قلوبهم ورقت صت الإمتثال للأرادة الربانية ، فتحملهم على البروز إلى العراء ، ونجحت مناورته هذه وآتت أكابها ، فبعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظة عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمة العامة ، إذا بهم يقبلون زراقات بقلوب ملؤها الحماس الشديد يتدافعون لأدائها .

ويقال أيضا ان اليأس من الحياة دفع بعضا من وجوه الرجال الى عقد اجتماع خاص ، قرروا فيه أن يفتنموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسة الى الشاطئ ، تاركين وراءهم الشعب وجيش الحجاج بأكمله ، غير أن خبر تدبيرهم هذا بلغ سمع الدوق وأسقف بوى الموقر فاستدعيا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرقا فى تأنيبهم التأنيب المر ، وذكراهم أن وصمة العار الأبدية ستطبعهم هم وذرايرهم بميسمها ، ان هم خرجوا على ما يفرضه عليهم شرفهم وكريم أصولهم ، أو اذا انسحبوا من هذا الحشد الكبير من المؤمنين بالمسيح .



فى وسط هذه الضائقة كان هناك نقص يئس فى الطعام بين شعب الله بسبب أهوال المجاعة المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم في نجدة تأتيهم من أية ناحية ، وعمت البلوى صغيرهم وكبيرهم على السنواء ، وعجز كل واحد عن مساعدة الآخر .

« وكانوا إذا تذكروا نساءهم وفكروا في صغارهم الذين خلفوهم ، فبقوا ببلادهم ، وأملأهم الشاسعة التي ورثوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حيا في المسيح ، أسلموهم أنفسهم للشكوى من عدم مجازاة الرب . إياهم ، لأنه لم ينظر بعين الشفقة إلى المشاق التي تحملوها ، ولا إلى صدق إخلاصهم ، بل ابتلاهم بدلا من ذلك بالبلايا كما لو كانوا بشعبا غريبا عنه فأسلمهم إلى أيدي الأعداء . »

- ١٤ -

بينما كان شعب الرب يقاسى البلاء على هذه الصورة ، إذا بالسيد يتغطف عليهم ويستمع إلى أنينهم ويرسل السلولى من كرسيه الببماوى ، فيقال أن قسيسا اسمه [بارتلميو] من المقاطعة المعروفة باسم « بروفنس » جاء إلى أسقف بوى وكونت تولوز زاعما ، لهجا أن الجوارى المبارك أندروز كان قد ظهر له في المنام ثلاث أو أربع مرات متتالية وأمره أن يبادر ما وسيعه البدار إلى أخبار القادة أن الحرب التي طعن بها سيدنا عيسى المسيح في جنبه مدفونة في كنيسة أمير الحوارين ، وعليهم أن ينشطوا كل النشاط في التفتيش عنها في البقعة التي بينها له الجوارى بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس إلى خادمي الرب هذين المحبوسين ، وقصل

لهما الأمر الذي أقسم أنه حُملهُ . وبين أن الرسول [أندروز] أرغمه على ذلك مهددا إياه بكثير من المتاعب ، بيد أنه رفض أكثر من مرة أداء هذه الرسالة ، لأنه لا يزيد عن أن يكون رجلا فقيرا بجاهلا ، غير أنه لم يستطع في النهاية أن يتجنب تنفيذ أمر الرسول العاجل أكثر من هذا ، حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وتوسلوا بالسرية التامة في نقل هذا الخبر إلى القادة الآخرين ، الذين جئهم إمامهم بطرس [بارتلميوس] ليسمعوا منه حقيقة الأمر وصورته فصدقوا روايته ، ثم اجتمعوا في المكان الذي سبماهم لهم في أرياض الكنيسة المشار إليها آنفا ، وحفروا الأرض ههناك إلى عمق معين ، فوجدوا الحرية كما قال بطرس [بارتلميوس] تماما .

ولما سمع الناس هذا النبا اندفعوا إلى الكنيسة كأئهم رجل واحد ، لأنهم شعروا أن السماء أرسلت لهم العزاء ، وانهاالت الهدايا والمنح تمجيذا لاكتشاف هذه النعمة الغالية ، وخرجوا عنهم لما كان بهم من الفزع ، وتنفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم بأسمهم من جديد لتنفيذ الأوامر المباركة ، وكان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين أشباح الملائكة والرسول الطوبانيين ، وكان ادعائهم هذا تعزيزا لتقوية إيمانهم بحلم بطرس فارتفعت نفسية الناس القانطة الحائرة ارتفاعا عجيبا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لاقتراح الرجال الموقرين الذين يخشون الرب وجددوا إيمانهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد بأن يخلص كل منهم النية للآخر ، وتعاهدوا - لئن تداركتهم رحمة الرب بما هم فيه الآن من وضع خرج ، ومنحتهم النصر الذي يرجونه فظهروا على عدوهم - ألا يفارق بعضهم بعضا ، حتى يستعيدوا بعون الله المدينة المقدسة والقبر المقدس ، ويرودهما للإيمان المسيحي وحرتهما القديمة .

ظل الناس يقاسون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما متتالية اطمأنت بعدها قلوبهم بعسند طول وجيب ، وراحوا يشمرون عن سواعدهم في شجاعة لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، واتفق الجميع صغيرهم وكبيرهم على أن لا بد لكل هذه المشاق من نهاية ، وأنه لا بد لهم من يوم قريب جدا يقاتلون فيه الخصم ويستطيعون صد أعدائهم الذين يعتدون كثيرا بقوتهم الكبيرة ، فتنحدر يومذاك المدينة التي وهبها الله لهم ، ومن ثم رأوا الخير في القيام بمحاولة خوض الحرب مرة أخرى ، بدلا من أن يتركوا أنفسهم نهب الضياع يوما بعد يوم ، وهم في غمرة المجاعة التي استمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا القتال بدلا من أن يتركوا أنفسهم لليأس ينسوه عليهم بكليلة الذي لا نهاية له فيمضهم ارهاقا .

كانت هذه هي أحاسيس الجميع الذين لم يعد ثم مفر أمامهم من الخروج من المدينة لمقاتلة العدو ، ولم تقتصر هذه الرغبة على النبلاء وحدهم ، بل كانت تلتهب في نفوس العامة أيضا التهابا حملهم على اتهام قادتهم بالتراخي ، وكرهوا كل تريث من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسة الناس إنما هي أمر علوي ، فاجتمعوا للتشاور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفادة الى القائد العام للعسكر العدو تقترح عليه الأخذ بواحد من اثنين :

أما أن يزحل ويترك المدينة للصليبيين لتكون ملكا لهم الى الأبد ، وهي المدينة التي عادت الآن اليهم بإرادة الرب ، وأما أن يستعد للقتل ، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين .

واختير لهذه البعثة الرجل الطاهر الذيل ، الذي ورد الكثير

عنه في الصفحات السابقة ، وأعنى به بطرس الناسك ، وأشركوا معه رفيقه العاقل الفطن « هيرلوين » (١) الذي كان ملما ببعض الامام باللغة الفارسية ومتمكننا من لسان البارثيين ، وعهد انقوم الى هذين الرجلين بتسليم العدو الاقتراح الذي ذكرناه ، على انهم اضافوا الى ذلك شرطا آخر هو انه اذا آثر الأمير الحرب فله ان يختار : اما المبارزة الفردية مع أحد الزعماء الصليبيين ، أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا ، فيبارز بعضهم بعضا ، واما أن يلتقى الجيشان وجها لوجه في معركة عامة .

وتهادن الطرفان هدنة أمان لارسال الوفادة ، فانطلق الرجلان اللذان أشرنا اليهما الى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذي خصص مهما ، فوجدوا كربوغا محاطا بكبار رجاله ونوابه .

وعلى الرغم من أن بطرس الناسك كان رجلا قميئا الا أنه كان يتمتع بروح عالية ، فأدى المهمة التي وكلت اليه في صدق وحماسة ، واستطاع بسلوكه الرصين وبما طبع عليه من جرأة لا تعرف الخوف ، أن يقترب من البساط الفارسي دون أن يبدى أى خضوع ، وسلم الانذار قائلا :

« لقد أرسلني مجمع الزعماء المقدس أحباب الله الموجودين في أنطاكية ، ينهون الى سموكم أن تكف عن مضايقتهم ، وترفع الحصار عن المدينة التي أعادتها الرحمة الالهية الى أيديهم ، والتي طهرها

(١) يستفاد من هذا أن « هيرلوين » بهذا كان يعرف اللسانين الغربي والفارسي الى جانب لغة ذلك العصر وهي اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كثيرون اصطنعهم الصليبيون ممن يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وان كان عددهم ضئيلا ، أو كانوا معذودين دون الصليبيين مكانة لانهم لم يكونوا محاربين ولكن أرغمنهم الاوضاع أن يكونوا في صفوف المقاتلين . انظر الترجمة الانجليزية ، ص ٢٨٢ .
حاشية رقم ٨ والمراجع الواردة بها .

من الوثنية بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايماننا ، والذي
اهتدت أنطاكية بهديه الى دين المسيح ، وصارت حقا لنا بفضل
قوة معجزاته وكنماته الكريمة المنطوية على النصيح والارشاد ، ثم
قدز لها أن تغتصب منا عدوانا وظلما ، فأعادها الينا السيد القوي
ذو البأس الشديد .

« وعلى ذلك فان القادة الصليبيين يعرضون عليك بما يتفق
واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آبائنا خدام المسيح
المخلصين أن تخنار واحدا من عدة اقتراحات نضعها أمامك ، وهي
أن ترفع الحصار وتنسحب وتكف عن مضايقة الصليبيين ، فان لم
تفعل أندرناك بحرب بعد ثلاثة أيام يكون الحكم فيها للسيف بينكم
وبيننا ، وزيادة على ذلك فان أردت تجنب الصدام بتقديم عذر
مقبول فانهم يخبرونك بين عدة أمور تختار منها واحدا ، وهي اما أن
تلتقى بنفسك وجها لوجه مع واحد من قوادنا في مبارزة لا يكون
فيها يسواكما ، فان تغلبت فيها عليه ملكت كل شيء ، وان هزمك
رحلت وتركتنا آمنين ، واما الاقتراح الثاني فهو أن يخرج بضعة
من فرسانك يقاتلون بضعة من فرساننا يماثلونهم عددا تحت نفس
الشروط والا تقاتل الجيشان بأجمعهما من الجانبين في معركة تقرر
المصير » .



لكن الأمير [كرينوغا] إزدري هذه العروض المقدمة اليه ،
وقيل انه قال : « ما أظن يا بطرسى العزيز أن وضع زعمائك الذين
أرسلوك الى يسمح لهم باقتراح اختيارات يعرضونها عليّ ، أو أن
يفرضوا عليّ اختيارا معيننا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بشالتنا
أجبرتهم على أن يكونوا في حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

تفرص عليهم اما ان يغادروا البلاد ، واما ان يتخلوا عن رغباتهم بما
يتفق وهو انا .

« فاذهب الآن الى هؤلاء القادة الأغبياء الذين أوفدوك ، - وقد
غم عليهم الآن الوضع الذى هم فيه - وقل لهم اننى سوف أستبقى
عندى منهم كل من هم فى زهرة الشباب من الجنسين ليكونوا فى
خدمة مولاي [السلطان] ، اما من سواهم فسوف أجعلهم نهب
السيوف كأوراق الشجر المتساقطة حتى لا يتبقى منهم من يذكر
بهم ، ولولا انى آثرت أن أتركهم يلاقون الموت بالجوع القاسى بدلا
من قتلهم بالسيف لدكت الأسوار عليهم منذ زمن بعيد ،
ولاستوليت على المدينة عنوة ، فيجنون ثمرة مسلكهم تحت ضربات
السيف المنتقم » .

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس عقلية الأمير كربوغا الذى أرسلوه اليه ،
وأدرك مدى سلوكه المتغطرس الناجم عن اعتداده بما لديه من ثروات
لا تماثلها أية ثروات أخرى ، وكيف غرته كثرة جنده ، أقول بعد أن
عرف بطرس ذلك كله استأذنه فى الانصراف وعاد الى جماعته ،
فلما بلغ المدينة أراد أن يفضى الى الزعماء الذين بعثوه بالرد الذى
حملة اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكبار والشعب يتلهفون على
سماع فحوى الرد ونتيجة السفارة .

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حضرة الناس جميعا
تقريراً مفصلاً بكل ما جرى خلال اجتماعه بكربوغا ، وعن مسلك
هذا الأمير المتغطرس ، كما قرر أن يشير الى تهديداته وكبريائه

وغروره ، لكن جودفروى العظيم خاف أثر ذلك على العامة ان هم
المثوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وقد أنهكتها الشدائد
المستمرة ، وضعضع نفسيته تراكم الأهوال عليها ؛ قد يستبد بها
الفرع الشديد فتتكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى]
فأطفا حماسة بطرس ومنعه من الاسترسال وسرد كل ما عنده ،
وجذبه بعيدا عن الناس الذين تراحموا عليه لسماع ما يقول ،
واقترح عليه ألا يفصل كل ما حدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز
رد كربوغا ألا وهو تصميم العدو على القتال ، وأنه ينبغى على
الصليبيين أن يصرفوا كل اهتمامهم للاستعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب
القتال ، فاجتاحت الجميع صغيرهم وكبيرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة
للحرب ، واغتبطوا أشد الغبطة اذ تلقوا هذا الخبر ، وكانت علة
فرحتهم هى ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيل للناظر اليهم أنهم
نسوا تماما ما كانوا فيه من الصراع ضد الأهوال التى كانوا
يكابدونها ، وأقصحت وجوههم جميعا على اتفاق كلمتهم بأن يكونوا
قلبا واحدا وفكرا واحدا ، فنودى فيهم أن المعركة واقعة غدا ،
فعدوا بجوانح قد ملأتها الفرحة حتى لقد انقضى الليل دون أن
تغمض لهم عين ، شوقا للمعركة ، وجهزوا أسلحتهم ، وأعدوا
جيادهم ، وراحوا ينظفون صدرياتهم الحديدية ومغافرهم ، وهياؤا
دروعهم ، وشحذوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنسوم
أو الركون الى الراحة ، ونادى المنادى بين الجميع أن يخرج كل ذى
سلاح وقادر على القتال عند تباشير الفجر وقبل شروق الشمس
وينضم الى كتيبته ويقف خلف راية قائده المعين له ، فلما بزغ فجر
اليوم التالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينية فى كل
الكنائس ، وقدموا القرايين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس
ملوئها بالتواضع والمذلة كالعادة وحضوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

ضد رذائل الدنيا بتناول القربان الذى هو دم المسيح ولحمه ، فلما غفروا لهم خطاياهم وبغضوها الى نفوسهم وفاضت القلوب بمزيد من الحب الصادق ، مضى القوم الى القتال وهم أكثر ثقة من قبل كتلاميذ واتباع القائل (١) : « أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا . كما أحببكم أنا تحبون أنتم أيضا بعضكم بعضا ، بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعد أن تلقى جميع الكتائب الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء القلوب ، انهالت عليهم النعمة من السماء انهيا لا عجيبا .

كما أن أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كأن قد فارقتهم الحياة ، وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شىء حتى عن تحريك جفونهم أو رؤوسهم ، وناخت عليهم الفاقة بكلكها ، وأمضهم الجوع ، حتى راحوا يلتمسون الأماكن الخفية غير عابئين بمكانتهم التى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من تلقاء أنفسهم للعيان ، وتخلصوا من كل خوف وامتشقوا أسلحتهم فى بطولته كما لو كانت القوة دبّت فى أوصالهم من جديد . واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ، وقلّ أن وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهين نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنبا الجميع بانتصار الصليبيين .

وراح القسس يطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصليبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدى القوم بغيران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استبسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقيدة المسيحية التى

(١) يوحنا ، ١٣ : ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأساقفة بازجاء النصيح لأمراء الجيش وقواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسعفتهم البلاغة التي أغدقتها عليهم السماء ، ومنحوا الناس بركاتهم ، واستودعوهم في رعاية الله ، وكان في مقدمة هؤلاء الأساقفة خادم المسيح الطوباني أسقف بوى الذى دأب على اسداء النصيح والمداومة على الصوم وملازمة الصلاة ، وبز الجميع كرما في اخراج الصدقات ، وكان مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه من أجل خاطر السيد .

- ١٧ -

تجمع الجميع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعة اشراق صباح الثامن والعشرين من يونية ، بعد أن إبتهلوا الى السماء أن تمدهم بالعون ، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن بينوا للفيالق نظام السير وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وتولى هييج العظيم - أخو ملك فرنسا - أمر الفيلق الأول كقائد له وحامل لرايته ، وجعلوا معه أنسيلم دى ريمونت الجدير بالثناء على كل ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم وعددهم .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالفرزيانى كونت فلاندرز ، ومعه من ضمهم معسكره من البداية ، أما روبرت دوق نورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخته الفاضل ستيفن كونت أومال وغيره ممن كانوا في بطانته من النبلاء .

أما الميجل أديمار أسقف بوى ، ذو الذكر الغالى ، فقد قاد المجموعة الرابعة التى كانت تشتمل على خاصة أتباعه وأتباع كونت تولوز ، وكان [أديمار] يحمل حربة السيخ المسيح .

وأما رينارد كونت تول فقد كلفوه بأن يقود الفيلق الرابع والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دى ستيناي ، وكونت جارنييه دى جراى ، وهنرى ديش ، ورينولد فون أمرزباخ ، وولتر دوميدارد .

وأمر الزعماء أن يكون على الفيلق السادس رينبالد كونت أورانيج ، ولدفيج دى مونسون ، ولامبرت بن كونون دى مونتاج .

أما جودفروى دوق اللورين ذلك الأمير العظيم الميجل ، وأخوه الموقر لورد استاس ، فكانا على الكتيبة السابعة ، التى رتبها وفق النظام الحربى .

وأما القسم الثامن [من الجيش] فكان بقيادة تانكريد الفارس المعلم فى نبل خلقه وبراعته فى استعمال السلاح .

وأما القسم التاسع فكان فيه هيچ كونت سنت بول ، وابنه انجرائد ، وتوماس دى لافير ، وبلدوين دى بورج ، وروبرت بن جيرارد ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شومونت .

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به الى روترو كونت بيرش ، وايفرارد دى بويسيه ، ودروجو دى مونسي ورالت ابن جودفروى ، وكونون روتو .

وقاد الفيلق الحادى عشر كل من ايزورد كونت ديبى ، وريموند بيليه ، وجاستون دى بزييه وجيرارد دى روسيلون ووليم دى مونبلييه ووليم أمانجو .

أما الفيلق الثانى عشر وهو أكبر الفيالق جميعا فيؤلف مؤخرة الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند زعيما وقائدا ، ووكلوا اليه أمر هذه المؤخرة كى يساعد القوات الأمامية فى اللحظات الحرجة ، كما عهدوا اليه أن يرعى من قد يشتد عليهم ضغط العدو .

واشتدت وطأة المرض بكونت تولوز فى هذا الوقت ، فخلفوه وراءهم لحماية المدينة ، اذ لازالت قلعتها فى قبضة الترك الذين خيف على المدينة منهم أن يظنوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ، فيحاولون الاغارة عليها ، ومباغطة من بها من الشيوخ العجزة والنساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد يحميهم .

ولقد أقام الصليبيون على التل المواجه للقلعة سورا قويا من الأسمنت والحجر ، الى جانب استحكامات اضافية نصبت عليها بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائتين من الشجعان الأشاوس المدججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حين رتبت فرائنا نفسها على هذه الصورة وهياوا صفوفهم للقتال ، قرر الزعماء باتفاق الآراء أن يسير أمام الجيش بأجمعه ويتقدمه كل من هيج العظيم [أخو ملك فرنسا] ، وكونت فلاندرز ، ودوف نورماندى ، أما البقية فعليهم مراعاة الترتيب المتفق عليه ، وجاءت المشاة أولا ومن بعدهم مباشرة الخيالة كحراس لهم ، وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعا أى شخص من التجرد على مد ناظريه الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا على كل ما فيه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما تم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائرة على العدو ، أمكنهم العودة بنفس راضية لجمع الغنيمة .

وقع كربوفا منذ اللحظة الأولى - لا سيما بعد زيارة بطرس [الناسك] له - أن لابد من قيام الصليبيين بشن غارة فجائية على معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الأتراك الموجودين فى القلعة أنه اذا لاحظ أحدهم جماعة الصليبيين وهم يستعدون للخروج من أية ساعة من ساعات يومهم فعلى أهل البلد المبادرة بموافاة معسكره بإشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعة من النهار فى تنظيم صفوفهم ، فلما لاحظ أترك القلعة تحركاتهم بادروا فأعطوا الاشارة لمن فى معسكرهم ، فعزم كربوفا على التقدم والحيولة دون ما نريده ، وأرسل فى الحال نحو ألفى فارس ليصرف نظر قواتنا الموجودة عند الجسر ويمنعها من مغادرة المدينة ، ثم ترجل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم أشد عنفا ، ولكى يجدوا مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فامكنهم الاستيلاء على الطريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فقد رتبوا صفوفهم ، ووزعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابة ، وزخفت فيالقهم واحدا بعد آخر ، وكانت لا تزال مرابطة فى مواضعها على نفس المسافات التى تفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كتائب العدو التى قدمت لمنع جماغتنا من الهجوم تجهد نفسها أشد الاجهاد لبلوغ هذه الغاية ، عمد هيج العظيم الذى يتولى - كما قلنا - قيادة الفيلق الأول بإرسال كوكبة من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على الترك الذين حاولوا المقاومة فى بداية الأمر ، لكنهم ما لبثوا أن عجزوا أخيرا عن صد قواتنا ، واضطروا الى الفرار على غير نظام ، فاقتفى هيج أثرهم فى

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جيادهم وامتطائها الا بعد
لاى وجهد ، وبينما كانوا لائذين بأذيال الهرب استتبسل فى
مهاجمتهم أنسيلم دى ريمونت الذائع الصيت الذى كان واقفا فى
الصف الأول ، وقدم الدليل الناصع على شجاعته ، واندفع
غير عابىء بسلامته حتى صار فى وسطهم وقد كتنفوه من كل
ناحية ولكنه صمد مرديا بعضهم وطاعنا بسيفه قلوب البعض
الآخر ، وأبدى فى الفتك بهم كثيرا من البسالة التى دلت على قدرته
واستلفتت اليه الأنظار ، وجذبت اليه اعجاب جميع المحاربين ،
فخف لنجدته هبج العظيم ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت
كونت نوماندى ، ويلدوين كونت هينولت ، واستاس أخو الدوق ،
وقد امتلأت نفوسهم اعجابا ببطولته فضموا قواتهم بعضها الى
بعض ، وكروا على العدو كرة استأصلوا بها شأفة من لزال هناك
من عسكريه ، ثم تابعوا اقتفاء أثره الى مخيمه وكبدوا المارقين خسارة
يعجز اللسان عن وصفها .

- ١٩ -

بينما كانت قواتنا تغادر المدينة جرى أمر يستحق التسجيل ،
ذلك أنه فى اللحظة التى أخذوا فيها يتهيأون للعمل ، وقد صاروا
بعسكريهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبوا
أمر منعهم من الخروج يخرون صرعى ، ويلوذ غيرهم بالفرار ،
وحدث فى هذه اللحظة بالذات أن أخذت حبات الندى اللذيد
تتساقط على الجيش الصليبي ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش
رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم بردا وسلاما ، حتى لكان السيد
ذاته هو الذى يمنحهم بركاته وعطفه .

وما كان هذا الندى العلوى المعطر يصيب أحدا الا وتدب
الفرحة فى بدنه ، وتنتشى روحه ، ويسترد قوته تمام الاسترداد ،
حتى لكانه لم يشك قط مشقة ولم يلق صعوبة طوال رحلة الحج ،
ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم ، بل ان الجياد ذاتها عادت -
بقوة الله - الى ما كانت عليه من النشاط ، على الرغم من أنها
ظلت لبضعة أيام سالفة لهذا الحدث لا تجد علفا تقتات به ،
ولم يكن لها من طعام سوى ورق الأشجار ولحائها ، أما اليوم فقد
جاوزت سرعتها وصبرها سرعة خيل العدو مع أن عليف جياده كان
من الشعير والتبن :

أدى هذا الأمر الى أن بات الأمل فى النصر قويا ، وبعث هذا
الندى فى جنودنا قوة احتمال طاغية فكانه هو المراد بقول القائل (١) :
« اللهم عند خروجك ... الأرض ارتعدت ، السماوات أيضا
قطرت ... مطرا غزيرا أنضجت يا الله ... ميثاك وهو معى أنت
أصلحته »

والواقع أن جنودنا لم يخامرهم أدنى شك فى أن الذى نالهم
انما هو رحمة الروح القدس قد نزلت عليهم .



ولما أصبحت جميع الكتائب خارج المدينة صمم الزعماء على
نشر العسكر حتى الجبال التى تبعد عن أنطاكية قرابة ميلين ،
واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو - بأعداده الضخمة -
خلصة - أو عنوة - بين قواتنا وبين المدينة ، فيكون فى ذلك الخطر
علينا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة - كما هى عادته - الاحداق

(١) مزابير ، ٦٨ : ٩ - ١٠ .

برجالنا من كل جانب - فيقطع خط الرجعة على المتسللين الى المدينة . واخذ الصليبيون يتقدمون ببطء حتى لا تختلط صفوفهم بعضها ببعض ، أو يختل نظامها ، وقد شاعت الارادة الالهية أن الصليبيين الذين كان يخيل لرائيهم - وهم وراء الأسوار - أنهم دون خصمهم عددا ، أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه - قد صاروا وهم خارجها يوازونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه جمعا ، وهكذا فان « الواحد الذي بارك الأرغفة الخمسة فزاد في بقاياها زيادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى شبعوا قد جاء بمعجزة ليست دون هذه المعجزة حين زاد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح في نظره ، وكان ذلك منه تمجيذا لاسمه » .

وكان القسيس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسرون في ركب من خرجوا للمقتال متسربلين بمسوحهم البيضاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجيد ، كما ظل بالمدينة طائفة من الكهنة وكانوا كأمثالهم متدثرين بمسوحهم الكهنوتية ، واعتلوا الأسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهاال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه .

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التي ظهرت على القلعة ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنا ان الصليبيين أخذوا في التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال في السن وقواد عسكريه ، للتشاور في الوضع الذي كان ينظر اليه بازدراء . ولكنه أصبح يشكل أمرا خطيرا حملة على أن يتخوف

من هؤلاء القوم التافهين ، الذين سنخر منذ قليل جدا من معداتهم وعددهم الضئيل ، ومن ثم شرع في ترتيب قواته ، وتنظيم صفوفه استعدادا للقتال ونزولا على نصيحة مستشاريه ، وأخذته تجربة الأنطاكيين بعين الاعتبار . واستطاع بكثير من المهارة تنظيم قواته وترتيب صفوفها للقتال ، وأقام حدا فاصلا بارزا بين الفيالق التي يتألف منها حرس مقدمته وبين السائرين خلفهم ، وكان من بين تنظيماته الصارمة ما يلي :

هو أنه أرسل ناحية الساحل كتيبة إمتازت بكفاءة رجالها وشجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال إن هذه الكتيبة كانت بقيادة قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذي تردد ذكره كثيرا فيما سبق ، وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه إذا دارت الدائرة على شعب الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل النجاة من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات التي تطاردهم ، وبين الذين يحاولون منعهم من التقدم فتطحنهم رحي القتال بين شقيها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واضعا كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص ، ونادى في عسكره أنهم إن أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يتذكروا ما عرفوا به على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا لا هوادة فيها ، ولا يلقوا بالاً الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ، ولا يزيدون عن أنهم رعاع أنهكتهم المجاعة ، وأعوزهم السلاح ، وقل في يدهم المال .



ولما احتلت قواتنا كل السهل احتلالا أمنوا معه أن يحدق بهم أى خطر أمروا بدق الطبول ايدانا بالزحف ، وشرع العسكر فى التقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، يتقدمهم حاملو الرايات ، حتى اذا صاروا قريبين من المارقين قريبا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهم ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا الثلاثة الأولى ، وقاتل رجالها العدو بالسيوف والرماح فى الأحياء القريبة . أما مشاتنا وهم رماة الأقواس والمنجنيق ، فقد سبقوا كتائب الفرسان ، وراح الجميع ينافس بعضهم بعضا ، وشنوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاة ، باذلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى تبذل قصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مستبسلين فى الهجوم ، فاثاروا الطليعة للقيام بأعمال أكثر شجاعة وأعظم جرأة ، وهجمت جميع القوات الصليبية باستثناء المؤخرة - التى بقيادة بوهيموند - على العدو وحاربته فى بطولة ، واستحرق القتل فى كثير من الترك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركنوا الى الفرار ، وقضى الدوق ووحده قضا مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غير أنه حدث فى هذه اللحظة أن عاد قلج أرسلان بفيلقه الذى كان - كما قلنا من قبل - قد قاده متجها ناحية الشاطئ وكر به كرة عنيفة من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح يرشقها بوابل من السهام التى راحت تتساقط مدارا حتى غطتهم جميعا ، ثم نحتت قوات قلج أرسلان الأقواس جانبا وتجنبت تكتيكاتها المألوفة ، وهاجمت بوهيموند بالهراوات والسيوف وكانت الكرة عليه أضرى ما تكون ، حتى لم تعد صفوفه قادرة على تحمل ضغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كتيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وثلة ضئيلة من رفاقه ، كما أبلى من البسالة الفائقة ما هو
قمين به كقائه ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استجاب الدوق
جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بقواته لمساعدة بوهيموند ، وكان
ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، وترتب على
مجيء هؤلاء الرجال خير كبير ، تمثل فى توازن قواتهم مع قوات
العدو الذى تلاشى بأسسه مما شجع الصليبيين على ملاحقته ، غير
عابئين أن يصابوا فيجرحون أو يقتلون ، فلما رأى الخصم أن
قوته ليست معادلة لقواتنا ، وأدرك أنه لن يستطيع تحمل بأس
خصومه أكثر من هذا عمد عسكريه الى حيل أخرى ، وكان منها
رجوعهم الى مألوف عاداتهم ، فأضرموا النار فى الزروع ، فتأججت
لوجود كميات وفيرة من الحشائش الجافة وأكوام القش التى
سرعان ما أمسكت بها النيران ، وساعدت على اتساع مدى الحريق ،
وعلى الرغم من أن اللهيب كان بسيطاً إلا أنه أسفر عن دخان كثيف
خائق ، فحالت هذه القتامة بين جيشنا وبين مطاردته العدو بشدة ،
ذلك لأن ما أثارتته أقدام كثير من الرجال والجنود من العثير
والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت أن تعميها ، حتى لم تكدر ترى
شيئاً ، فاغتنم العدو وجود هذا الدخان ، واتخذ منه ستاراً استخدمه
بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم قواتنا وفتك بطائفة من مشاتنا ،
غير أن سرعة عدو جياد الفرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان
الكثيف ، فكروا عائدین الى ساحة المعركة ، وجاءهم الغوث من
السماء ، فاستمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد
نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سيوفهم الظامئة
لانتقام ، ولم يكفوا عن مطاردته ، حتى حملوه - وقد اضطربت
صفوفه أشد الاضطراب - على الارتداد الى حيث يوجد اخوانهم .

كان على مقربة من ساحة المعركة واد صغير ، اذا حل الشتاء غمره السيل المتدفق من قمة الجبل العالية ، وقد تمكنت قواتنا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائى ، ولم يتوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم فى تثبيت أقدامهم فوق تل يعلو هذا السهل قليلا ، وراحوا ينفخون فى الأبواق . ويدقون الطبول فى محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا يتعقبونهم دون أن يتوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم ، وبينما كانت المعركة الكبرى دائرة اذ أقبل من المؤخرة الدوق جودفروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشرف الرجال ، وقاتلوا كتائب قليج أرسلان واستأصلوا شأفتهم بمعونة الرب .

فى هذه الأثناء تمكنت الطليعة المؤلفة من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العسكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد ضربت الفوضى أجزانها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارسه القوات الصليبية عليه .

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركة مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة العدو والرواح حاملة له أخبار المعركة ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذ به يطالع - فجأة - اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شتى النواحي على غير هدى ، وتفرقهم أيدي سبأ ، فغمره الحزن الممض حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصححه

أتباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامته ، فغادر المعسكر على عجل لا ئذا بأذيال الفرار غير عابىء مطلقا برجاله ، ولا منتظرا أحدا منهم ، وأخذ يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق ليسهل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو فى حال من الفرع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين شاهدت قوات العدو تخلى قائدها عنها وحرمانها من مساعدته اياها ، زابتها شجاعتها وتلاشى عزمها ، فاستولى رجالها على كل ما عثروا عليه من الخيل ، وحذوا حذو كبيرهم فأمعنوا فى الهروب حتى لا يكونوا طعاما لسيوف مطارديهم .

ولم يكف رجالنا عن مطاردتهم الا لخوفهم من أن تنفق جيادهم تحتهم من طول المطاردة ، بيد أن تانكريد وبشرذمة ضئيلين معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة الغروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفرع الأكبر فى قلوبهم .

ابتليت القوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالخوف ، حتى انهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعتدين عليهم ولا صيدها ، اذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفة ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أمامنا ، وتوضح هذه الحقيقة أنه ظهر صدق المثل القائل (١) :

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب » .

وظهر جليا فى هذه التجربة ذاتها أن قوما أهل متربة تكاد المجاعة تقضى عليهم يصبحون ذوى بأس شديد ، قادرين بمعونة الرب على هزيمة مثل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

(١) أمثال ، ٢١ : ٢٠ .

يتحقق لهم في معركة واحدة فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ يتمكنون
من دحر جميع قوة المشرق الذي لا يعرف الرب ..

- ٢٢ -

حين فرغ رجالنا من المعركة ومنحتهم السماء النصر ، انقلبوا
الى مخيمات العدو فوجدوها زاخرة بكل ما هو ضرورى وما لا غنى
لهم عنه ، وعثروا على احوال كبيرة من الامتعة الشرقية الغالية التى
بلغت من الضخامة قدرا كان من المستحيل معه عدها وتقديرها ،
وهى غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحريير والملايس الغالية،
الى جانب الأدوات المنزلية الرائعة الصنعة ، النفيسة المادة ،
كما وجدت هناك أعداد ضخمة من الجياد وقطعان الماشية وأسرار
الأغنام ، بالإضافة الى مقادير هائلة من الأطعمة والحبوب ،
وكان ما غنموه شيئا عظيم الوفرة ، حتى لقد تحير من كانوا حتى
الآن مملقين أشد الاملاق ماذا يأخذون وماذا يتركون ، واستولوا
على خيام العدو وفساطيطه التى كانوا فى حاجة ملحة اليها ،
لأن ما كان لديهم منها من قبل قد قدم العهد به ورث ، وأبلاه
هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله فى الواقع غير صالح
للاستعمال .

ثم عادوا الى أنطاكية وقد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ،
فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء
والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد العام ، وهو قطعة من
الابداع فى الصنعة قد نسج أغلبه من أحسن أنواع الحرير المتعدد
الألوان ، وكان هذا الفسطاط مؤلفا من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفصلها بعضها عن بعض الشوارع ، وقيل ان هذه الخيمة كانت تتسع لآلفين من الرجال لايزاحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يضايقه .

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذي أحرزوه ، وعادوا شاكرين من جاذت يده عليهم بالغبلة التي وافتهم بعد طول انتظار ، وبعدما قاسوه من الكوارث ، وما نزل بهم من المصائب العديدة .

أما الترك الذين لازالت القلعة في أيديهم فقد أدركوا الآن أن قد حاقت الهزيمة بحلفائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان يراودهم في نجدة تأتيهم من أي مظهر ، وخشوا أن أسلموا القلعة لقادتنا الذين خفقت أعلامهم على شاهق أبراجها ، غير أن الترك اشتروا عليهم أن يأذنوا لهم بالخروج سالمين ، لا يعرض لهم أحد بسوء في أنفسهم ، ولا في أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم .

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة برحمة الرب الكبيرة الشاملة ، وأصبح من كانوا بالأسس الدائري في شدة الاملاق والجوع : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طيب .

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصيب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصيت الذائع - ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطروا معه الى الاستجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان - أحد نبلاء المملكة التيوتونية - فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه في فقر مدقع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى المنة الكبرى أن يتصدق عليه الدوق كل يوم بخبز
يجود به عليه من مائدته .

وشابيه أيضا « هنرى ديش » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ،
اذ كاد - من غير مبالغة - أن يهلك جوعا ، لو لم يستضيفه الدوق
على مائدته .

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوق ذاته مشقة كبيرة قبل
المعركة لعدم وجود خيل لديه ، لكنه استطاع بعد لآى ومشقة ،
وبعد أن قدم ما قدم من التماسات جمة الى كونت تولوز ، أن
يحصل منه على جواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى
وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد
جاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما
ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة .

وهكذا شهدت ساحة المعركة - يوم نشبت المعركة - رجالا
أبطالا ذوى حسيب يمضون اليها مشاة ليس عندهم ظهر يركبونه ،
وبعضهم يمتطى الحمير وأمثالها من دواب النقل ، ذلك لأنهم كانوا قد
أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين ليس لديهم
خيل .

غير أن الله كلاًهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ،
فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأغدق على أتباعه المحتاجين من الثروة
فوق الذى يشتهون وفوق ما يتصورون ، ومن الواضح ان هذا كان
تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكيال من الدقيق
الطحين والشعير قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

(١) هذه اشارة الى امل جاء فى التوراة من خير نية اليسوع بالرخس فى
السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثاني : ١/٧ « وقال اليسوع اسمعوا كلام الرب ،
هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت . لهذا تكون كيلة الدقيق بشاقل ، وكيلة
الشعير بشاقل فى باب السامرة » .

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رmqه الا وقد توفر له منه ما زاد
عن حاجته وما يكفي أن يقيم أود الكثيرين معه .

ولقد وقعت هذه الواقعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر
يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكد القادة يعودون من ساحة القتال ويستتب شيء من
السلام والنظام حتى انصرفت همه الجميع للعناية بالكنائس ، وكان
أشد القوم إخساسا بالمسئولية تجاه هذا الاهتمام [أديمار دي مونتيل]
أمقف بوى المعظم ، باعتباره راعي الجيش ، وعاونته بقية من في
الجيش من القسس معاونة صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يمدون
يده المساعدة عن طيب خاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسية المهداة
الى أمير الحواريين وبقيّة كنائس أنطاكية الى مكانتها التي كانت
عليها في الأصل ، وأقام فيها القساوسة الذين وهبوا أنفسهم على
الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان
يها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس استخداما شائنا ،
فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسة الى اسطبلات للخيل ولغيرها
من دواب النقل ، وممارسوا في غيرها أعمالا دنسية ، وطمسوا صور
القديسين المبجلين التي كانت على جدران هذه المواضع ، وأزالوا
الرموز التي كانت تقوم مقام الكتب والقراءة لعباد الرب المستضعفين ،
وكان ما طمسوه أشياء تبعث التقوى في نفوس البسطاء ، فصيب

الترك غصبهم على هذه الاشياء كما لو كانت احياء يتنفسون ، فراحوا
يسلمون عيونهم ، ويجدون أنوفها ، ويطمسونه هذه الصور بالطين ،
ويلوثونها بالقاذورات ، ويهدمون المذابح ، ويدنسون هيكل الرب
بفعالهم المستنكرة ، فاتفق الاجماع حينذاك على أن يعود رجال الدين
فى لحظتهم لممارسة الأعمال التى كانت مناطة بهم من قبل فى
الكنائس ، وأن يجمع المال ليعينوا به المحاربين فى سبيل الرب ،
وأن يؤخذ ما غنموا من ذهب العبد وفضته فيصنعون من ذلك
الشمعدانات والصلبان وكؤوس القرايين ، ويرسم عليها صور
مستمرة من الكتاب المقدس ، وتستخدم فى كل ما هو ضرورى ولازم
للخدمة فى الكنيسة ، كما قدموا الأقمشة الحريرية لصنع الملابس
الكهنوتية وأغطية المذابح .

وأعيد البطررك «يوحنا» الصادق الايمان الى أبرشيته ، وكان قد
كابد من العذاب على أيدي الترك منذ مقدم الصليبيين ما يعجز
اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاورة التى كانت تتمتع بوجود كنائس كتدرائية
بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا - من ناحية أخرى -
أنه ليس من اللائق اختيار أو ترسيم بطرك لاتينى فى الوقت الذى
كان فيه شاغل هذا المكان الموقر لا يزال على قيد الحياة ، وذلك
تعاشيا من وجود اثنين يشغلان نفس الكرسي فى وقت واحد ،
مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدسين وقراراتهم
التنظيمية . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطررك يوحنا بمحض
ارادته أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن
يكون قادرا - كيوناني - على أن يحكم بفعالية على اللاتين ،
فلما غادرها اجتمع رجال الدين والشعب واختاروا بطركا آخر لهم
هو برنارد إسقف « أرتاح » من أهل فالنسيا وهو الذى صاحب
أسقف بوى فى هذه الحملة كاشبين له .

ثم امتثل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البداية
الا وهو أن تكون السلطة والحكم فى أنطاكية لبوهيموند ، ففعلوا
ما اتفقوا عليه ، ولم يشذ عنهم سوى كونت تولوز ، الذى احتفظ
بالبوابة الملاصقة للجسر وبجميع الأبراج المتصلة بها ، وأقام فيها
حامية من رجاله تتولى أمر حراستها .

على أنه بعد مغادرة الكونت لأنطاكية عمده بوهيموند الى طرد
جند [ريموند] من هناك ، وأحل حامية من رجاله محلهم لحراستها ،
واستولى على المكان كما سنرى خبر ذلك فيما بعد .

ولقد خلع خاصة رجال بوهيموند عليه لقباً تعظيماً ألا وهو
« الأمير » ، الذى أصبح منذ هذه اللحظة لقباً لصاحب أنطاكية
لا يشاركه فيه أحد غيره .



هنا ينتهى الكتاب السادس

● ● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربية للكتاب
الأعمال التى تم إنجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب
الصليبية تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمناً الكتاب
السابع حتى الثانى عشر .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٩	مقدمة المترجم
٢٧	مؤلفات وليم الصوري
٣٣	تاريخه الكبير
٤٥	كلمة شكر
٤٧	التمهيد
٥٧	الكتاب الأول : المسيحية تهبط لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس الناسك يبدأ في الزحف مع جماعات أخرى
١٣٩	الكتاب الثاني : جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية
١٩٣	الكتاب الثالث : الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى
٢٤٩	الكتاب الرابع : اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم في احصار أنطاكية
٣٠٧	الكتاب الخامس : حصار أنطاكية واحتلالها
٣٦٣	الكتاب السادس : محاصرة الصليبيين : النصر المفجزة
٤٢٢	

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد
د. محمد أنيس
- ٨ - رؤية الجبرتنى لازمة الحياة الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية

شكري القاضي

١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير

د. نبيل داغب

١٣ - اكدوبة الاستعمار المصري للسودان

د. عبد العظيم رمضان

١٤ - مصر في عصر الولاة

د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي

د. علي حسن الخربوطلي

١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر

د. حلمي احمد شلبي

١٧ - القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني

د. محمد نصر فرحات

١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية

د. علي السيد محمود

١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د. احمد محمود صابون

٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي

د. محمد انيس

٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ١

توفيق الطويل

٢٢ - نظرات في تاريخ مصر

جمال بدوي

- ٢٢ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج٢
توفيق الطويل
- ٢٣ - الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
- ٢٤ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
- ٢٥ - تاريخ الفكر التربوى في مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على
- ٢٦ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٨ - مصر في عصر الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٢٩ - الموظفون في مصر
د. حلمى احمد شلبى
- ٣٠ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣١ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢
لمعى المطيعى
- ٣٢ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى
- ٣٣ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكي
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف :
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على اليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقي الجمعى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى

تطلب كتب هذه السلسلة :

- باعة الصحف
 - مكتبة الهيئة
 - المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة
 - منافذ التوزيع في مكان وفروع الثقافة الجماهيرية وهي كما يلي :
 - الودائع الجديدة ، الداخلة والخارجة
 - البحيرة
 - المنيا
 - بورسعيد
 - دمياط
 - فارسكور
 - القليوبية (بنها)
-

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٤٥١٥

ISBN — 977 — 01 — 2763 — 9

هذا الكتاب « تاريخ الحروب الصليبية » عمل علمي
كبير لويليم الصوري الذي يعرفه طلاب الدراسات
التاريخية كأحد اعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب ،
وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ - ١١٨٤
والفترة التي تليها اى على مدى قرن ونصف من الزمان
والتي اخذت تتدفق فيها الهجرات الشعبية المسلحة
المتسربة بمسوح الدين والصليب ، وهي التي عرفت
باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر في اربعة مجلدات - هذا
اولها - اثبت فيها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته
العلمية وتفرد بقدر عظيم من الدقة التي ترسم لنا
الجديد من المؤرخين الطريق للوصول الى
بمعناها الصحيح .

Bibliotheca Alexandrina



0465184